زهدي الداوودي

عويل الذئاب



زهدي الداوودي

عويل الذئاب

رواية



دار اراس للطباعة والنشر

أربيل - اقليم كردستان العراق

دار اراس للطباعة والنشر
شارع گولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الألكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

زهدي الداوودي
عويل الذئاب - رواية
منشورات اراس رقم: ١٣٨٤
الطبعة الأولى ٢٠١٣
كمية الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة اراس - أربيل
رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٣٠٢ - ٢٠١٣
الاخراج الداخلي والغلاف: آراس أكرم
التصحيح: جمال كريم

ردمك:
ISBN: 978-91-979170-4-9

هذه الرواية

يقول الناقد الألماني مارسيل رايش _ رانيسكي في كتابه (من يكتب، يستفز): "إن الروائي مسموح له مطلقاً، كل شيء. في سبيل المثال يمكنه أن يقوم بمخالفات ضد المنطق أو ضد الذوق السليم. فقط شيء واحد غير مسموح له مهما كانت الأعذار: أن لا يبعث الملل في نفس القاريء".

إنطلاقاً من هذا المفهوم الذي عبر عنه بابا الأدب الألماني، لجأت أنا الآخر إلى الخروج، ليس على قواعد الذوق السليم، بل على بعض قوالب بناء الرواية التقليدية التي ينبغي على الكاتب الروائي الإلتزام بها. أعترف بأنني خالفت بعض شروط العرف الروائي وأستحق غضب بعض النقاد لهذا الخرق الإضطراري. ولكن، لماذا قمت بهذه المخالفة. هل قمت بذلك من باب فلسفة "خالف تعرف"؟.

الذي يعرفني لا يقتنع بهذا السبب.

فماهو السبب إذاً؟

الرواية عالم رحب يتحمل كل شيء. إنها كما يقول الناقد الروسي دمتري ساتونسكي في كتابه الرواية والقرن العشرون: "قصة نثرية بمساحة كبيرة". يمكن للروائي أن يشحن هذه المساحة الكبيرة بالأفكار والسيرة الذاتية والرسائل والريبورتاجات والوثائق والأسطورة..إلخ، ولكن يجب أن يرتب بطريقة تلائم فن الرواية الحديثة التي تخلق من كل تلك الأشياء وحدة متكاملة يبلورها ويشترك فيها بطل واحد أو عائلة واحدة أو مجموعة أبطال رئيسيين

وثانويين لها مساس معين بالخط الأحمر الذي يطوّق الأحداث ويربطها بالحياة كشدة ورد يلفها خيط من سيقانها.

منذ فترة غير قصيرة، تتجاوز عشر سنوات وأنا (تحصرني) فكرة كتابة رواية تتناول سيرة حياة دكتاتور، لا على التعيين "نشوؤه، صعوده ونهايته". كنت أحياناً أستسخف مشروعي الذي أراه مجرد فكرة طارئة ستتلاشى مع الزمن، إذ أن حشر شخصية، لا تعرفها ولم تختلط بها، ناهيك عن البروتوكولات التي تسيّر حياته في رواية طويلة، مسألة غير هينة. إن الكتاب وأي كتاب هو في الحقيقة بضاعة _ في عين الناشر طبعاً _ فَمَن من الناشرين على إستعداد للمغامرة بإنزال مثل هذه البضاعة إلى السوق؟

تركت الفكرة وشأنها، بيد إني لم أنسها، إذ أن الإنسان لا يمكن أن يجبر نفسه على نسيان شيء لا يريد أن يُمحى من ذاكرته. وأحسست أن الفكرة بدأت تأخذ إستقلالها الذاتي وتنظم نفسها بنفسها بمعزل عني وتخطط من أجل الضغط عليّ لأداء دوري في أخذ الفكرة بجد. والمشكلة التي تحسم مسألة نسيان الفكرة أو عدم نسيانها هي "الضغط" الذي يمارس تجاه الكاتب، دون أن يدري هذا شيئاً عن المصدر المحرك للفكرة. هنا تبدأ مرحلة الحمل، حيث يتحول الكاتب إلى إمرأة حبلى بالفكرة (الرواية) دون أي تماس جنسي، شأنه شأن مريم العذراء عليها السلام. وأحسست بالضغط الصادر علي من الفكرة، حيث تريد الخروج إلى عالم النور بأسرع وقت ممكن. هذا الشعور الغريب لا يحس به سوى من يكتب أو يرسم أو ينحت أو يخترع، حيث يحولك إلى عبد يشدك إلى العمل الإبداعي الذي لا يمكنك الخلاص من قيوده، إلا بعد إنجازك له، حيث تستعيد حريتك. أعتقد أن العمل الإبداعي هذا، كان يسمى في العصر الجاهلي بالوحي الذي ما زال جارياً في العصر الحديث، مع إختلاف طفيف في الجوهر. ولما كانت هذه العملية الإبداعية هي نتاج الموضوعة المعرفية(قانون التراكم الكمي يؤدي إلى التغير النوعي)، لذا يمكن

إعتباره خطوة تقدمية إلى الأمام.

وهكذا رضخت للأمر الواقع وبدأت أفكر في رسم خطة الرواية. وراحت الأفكار المتداخلة تحدق بي من كل الجهات. الموضوع إذاً يتناول حياة دكتاتور ضمن صراعه المستميت من أجل السلطة ضد دكتاتور آخر، أقل وطأة منه، الأخير هو رئيس الدولة المعتدل والثاني، الذي يريد أن يحتل مكان الرئيس المعتدل بأي ثمن كان، هو مساعد الرئيس الذي يتصف بالشراسة والعدوانية والغرور والتعذيب حتى الموت، لا يردعه رادع من إستعمال أبشع الوسائل في الإبادة الجَماعية. وقبل أن أدير رأسي للبحث عن دكتاتور نموذجي، تتوفر فيه المواصفات المطلوبة، فوجئت بطابور منهم يقف في خط طويل أمامي، حيث يرتدون الملابس العسكرية ويحملون مختلف أنواع الأوسمة والنياشين التي يستوحون منها بوزاتهم ويعتبرونها دلائل ثبوتية ملموسة كونهم عملوا إلى جانب دكتاتور أكبر، يعني في نظرهم أبن الشعب البار أو القائد الأب أو الزعيم الأوحد.

فكرت في إختيار نموذج واحد وتطويره بشكل يمثل جميع الجوانب السلبية التي تستحق لعنة القاريء، بيد إنني سرعان ماعدلت عن الفكرة بسبب عدم إقتناعي بموضوعيتي في تناول الشخصية بصورة عادلة، إذ أن الدكتاتور إنسان مثلنا، له جوانبه الإنسانية المخفية أيضاً، بيد أنك مهما حاولت إظهار هذا الجانب الخفي وأعطيته صفة البراءة، لما تمكنت أن تقنع الآخرين بمصداقية رأيك. ناهيك أنهم يصفونك بالغفلة والسذاجة فمن المستحيل، في رأيهم، أن يكون الذئب بريئاً. إن توبة الذئب في قتله. كما يقول المثل الشعبي، ثم أنني لا أريد الوقوع في مطبات السياسة والدعاية الساذجة. هذا بالرغم من أن تكون حيادياً تجاه دكتاتور لأمر في غاية الصعوبة.

ورحت أفكر طويلاً في إختيار البطل الرئيس والأبطال الثانويين الذين تلهفوا للعب الدور الرئيسي، إذ أن من إحدى صفات الدكتاتوريين، حب الظهور.

الشيء المهم عندهم هو أن يتحولوا إلى مادة للكتابة ولا يهمهم بعد ذلك ما إذا كانت لهم أم عليهم. ومع ذلك يعرفون كيف ينتقمون ممن أساء إلى سمعتهم.

وراحت الأسماء تتسابق للوصول إلى عتبة الرواية:

وهي مجموعة من الحثالات البشرية التي يرقد أغلبها تحت مزبلة التاريخ. والبقية الباقية تنتظر دورها الحتمي للركون إلى المصيرنفسه.

تبين لي أنهم ضعاف النفوس أمام المديح. كل واحد منهم يريد أن يكون هو عنوان الرواية. في اللحظات التي كانوا يتسابقون فيها من أجل الحصول على رغبتهم، قفَزَت إلى ذهني فكرة مفادها أخذ عادة أو خصلة أو طبيعة معينة من كل دكتاتور وإلصاقها بجسد أسوأ دكتاتور، تحول في أواخر أيامه إلى قره قوز. إتفقوا بالإجماع على هذا الإقتراح. المهم هو ذكر أسمائهم التي أصبحت في طي النسيان.

وعلى الرغم أن الدكتاتوريين يكونون عادة أناساً دمويين، وهذا يعتبر أحد الشروط الضرورية في أن تحمل لقب الدكتاتور عن جدارة، فإنهم، نتيجة للفروق الفردية فيما بينهم يختلفون عن بعضهم بعضاً، ولذلك يكون التعامل معهم أمراً صعباً. هناك دكتاتور يبيد وآخر يقتل وثمة دكتاتور يبني ويهدم. ما الفرق بين الإبادة والقتل؟ الإبادة تكون تجاه أقلية يحتقرها الدكتاتور، فيأمر بإبادتها ودفنها في مقابر جماعية يخفيها في أماكن مختلفة سرية غير معروفة عند مواطني البلد. وتسمى هذه الطريقة من الجريمة بجرائم ضد الإنسانية. وأما القتل فيجري تجاه عدد من الثوار الذين يرميهم الدكتاتور بالرصاص في مكان عام بدون محاكمة ليجعل منهم عبرة لمن يريد التحرش بنظام حكمه. وماذا يسمى هذا النوع من الجرائم؟. لا أدري.

إن القاتل حين يتبجح بالقتل علناً، إنما لكي يثبت لمقابله إنه فعل ذلك إنطلاقاً من مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". أو إنه مستعد لقتل العشرات بل المئات من البشر في سبيل العقيدة التي يؤمن بها هو، ولا يؤمن بها أولئك الذين، ربما

لهم عقائدهم الخاصة بهم. إن موقفه هذا لمؤشر واضح إلى كونه كان جباناً منذ طفولته ليس إلا.

كيف تساوي إذاً بين دكتاتورَين، تورطا في قتل مجموعة من البشر الأبرياء، لا ذنب لهم سوى أن شجاعتهم دفعتهم لنقد الدكتاتور.

قتل إمرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمــن مسألة فيها نظـر

يعيدنا هذا البيت إلى التأمل في الفروق الفروق الفردية بين دكتاتور وآخر.

إنني إذاً بين إحتمالين، الإحتمال الأول: أن أفشل في تقديم رواية ناجحة (غير مملة) أي، إذا أحس القاري منذ الصفحات الأولى بأن الرواية مملة، لا يتمكن من مواصلة القراءة، أكون قد فشلت في عرض شخصية الدكتاتور وسيرته الذاتية وصراعه المستميت من أجل السلطة بصورة تشد القارئ إلى الرواية.

الإحتمال الثاني: أن أنجح في شد القارئ إلى عالم الرواية، وجلب إنتباهه، ذلك أن نجاح الرواية مرهون بموضوع حاسم، ألا وهو ما إذا كانت الرواية مملة أم مشوقة.

هنا، لابد لي أن أحدد موقفي من الإحتمالين. إذا إنتصر الإحتمال الأول، أي الفاشل، فينبغي علي أن أعيد النظر في مجمل طريقة كتابتي التي قد تؤدي إلى التوقف نهائياً عن كتابة الرواية. وأما إذا إنتصر الإحتمال الثاني، فهات يا قلم.

ولتوضيح المسألة بما يتعلق بالفن الروائي وسر الشخصيات الروائية وحركة الأحداث والقوى المحركة لها ومن أوجدها أو أبدعها، فأقول بأنني لم أعايش ولم أعش الأحداث شخصياً، أي إنني لست الشخص الراوي. الشخص الراوي كان يحكي لي الأحداث التي عاشها فعلاً. وكان يؤكد علي دوما، بعد

إنتهائه من رواية أحد المقاطع بأن يبقى ما يرويه لي سراً بيننا فقط.كنت أعرف أن دافعه للكلام هو كي يخفف من عبء الأحداث على نفسه وليس فضح جهة ما. كان لا يعرف بأنني بعد إنتهائه من رواية مقطع من حكاياته، أخلو إلى نفسي وأسجل ما رواه لي حرفياً على الورق. كان لا يدري بأنني كاتب روائي. ولكنه كان متأكدا بأنني لن أخونه.

زهدي الداوودي

١

الطابور الطويليزحف ببطء شديد بإتجاه الباب الحديدي بعد رحلة متعبة، لا يلبث أن يتوقف عن الحركة، حين يقف الرجل الذي يسمونه بـ (رأس الطابور) أمام موظف جالس وراء منضدة قديمة ينقل المعلومات المثبتة في هويته الشخصية إلى إستمارة تحتوي على الأسئلة المطلوبة. الطرف الثاني من الطابور،يمتد بعيداً إلى ما وراء الأفق الرمادي، بحيث تتلاشى نهايته وراء العواصف الرملية والأتربة المتصاعدة التي تنبعث من رقعة من الوديان المتداخلة التي تتحرك فوقها حفارات عملاقة، تحيط بها مكائن ونقاط سوداء تتحرك وتنتقل من مكان إلى آخر. وبين فينة وأخرى تفلت موجة، تسدل ستاراً ترابياً على المكان، أشبه بغيمة هائلة، تخفي النقاط السوداء والمكائن عن الرؤية على مدى دقائق غير قليلة. وثمة نساء ورجال، يبدوا عليهم التعب والإرهاق، يحملون أكياساً بيضاء، تحتوي شيئاً ما، يأتون من جهة الأفق بموازاة الطابوركما لو أنهم يهتدون به. بيد أن الطابور القادم ما أن يقترب من البوابة الحديدية، إلا ويتفرع جانباً إلى بوابة خشبية أخرى يحرسها أفراد من شرطة الصحراء. إن هؤلاء بإنتظار وصول باصات لنقلهم إلى المدينة.

أفراد الطابور الأول الذي يقف أمام الباب الحديدي، يتسلمون من الموظف المسؤول الذي يحيط به مجموعة من الموظفين الصغار والعمال، كيساً مليئاً بالمواد الغذائية الناشفة وزجاجات المياه المعدنية. وعند تسليم الكيس يقول الموظف بلهجة ودية:

"حاول أن لا تسرف في شرب الماء وإلا ستعرض نفسك للخطر"

ثم ينادي على الشخص الذي يليه ويعيد معه العملية نفسها ولكن ببطء أشد.

ويتخذ مستلم الزاد ضمن الطابور الآخر طريقه بإتجاه المكان الذي تتصاعد منه غيوم الرمال والأتربة.

إن الطابورين في حركة ذهاب وإياب مستمرين. تبدأ مع شروق الشمس وتنتهي مع غروبها، حيث يجنحون إلى الراحة في خيام ينصبها رجال أشداء من البدو يرافقون الطابورين. وأما الذين يعثرون على رفات شهدائهم، فيحصلون على ورقة تأييد من أحد موظفي هيئة الأمم المتحدة المتواجدين هناك مع كيس من قماش الخام يحتوي على الرفات والأدلة الثبوتية. آنذاك يحق للشخص أو العائلة العودة الى بلدتهم أو مدينتهم بأحد الباصات المخصصة لهذا الغرض. وتتحرك الباصات الموجودة هناك تحت إشراف هيئة الأمم.

تستغرق عملية البحث والعثور على رفات الفقيد، أسبوعا كاملاً، وبخلافه يحال صاحب الميت إلى أقرب مقبرة جماعية.

ولما كان جميع السائرين في الطابورين، تجمعهم مصيبة مشتركة، لذا كانت ثمة رابطة روحية داخلية محكمة تشد من أزرهم وتربط بعضهم بعضاً. كانوا يسلون أنفسهم برواية أنواع القصص البطولية التي عاشها فقيدهم إلى أن أختفى ذات يوم ولم يعد إلى البيت، إلى أن تم العثور على رفاته الراقد داخل هذا الكيس.

سأل شقيق أحد الباقين من الرجال الخمسة، الذين أغتيلوا بصورة غامضة، وفي أماكن متفرقة، صديق أحد المغدورين من هؤلاء، دون أن يصدق ما سمعه:

"متى حدث ذلك؟"

أجاب الراوي، الذي عاشر الأحداث، كشاهد عيان رأى كل شيء بأم عينيه، والذي كان يروي الحكايات بلهجة صارمة كأنه يريد أن يثبت بأن الحق يقف إلى جانبه:

"حدث ذلك قبل أعوام طويلة وأزمان مختلفة، اختلط فيها الحابل بالنابل، لا يمكن حصرها بالدقة التي يتطلبها إنسان طبيعي عاقل ينظر إلى الأحداث بنظرة من يبحث عن أب اللقيط كما يقول المثل. ولكن، كيف انتشر الحديث أو الخبر الطويل ووصل في حينه إلى هذا المكان المرعب الذي لا يعرف سكانه إلا لغة الهمسات والنظرات والإشارات؟ أناس حولتهم أقدارهم إلى مخلوقات تعيش منذ أمد بعيد في أنفاق تحت الأرض نسيت ضوء الشمس وشعاع القمر و ألوان أوراق الأشجار ونسيت أيضاً التهم الموجهة إليها، بيد أن البعض من هذه المخلوقات، لا يزال يتذكر نتفاً من هذه التهم التافهة التي فحواها أن أحدهم قد تجرأ وبلغت به الحماقة أن اتهم رئيس الجمهورية بأنه مارس الجنس في حينه مع الحمار أو أتهم نائبه بأنه مثليّ وأمه عاهرة وبعض هؤلاء تحدى الحكومة ووقف بوجهها واقفا إلى جانب المعارضة يريد إسقاطها بكل الوسائل. وثمة تهم عجيبة وغريبة ألصقت بهم غدراً وبهتاناً مثل شرب الخمر والتسكع والتحرش بالنساء أو تحريض وخلق التذمر ضد السلطة بحجة عدم وجود الكهرباء والماء وهيمنة الغلاء الفاحش على السوق. ويعلم الكثير ممن لهم أقارب في صفوف هؤلاء المنسيين بأن معظمهم من المحامين والمدرسين والطلبة والمهندسين والأطباء والعمال والكسبة والفلاحين وغيرهم كما وبين هؤلاء نساء باكرات كن عذراوات وأمهات مع أطفالهن وصبيان صغار لا يتجاوزون الخامسة عشرة. قسم منهم محكوم بالإعدام وقسم آخر لم يجر معه أي تحقيق منذ سنوات".

توقف الرجل برهة عن الحديث، كي يأخذ نفساً طويلاً ينشّط من خلاله رئتيه المتعبتين اللتين راحتا تضغطان على صدره. قال بعد أن أحس بالراحة في أنحاء جسمه:

"وظل الناس على مدى عقود من الزمن يحلمون بمن يأتي وينقذهم من هذا الظلم المسلط عليهم. وشاعت الأقدار أن يأتي من يزيح هؤلاء وينشر العدالة

والأمن بين الناس، بيد أن ما جاء لم يكن غيوماً محملة بمياه الأمطار التي كانت الأرض العطشى تنتظرها، بل سراباً منتشراً على صحراء قاحلة، راح يتحدى في ظلمه من سبقهم.

كان سارق الأكفان الأبن أسوأ بكثير من سارق الأكفان الأب"

سكت الرجل برهة وهو يتنفس بصعوبة ثم أضاف:

"إن سلاسل الظلم لم تنقطع ولم تخف وسواء صدقت أم لم تصدق، فأنا سأظل لا أثرثر، فحسب، بل أرفع السلاح في وجوههم إلى أن ينصرني الله عليهم، تطاردهم الهزيمة الشنعاء إلى حيث الدرك الأسفل"

٢

طلب مساعد الرئيس من سكرتيره، وهو يمد يده لرفع سماعة التلفون، أن يترك الغرفةلنحو ربع الساعة على أن يجلب معه فنجان قهوة عند عودته إلى مكانه. حين خلت الغرفة وتأكد المساعدمن أن كلامه لا يصل إلى مسمع أي إنسان آخر، تحدث عبر الهاتف مع مدير الأمن العام، هكذا بدون مقدمات أو الاستفسار عن الصحة والأوضاع سواء في محيط العائلة أو في مجال الأوضاع العامة والويل لمن يخرق هذه العادة التي يعرف بها معظم المحيطين به:

"هناك مهمة أحتاج لها إلى نحو سبعة أشرار، لا يعرفون الرحمة، من المحكومين بالإعدام. تأكد من أنهم لا يثرثرون وينفذون الأوامر بحذافيرها على أن يكونوا غير فضوليين. اعلم أن واجبهم هو تنفيذ الأوامر وليس النقاش الذي قد يؤدي إلى فقدان رؤوسهم. بعد إنتهاء مهماتهم سيعينون في جهاز الأمن أو الشرطة، طبعاً ليس بصورة عشوائية. كن دقيقاً في اختيارك الذي ستتحمل أنت مسؤوليته. مفهوم؟ عندك سؤال؟"

"نعم سيدي. كل شيء واضح. متى تحتاجهم سيدي"

"في أسرع وقت ممكن، ولكن المهم هو النوعيات"

كان مدير الأمن العام على اطلاع تام بالمحكومين بالإعدام أو الحكم المؤبد ويعرفهم واحداً واحداً. معظمهم من السجناء غير السياسيين المعروفين بالعاديين. كانوا موزعين في غرف إعدام انفرادية لا تبدو عليهم معالم الخوف إلا نادراً، يعتبرون أنفسهم أبطالا يختلفون عن كل السجناء الآخرين. كان مدير الأمن العام يحتك بهم ويتظاهر باحترامهم، ذلك أنه يعتبرهم من المشكلات المحلولة التي لا تقبل الجدال وتشكل قوة غير منظمة لمواجهة أعداء النظام في الأوقات الحرجة. وكان مساعد الرئيس يؤكد دوما على ضرورة الاهتمام بهؤلاء الذين قد يحتاجونهم ذات يوم. وأنك إذا حشمت هؤلاء فانهم مستعدون للذهاب معك حتى الى الجحيم"

كان مدير الأمن العام يعرف سيده جيداً ويعرف أساليبه في القضاء على أعدائه ومعارضيه، ذلك أنه شريكه الحقيقي في تنفيذ ولائم القضاء على من عليه أقل شبهة في معاداته. وعندما كان المساعد، كعادته دائماً بعد كل جريمة، يؤكد عليه بالحفاظ على سرية العمل، يجيبه رأساً في كل مرة (السر عندي باب ضاعت مفاتيحه) وفكر مدير الأمن أن سيده لا شك يحتاج إلى هؤلاء البلطجية للقضاء على كتل المعارضة الدينية التي ساعدته في حينه للوصول إلى الحكم، ولكنه لماذا اختار بالذات هؤلاء البلطجية الذين لا قيم عندهم ولا أخلاق ناهيك عن الضبط وكتمان السر. ولأول مرة يفكر مدير الأمن العام بعمق في عملية إناطة الواجب إلى مثل هؤلاء الذين يسميهمبالساقطين. وحين طال به التفكير دون أن يجد سبباً، صعد من أعماقه نداء يحذره وينبهه إلى خطورة التفكير بهذا الشكل ويطلب منه أن لا يعرض عنقه إلى الذبح. نزع نظارته السميكة وقام من مكانه كما لو أنه نسى أمراً تذكره تواً. وقرر في نفسه أن لا يوسوس ولا يتدخل في شؤون السيد المساعد الذي تغيرت أخلاقه وطبيعته ومزاجه، على

أن يسعى بصورة سرية لمعرفة السر. أتته فكرة أن يسأل السيد المساعد عن المهمة التي تناط بهؤلاء كي يتمكن في ضوء ذلك من أختيار المجرمين المناسبين للعملية وإلا فان المسألة ستتيه وتضيع النقطة الأساسية، ولكن، ألا يعتبر ذلك تدخلا في شؤون السيد المساعد؟ وويل لمن يغضب عليه هذا السيد المساعد الملعون، وما أدراك ما المساعد الملعون. لا سؤال ولا فضول ولا هم يحزنون. إنه موظف كبير بقي حتى الآن في خدمة الدولة بفضل عدم طرحه الأسئلة الغبية التي أدت إلى تدحرج رؤوس خيرة أصدقائه، بل وخيرة أقرب أقاربه. السكوت إذاً من ذهب. وما عليه سوى أن يخدم المساعد ويقدم له الولاء والطاعة.

أتته رغبة جارفة للقيام بالمهمة ولا شك أن السيد المساعد سيبادر هو شخصياً لإطلاعه عليها بعد نجاحها فلا داعي للفضول.

سبعة رجال أشداء من المحكومين بالإعدام. فكرة غريبة لا تخطر ببال أحد. هنا تكمن إذاً عبقرية القائد الذي ينبغي أن يتخلص من لقب المساعد. ولماذا المساعد وليس الرئيس. هل هذا الرئيس الغبي أحسن منه؟ إذا أردت أن تدغدغ مشاعر المساعد، فاجعل الرئيس هدفاً للطعن به أو جعله موضوعاً لنكتة تفضح فيها غباءه. من أين جاء هذا الرئيس الذي وضع نفسه على قمة السلطة؟ ألم يضعه المساعد هناك مضحياً بموقعه وضاربا ً عتاب المعاتبين في عرض الحائط. إن مثل هذا البطل لا يقتحم وويل لمن يستعرض عضلاته في وجهه.

كان من عادة مدير الأمن العام حفظ ملفات المحكومين بالاعدام، بعد إعادتها من مكتب رئيس الجمهورية، في مكتبه هو، إذ من عادته إجراء تحقيقات طويلة وعريضة معهم تتعلق بمعرفة سيرهم الذاتية والعشيرة التي ينتمون إليها، ذلك أن معظم العشائر يدافع عن أبنائه ويحاول بكل الوسائل تخفيف حكم الاعدام وهكذا تجري المساومات بين الدولة والعشائر على حساب

عنق المحكوم الذي يترك أمره بيد رئيس العشيرة. وقد تلعب الرشوة الدسمة دوراً حاسما في انقاذ رأس المحكوم ليس من حبل المشنقة فحسب، بل إطلاق سراحه والعودة إلى البيتساما معززاً، حيث يعمل له هوية جديدة ويجري تبديله مع أحد المجانين النازلين في مستشفى الأمراض العقلية التي يجري سحبه منها إلى مكان آخر لغرض اعدامه.

بعد إلقاء نظرة سريعة على الملفات التي جمعها سكرتيره، تبين لمدير الأمن العام أن عدد المحكومين بالإعدام هم ثلاثون شخصاً، ينتمون إلى عشائر كبيرة وشبه متنقلة. سحب سبعة ملفات لمحكومين لا ينتمون إلى أي عشيرة ثم أوعز إلى سكرتيره أن يعيد الملفات إلى أماكنها وهو يقول في نفسه:" تجنب شر الاقطاعي المتخلف". المفروض في مثل هذه الحالات أن المدير العام يقوم بتوزيع الاستمارات أو جداول الأعمال على موظفين مختصين، يرتبطون به مباشرة ويقوم هذا الموظف باستدعاء المحكوم من زنزانته وطرح الاسئلة المثبتة في الاستمارة عليه ويقوم الموظف بتسجيل الأجوبة في الاستمارة بعد مقارنتها مع استمارات قديمة سبق أن أجاب عنها المحكوم. أما بالنسبة إلى طلب السيد مساعد الرئيس الذي جاء مباشرة من عنده، فهو سري للغاية لا يجوز أن يطلع عليه حتى رئيس الجمهورية الذي هو الآخر يتجنب التدخل في شؤون مساعده. إنها مسألة معقدة بعض الشيء للإنسان العادي، ولكنها مفهومة من قبل المساعد ومدير أمنه العام.

اتصل مدير الأمن تلفونيا بمدير السجن وطلب منه أن يجلب له سبعة محكومين بالاعدام من الذين تم الاتفاق عليهم مع سكرتيره. ظن مدير السجن أن الأمر يتعلق باعدامهم ولذلك استفسر بصورة لا إرادية ما إذا عليه اتخاذ الاجراءات اللازمة مع الجلادين. قال مدير الأمن بصورة عصبية:

"يا حمار، من قال لك انهم سيعدمون. ستفقد رأسك ذات يوم بسبب لسانك الثرثار"

"العفو ثيدي. ثار عندي التباث"

"اسمع جيداً، اجلبهم خلال أقل من ساعة. رافقهم بنفسك، اشعرهم بالاحترام تجاههم، دون أن تتبادل معهم كلمة واحدة. مفهوم؟ يجب أن تتم العملية بسرية تامة. أقل تسرب للخبر سيؤدي إلى تدحرج رأسك، مفهوم؟"

"نعم ثيدي، مفهوم"

فضول داخلي يلح عليه لمعرفة هدف مساعد الرئيس من استدعاء سبعة رجال من المحكومين بالاعدام. كيف يمكنه كشف السر المستتر في صدر مساعد الرئيس؟ كلا، كلا. الاستعجال لمعرفة السر فيه خطورة كبيرة. عليه أن يتحلى بالصبر. ليس من الضرورة أن يعرف مدير الأمن العام كل شيء. إن الأيام هي التي ستكشف كل سر، إذ أن حامل السر لا يتمكن من حمل السر إلى الأبد.

وصل مدير السجن المركزي خلال أقل من ساعة بسيارة نقل مغلقة عائدة لإدارة الشرطة تحمل سبعة محكومين بالإعدام. استقبلهم مدير الأمن العام شخصيا. أدخلت السيارة إلى كراج خاص، طلب فيه مدير الأمن العام من سكرتيره أن يعيد مدير السجن المركزي إلى دائرته. بعد أن تم غلق باب الكراج، فتح المدير باب السيارة وطلب من الرجال السبعة أن يترجلوا. كان المحكومون بالإعدام يعرفون مدير الأمن العام. على أثر ذلك اقشعرت أبدانهم وتحولت وجوههم إلى مجرد جلد جاف تغطيه معالم الخوف. إن المدير العام رجل ضئيل بعينين ضعيفتين، تبدو على ملامحه القسوة والعنف، إذا رأيته في الشارع لما أسترعى انتباهك، ولكنه حين يحمل العصا أو السوط وينهال بالضرب على الشخص الذي يحقق معه، آنذاك تعرف كم مكروه هذا الثعبان السام. تطلع المدير العام إلى وجوههم بدقة وعلم أنهم لم ينسوا حفلات التعذيب التي جرت معهم. ولكنه حين تذكر كلام السيد المساعد بخصوص إشعارهم بنوع من الاحترام، رأى أن يطمئنهم ويخرجهم من هوة الصدمة

التي اصيبوا بها. بعد أن قطعوا ممراً معتما، قادهم إلى غرفة جانبية مفروشة بالأثاث الكامل مع مطبخ صغير وجهاز تلفزيون وفيديو مع منضدة طويلة تحيط بها تسعة كراسي فخمة. طلب إليهم بلطف أن يتخذوا أماكنهم عليها. كان المدير لا يزال يحدق في وجوههم التي ما زالت مكتسية بالخوف. كانت الساعة المعلقة على الجدار تشير إلى الواحدة والربع ظهراً. رحب بهم المدير بلهجة، بذل فيها جهده، أن تكون ودية ثم قال بعد أن هم بترك الغرفة:

"لا شك اننا كلنا جياع وفي كل الأحوال حان موعد الغداء، سأرجع فورا"

حين ترك المدير الغرفة، علق أحدهم بلهجة مرحة:

"والكعبة هاي آخر غدة وآخر يوم من حياتنا"

لم يستجب أحد لكلامه، إذ أن الجميع كان لا يزال حائرا وغير مصدق لما يجري حواليه. أحدهم حاول أن ينبهه بالاشارات إلى إحتمال وجود لاقطات. خيم عليهم الصمت لحين عودة المدير بعد دقائق. رغم محاولة المدير خلق نوع من الجو الأليف، فإنه لم يفلح في مهمته. كان يعرف جيداً بأن طبيعته جافة لا يمكن تغييرها.

"ولعل هذه الصفة المتأصلة فيه هي التي جعلته أن يتسلم مهمة منصب المدير العام لجهاز الأمن".

قالها في نفسه ثم اتخذ مكانه في الصدارة وقال أن لديهم بعض الوقت للدردشة لحين مجيء الطعام، واصلمن دون مقدمات أو المبالغة بالترحيب بهم،لاسيما أنه هو نفسه لا يعرف سبب جمع هذا العدد من المحكومين بالإعدام:

"إخوان، أسمح لنفسي أن أتحدث معكم بصراحة وأقول بصراحة أيضاً بأنني أنا الآخر مثلكم لا أعرف سبب جلب سبعة محكومين بالاعدام، ولكنني اطمئنكم بأن حضوركم هنا ليس له أي علاقة باعدامكم. كل ما في الأمر هو

أن السيد المساعد قد طلب بصورة سرية هذا العدد من المحكومين بالاعدام. ومن طبيعة السيد المساعد أنه يحب الشجعان الذينيتحدون الموت ولا يهابون شيئا. إنه بصراحة يحتاجكم. لا أستطيع أن أتكلم أكثر من هذا. ستلتقون به إن شاء الله قريبا وسيتحدث معكم بالتفصيل حول المهمات التي ينيطها بكم. وعليكم أن تكونوا صريحين وصادقين معه. واعلموا أن قرارات السيد المساعد قاطعة لا تقبل النقاش"

قالوا بصوت واحد:

"نفديه بالروح والدم"

آنذاك جاءت صحون الطعام الشهي. لم يشترك المدير معهم في تناول الطعام، معتذراً منهم أنه يجب أن يحضر إجتماعاً مهماً على أن يعود إليهم بعد نصف الساعة. بعد أداء مهمة جلب الطعام المتكون من الثريد الدليمي واللحم، ترك الخدم الغرفة.عند ذلك بدأت الهمسات تطغي على الجو المشحون بالخوف والشك في ما إذا كان الطعام مسموماً. قال أحدهم وهو يمد يده إلى قطعة لحم محمر:

"إخوان، إنهم إذا كانوا يريدون قتلنا فحبل المشنقة موجود في غرفة الإعدام وغرفة الإعدام غير بعيدة عنا، فلماذا كل هذا الايراد والمصرف. هل لأن عيوننا سود؟ أنا أعتقد إنهم سيكلفوننا بالقيام بأعمال غير سهلة لا يعلم بطبيعتها إلا الله العليمالحكيم، ولذلك أقول لكم كلوا وتحزموا"

قال أحدهم:

"والله هذا الكلام صحيح"

علق آخر:

"والله ما أستغني عن طعامي حتى لو فيه ألف سم"

رغم بدئهم بالأكل، فإن الشكوك كانت ما زالت تساورهم، ولكن إعتقاد

الأكثرية وإصرارها بعدم وجود السم، جعلهم كلهم يتناولون الطعام بدون خشية أو تحفظ. بعد هنيهة من الإنتهاء من الأكل دخلت إمرأة متلفعة بالسواد، بعينين جميلتين وهي تحمل صينية تحتوي على سبعةإستكانات شاي.وقبل أن تترك الغرفة أدارت عينيها في كل الوجوه التي راحت تحدق فيهابفضول ودهشة وإعجاب بدائي مع حنين إلى المرأة التي افتقدوها منذ أمد بعيد. قالت وهي تبعث من وجهها إبتسامة مشرقة:

"المدير سيتأخر بعض الشيء، عليكم تحمل الإنتظار"

قال أحدهم بلغة فصيحة تدل على أنه متعلم:

"سوف ننتظره بكل شوق وإلى الأبد"

قالت وهي تغادر الغرفة:

"بارك الله فيكم يا إخوان"

خلال شربهم الشاي الذي أسكرهم بمذاقه، راحوا يتبادلون أطراف الأحاديث الطويلة التي عاشوها ولا سيما تلك التي كانت تتعلق بمصائرهم، فهي من حيث شاؤوا أم أبوا جزءاً من حياتهم. مرت ساعة على إنتظارهم مندون أن يظهر المدير العام. مرت الساعة بسرعة من دون أن يشعروا بالملل، إذ أنهم استغرقوا بلذة في عالم ذكرياتهم، بيد أن الساعة الثانية قد بدأت ثقيلة مملة. ودفع بهم الملل إلى أن يقوموا من أماكنهم ويبحثوا في أنحاء الغرفة عن شيء يلتهون به. ربما يتم العثور على لعبة الدومينو أو الطاولي أو أي لعبة أخرى. وفي الوقت الذي كان يبحث فيه خمسة أفراد دون تحفظ في أرجاء الغرفة عما يقضي على الفرا غ، كان إثنان من الجماعة، يجلسان في مكانيهما بوقار، دون أن ينبسا بشيء. كانا لا يزالان بخلاف الآخرين يضربان أخماساً بأسداس ويحاولان أيجاد تفسير لهذه العملية التي لم يسبق لهما أن عاشا مثلها. كان أحد الأثنين قد عاشر السياسيين وعاش معهم في سجون مختلفة وتعلم منهم إحترام الآخرين والاستماع إلى آرائهم. إستناداً إلى كل هذه

الخلفية من المعلومات، حاول تحليل الوضع الذي هم فيه الآن. قال بصوت خافت أن السلطة في مأزق معين تحتاج للخروج منه إلى قوة مقدامة غير سياسية. وأما طبيعة هذا المأزق، فلا يعرف بها إلا الله. وما أن يتم حل مشكلة السلطة، إلا وتبدأ بإبادتنا، لأننا قد أطلعنا على سر لا يجوز الإطلاع عليه. إننا في كل الأحوال من الخاسرين. قال محدثه بصوت خافت أيضاً:

"ألا يمكننا إنقاذ أنفسنا من هذا المأزق؟"

قال صاحبه بلهجة قاطعة:

"مستحيل، نحن كتب علينا الإعدام ولن نتخلص منه إلا بقدرة قادر"

عثرت المجموعة التي كانت تبحث عن لعبة ما لقضاء الوقف، على صندوق صغير يحتوي على لعبة الدومينو. وراحوا يلعبون بلهفة. وأما الإثنان فراحا يواصلان نقاشهما حول مصيرهما ومصير هؤلاء الملتهين بلعبة الدومينو.

٣

من عادة مساعد الرئيس أنه في المسائل المهمة يستشير مستشاريه ومعاونيه، بيد أنه في المحصلة النهائية يعتمد على رأيه هو.جاء الآن دور توضيح عملية جلب الرجال السبعة المحكومين بالإعدام. قرر أن يفاتح مدير الأمن العام بالسر، ولكن ليس بالسر كله. وهو في كل الأحوال، سواء شاء أم أبى يجب أن يطلعه حتى على نصف الحقيقة خاصةً لأنه لم يقصر في إخلاصه له. ولذلك قرر أن يبرر المسألة بربطها بقضية مصير الدولة المعرضة لخطر التآمر. إذاً محاربة المتآمرين الذين يصعب إيجاد المستمسكات ضدهم، من قبل هؤلاء وإظهار الموضوع كما لو أنه جريمة عادية وبهذا تتم تصفية كل الذين لا يعجبهم شارب السيد المساعد. مسألة صيانة حياة الجمهورية إذاً واجب وطني يقع على عاتق كل مواطن. في هذه الحالة، لا يمكن لأحد أن يتصور بأن السبب الحقيقي هو نشر الرعب في أرجاء البلاد ونزع ثقة المواطنين بالحكومة

الهزيلة التي يجب أن يزاح رئيسها ليحل محله مساعد الرئيس.

كانت قد انقضت ثلاث ساعات على إنتظارهم، حين دخل عليهم رجل صارم الوجه وعبوس، نادى على الأسم الأول الذي قفز من مكانه صائحا:

"نعم سيدي"

دقق الرجل في ملامحه وراح يقارنها بالصورة المثبتة في إحدى الأوراق وسأله، وهو يريه الورقة، ما إذا كان أسمه الثلاثي وتاريخ ميلاده ومكان ولادته صحيحة.هز الرقم (١) رأسه بالإيجاب، قائلا:

"نعم سيدي"

أشر الرجل بيده أن يتبعه قائلاً:

"أمشي معي"

"نعم سيدي"

تركا الغرفة بخطوات سريعة. قطعا ممراً طويلاً معتماً والرجل يسرع في خطواته أكثر فأكثر. وقف الموظف المرافق أمام أحد الأبواب المنتشرة على جانبي الممر، فتح الباب وطلب من صاحبه أن يدخل. كانت الغرفة خالية سوى من منضدة وراءها كرسي جلس عليه المدير العام. أدى الموظف المرافق تحية عسكرية ثم أوقفه مقابل المدير العام بمسافة لا تتجاوز ثلاثة أمتاروترك الغرفة. كان المدير يقلب صفحات ملف وينقل نظراته بين وجه الرجل الواقف أمامه ومحتويات الملف:

"هل حصلت تغيرات في جدول أعمالك؟"

"لا سيدي"

"تكذب علي؟"

"استغفر الله سيدي. أنا لا أكذب"

"شنو قصة إعتدائك على السجان؟"

"هذه الحكاية سيدي سجلوها عليّ في الدفتر دون علمي"

"إحكِ لي القصة باختصار"

"سيدي تكرم عاملني مثل الكلب فقلت له لولا هذه النافذة الصغيرة لسحبتك إلى الداخل وقتلتك مثل الكلب"

"هذا تهديد بالقتل عليه عقوبة"

"سيدي،المبلل ما يخاف المطر"

"هل أنت مستعد لقتله إذا جلبته إلى هنا؟"

"سيدي سأشرب دمه"

"أريد منك أن تقتله فقط، دون أن تشرب دمه"

"أمرك سيدي"

ضغط المدير على زر الجرس، سرعان ما إنفتح الباب على أثره. دخل الموظف المرافق نفسه وأدى التحية العسكرية قائلاً:

"نعم سيدي"

قال المدير العام بارتياح:

"اجلب لي السجان زيدان"

بعد نحو ربع الساعة جيء بالسجان زيدان بالملابس المدنية، دشداشة وعقال. أخرج المدير من أحد أدراج المنضدة مسدساً سلمه إلى المحكوم بالإعدام. ما أن رأى زيدان المسدس بيد المحكوم حتى صاح بأعلى صوته:

"سيدي أنا بريء، والله بريء.. بريء.."

بدم بارد وجّه المحكوم رقم (١) فوهة المسدس باتجاه السجان وضغط على الزناد، رافقه دوي هائل هز أركان الغرفة الخالية. تطاير المخ واختلط بالدماء

التي التصقت بالجدار. وهمدت الجثة بعد أن تراقصت عدة دقائق. كتب المدير العام بسرعة عدة جمل في ورقة، سلمها إلى المحكوم بالإعدام رقم (١) وهو يقول: "ناجح". كان الموظف المرافق يقف وراء الأخير. بعد تسلمه الورقة طلب منه أن يتبعه.

بعد نحوربع الساعة جاء الموظف المرافق بصحبة محكوم بالإعدام رقم (٢). سأله المدير عن أسم عشيرته. أجاب بلهجة حائرة:

"سيدي، أنا ما عندي عشيرة"

سأله باستغراب:

"يعني كمأة طالعة من الأرض لو فطر؟"

"سيدي، ألا تغضب علي إذا قلت الحقيقة؟"

"بالعكس، أنا أحب الحقيقة وأحترم راعيها"

"سيدي، أنا نغل ما أعرف أبوي"

قال المدير العام بلهجة إنتقادية هادئة:

"ولذلك قتلت أمك البريئة"

"الأمور بيد الله سيدي"

"ولكن الله لا يحرض على قتل الأبوينوالأبرياء"

بعد فترة صمت قصيرة، قال المدير:

"إذا اقتنعت بأن أمك كانت بريئة من التهمة الموجهة إليها، فماذا تصنع بمسبب قتلها أو الشخص الذي حرضك على قتلها؟".

أجاب بلهجة صارمة:

"سأقتله سيدي"

أخرج المدير مسدساً من الدرج وسلمه للرقم (٢) ثم ضغط على الزر. دخل

مرافق آخر بصحبة أعرابي بالملابس الشعبية تم إيقافه لمسافة ثلاثة أمتار من المدير. أراد أن يتكلم بيد أن المدير نهره وطلب منه أن يتحدث حين يطلب منه الكلام سأله ما إذا كان يعرف الشخص الواقف قربه. قال وهو ينظر باحتقار إلى الرقم (٢):

"سيدي هذا مجنون. إنه أبني ينكر أبوتي له وهو قاتل أمه"

ما أن أكمل الرجل الجملة، إلا ودوت الطلقة التي اخترقت صدر الرجل الذي هوى على الأرض مضرجاً بدمائه. قال الرقم (٢) وهو يعيد المسدس إلى المدير:

"بارك الله فيك يا سيدي. ألآن أرتاح قلبي"

قال المدير وهو يسلمه الورقة:

"ناجح"

آنذاك طلب منه المرافق أن يتبعه.

جاء المحكوم بالإعدام رقم (٣)، قاده الموظف المرافق إلى خارج الغرفة. بدا على المدير العام أنه مهتم بالملف بشكل خاص. كانت عيناه لا تفارقان سطور صفحات الملف، إلا لكي يلقي نظرة خاطفة على وجه المحكوم الذي يبدو هادئاً بريئاً يكاد لا يجلب الإنتباه، ناهيك من كونه محكوماً بالإعدام. واجهه المدير العام بالسؤال التالي:

"هل أنت بريء أم مذنب"

قال وإبتسامة تعلو وجهه:

"سيدي هل رأيت إنساناً يقول أنا مذنب؟"

قال المدير العام بوجه عبوس:

"بلا شقندحيات. هل زرت المدرسة؟ ما هو مؤهلك العلمي؟"

"سيدي رسبت سنتين في الخامس الأدبي، ثم تركت الدراسة"

"هل صحيح أنك نكحت أختك؟"

"نعم سيدي"

"ومع ذلك تعتبر نفسك بريئاً. كيف تفسر هذا الموقف؟"

"سيدي، خيروني بين أن أنكحها أو أقتلها. ولما بدأوا يعرونها أمامي، دنت نفسي. ثم أنني لم أجد مبرراً لقتلها"

"هل حكمت لهذا السبب بالإعدام؟"

"نعم سيدي"

سلمه الورقة قائلاً:"راسب". أراد الموظف المرافق أن يقوده إلى خارج الغرفة، بيد أن المدير أوعز إليه أن يبقى في مكانه. بعد هنيهة جاء الموظف المرافق بصحبة المحكوم رقم (٤). عندما وقف الرجل في المكان المعتادنفسه، ألقى المدير العام نظرة خاطفة على ساعته. فتح الملف دون أن ينظر إلى محتوياته. حكى له قصة الرقم (٣) وطلب منه أن يبدي رأيه حوله وكيف ينبغي على الإنسان أن يتصرف معه. قال بجبين مقطب:

"كان عليه أن يموت سيدي ولا يقوم بهذه الفعلة"

"هل أنت مستعد لقتله؟"

"نعم سيدي، ولكني أحتاج إلى مسدس أو سكينة"

بحركة خاطفة سحب المدير مسدساً من تحت المنضدة وأعطاه للرقم (٤). ما أن تسلم هذا المسدس حتى وجهه باتجاه الرقم (٣) وأرداه قتيلاً. أعاد المسدس إلى المدير العام بأعصاب باردة وهو يتمتم:

"شكرا سيدي"

مع مرور ربع الساعة، جاء المحكوم بالإعدام رقم (٥). وقف في المكان المخصص له وأدى تحية عسكرية واقفاً في حالة إستعداد عسكري. دون أن ينظر إليه، راح المدير العام يقلب أوراق الملف الذي وضعه على المنضدة ثم

رفع رأسه مدققاً في قسمات وجه الرقم (٥). سأله بفضول:

"ماذا كنت تشتغل قبل دخولك السجن وصدور قرار الحكم عليك بالإعدام شنقاً حتى الموت؟"

أجاب بفخر وقد ارتسم ظل إبتسامة مصطنعة على وجهه:

"كنت ذباحاً سيدي"

أصطنع المدير حالة من لم يفهم محتوى الجواب وقال:

"قل قصاب يذبح الحيوانات"

"لا سيدي، كنت ذباح أوادم"

"هل أنت مستعد لذبح أي إنسان؟"

"نعم سيدي، إذا تم دفع الثمن"

"كم تطلب لذبح الرأس الواحد؟"

"ورقة واحدة سيدي"

"تقصد مائة دولار"

"نعم سيدي"

سحب المدير العام ورقة من الرزمة الموضوعة على يسار المكتب. كتب بسرعة عدة جمل ثم سلمها إلى المحكوم رقم (٥) قائلاً: "ناجح". عندها مسكه الموظف المرافق من ذراعه وقاده إلى خارج الغرفة.

تأخر جلب المحكوم رقم (٦) بعض الشيء بسبب إصراره على إرتداء ملابسه الشعبية المزركشة التي تثبت كونه شيخ عشيرة. رفض المدير العام مقابلته، كونه غير مؤهل لتحمل الواجبات التي ستناط بهؤلاء الرجال الأشداء، وطلب إعادته إلى زنزانته التي ينتظر فيها تنفيذ حكم الإعدام بحقه.

حين امتثل المحكوم رقم (٧) أمام المدير العام، سأله الأخير عن سبب وجوده هنا. أجابه الأول:

"الله وكيلك سيدي ما أعرف"

"ألم يحدثكم أحد المسؤولين عن المهمات التي ستقومون بها؟"

"لا سيدي، الله وكيلك"

"ماذا كنت تفعل قبل إلقاء القبض عليك"

"كنت أخطف الأطفال سيدي، أعيدهم إلى أهلهم مقابل مبلغ يتم الإتفاق عليه"

"وإذا لم يكن في مقدور الأهل دفع المبلغ المطلوب؟"

"قتل الطفل سيدي أو بيعه لمواطنين آسيويين من أكلة لحوم البشر"

"ما هو سعر طفل واحد مخطوف؟"

" ٧٥٠٠٠ دولار سيدي قابل للزيادة والنقصان. أحياناً نضطر لتسلم ثلاثة أوراق فقط"

سلمه الورقة قائلاً:

"ناجح"

مسكه الموظف المرافق من ذراعه وقاده إلى خارج الغرفة.

٤

بقي من مجموع سبعة رجال خمسة فقط. اجتمع بهم المساعد في غرفة متواضعة خالية من الأثاث، ملحقة بمكتبه الرئيس. يبدو أنها خاصة للتحقيقات السريعة. ظلوا واقفين لأكثر من خمس دقائق، عندها طلب مساعد الرئيس من حمايته أن يتركوا الغرفة، كما وطلب من المحكومين بالإعدام أن يتخذوا أماكنهم على الكراسي القريبة من مكتبه البسيط. عندما ترك أفراد الحماية الغرفة، ابتسم المساعد، قائلاً:

"الآن نحن أحرار، تخلصنا من الحماية ومشاكلها وسنأخذ حريتنا في

الكلام. سنكون صريحين مع بعضنا بعضاً"

سكت هنيهة، كان خلالها قد تسمر مستمعوه في أماكنهم ويتنفسون بصعوبة. قال باستعلاء عنجهي لا يخلو من الجلافة:

"كنتم سبعة أوادم، إثنان طارا. بقي خمسة فقط. على كل حال، الذي لا يعرف شغله يطلع له جناحان".

كان يضغط بيده على الملف الأصفر الملفوف، الذي وضعه على المكتب. وراح يسويه براحة يده قائلاً:

"كنتم سبعة أوادم. كان سلوككم أعوجَ مثل هذا الملف، لذلك صدر بحقكم قرار الحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت وأما أنا فسأحاول أن أضرب أوتي على فايلاتكم حتى أصنع منها صفحة سوية مثل راحة اليد، حتى تخدمون الوطن وتتخلصون من حكم الإعدام، فهل أنتم موافقون للتعاون معي؟"

قال أحدهم بصوت جهوري:

"أنت السيد نحن الخدم، نفديك بالروح والدم، ها ها ها..."

وراحوا يرددون الهتاف بصوت عال وتكرار ممل. ارتاح مساعد الرئيس للهتاف الذي أشبع غريزته في التباهي. قال بوجه صارم وكلمات حادة:

"انظروا جيداً. أنا لا أرغم أحداً على إتخاذ الطريق السوي. عليكم الآن أن تحسموا أمركم مع أنفسكم. أنكم ستناطون بمهمات غير سهلة وخطرة، سيكون إتصالكم معي مباشرة دون أي شخص آخر. ستنتهي علاقتكم بي فقط حين يأخذنا الموت"

صعدت هتافات مختلفة:

"لا سمح الله يا سيدي.. الموت لأعدائك والبقاء لك.."

قال بارتياح:

"أفهم من كلامكم أنتم موافقون على نيل شرف الإنتماء إلى صفوف فصائل

خدمة الوطن، فهل هذا صحيح؟"

هتفوا بالإجماع:

"صحيح سيدي، نحن موافقون. نموت من أجلك وأجل الوطن.. الوطن أنت وأنت الوطن. ها، ها، ها.. أنت الوطن والوطن أنت.."

سأل وعيناه تستطلعان الوجوه الباسمة:

" هل هناك سؤال أو ملاحظة؟"

أطبق عليهم الصمت، دون أن يفكر أحدهم بطرح سؤال، رغم أن الأسئلة الكثيرة كانت تدور في رؤوسهم وتهزهم. كانوا لا يزالون لا يصدقون كونهم جالسين مع السيد المساعد الذي يحكم البلاد وحده. ورغم أن أسمه_ كما قال أحدهم – يأتي عادة بعد رئيس الجمهورية، إلا أنه في الحقيقة والواقع هو الرأس الأول الذي يحكم البلد. وهذه الحقيقة يعرفها الجميع.

ضغط مساعد الرئيس على الزر المخفي تحت المكتب، وكان أن دخل أحد أفراد حمايته. طلب منه أن يجلب الكارتون الذي يحتوي على الهدايا بعد عشر دقائق. خلال هذه الفترة أخرج مصحفا ملفوفاًبقماش أخضر من الدرج ووضعه في منتصف المكتب. طلب منهم أن يقسموا واحداً إثر آخر بالمصحف على أن يبقوا مخلصين لمساعد الرئيس ولا يخونوه. جلب جندي الحماية الكارتون ووضعه في منتصف المكتب. قال وهو يفتح الكرتون بسكينة صغيرة:

"لنر ما جلبه لنا الحظ واليانصيب. أنتم وحظكم"

بعد أن وقعت عيناه على محتويات الكارتون، قال بفرحة مصطنعة وهو يضحك:

"الله..ألله..ألله.. تلفون يدوي _ أضاف بدهشة– وهذا ليس كل ما في الأمر. هناك مفاجأة أخرى. ظرف ثقيل لكل واحد منكم"

ثم طلب من كل واحد منهم أن يتقدم منه لإستلام هديته المتكونة من تلفون

يدوي ومظروف يحتوي على رزمة من الدنانير. وراح مساعد الرئيس يصافحهم ويوزع عليهم الهدايا مع ورقة مستقلة صغيرة تحتوي على الرقم الخاص لتلفونه.

بعد الإنتهاء من مراسيم توزيع الهدايا، جاء دور الإختبار الأخير، فكر مساعد الرئيس الذي يمكنه، عند طرح أقل خطأ بإلغاء كل شيء وإرجاع أي واحد منهم إلى حيث أتى أو تصفيته. وضع قائمة الأسماء أمامه وبدأ بالرقم(١):

"ماهي واجباتك من الآن فصاعداً؟"

أجاب بلهجة عسكرية صارمة:

"سيدي أنا خادمك. واجباتي هي تنفيذ أوامرك"

"بارك الله فيك يا بني"

وجه السؤال نفسه إلى الآخرين. كانت الأجوبة كلها متشابهة. وقبل أن يتركهم أمَرَهم بما يأتي:

- عدم الإحتكاك بالأهل مهما كانت درجة القرابة.

- عدم الإتصال بأي صديق.

- لا يستعمل التلفون اليدوي إلا مع السيد مساعد الرئيس.

- سيحصل كل واحد من المجموعة على بيت مؤثث. لا يجوز إعطاء العنوان لأي شخص مهما كان.

- لا يجوز أن يتزوج المنتسب أو يقيم علاقة مع امرأة إلا بموافقة مساعد الرئيس.

- لا يجوز أن يفتح حساباً في البنك إلا بموافقة السيد المساعد.

- خلال الأشهر الثلاثة الأولى يعيش المنتسب في أحد الأقسام الداخلية التابع لمكتب السيد المساعد، حيث يخضع للتدريبات العسكرية والدفاع المدني.

– أفراد المجموعة يزودون بهوية خاصة تحمل أسماء وتواريخ مستعارة. عند عبور حامل الهوية من نقاط الحدود، يجب أن يقوم بحركة، تثبت كونه غير ملزم بعرض هويته.

– في فترة لاحقة يجري الإعلان بصورة رسمية عن هروب سبعة محكومين بالإعدام شنقاً حتى الموت من سجونهم.يحق للإذاعة والتلفزيون نشر الخبر لعدة أيام. كما وستجري تحقيقات للتوصل إلى إيجاد أماكن الهاربين.

عندما اطلع نجل السيد المساعد الشاب، المسؤول عن خط الأمن والمخابرات في المنظمة السرية، على هذه التشكيلة الجديدة، التي وجدها خطرة جداً، سأل أباهعن واجباتها الأساسية وكيفية تمشيتها؟ وهل هي خاضعة لخطه أم تابعة لمكتب مساعد رئيس الجمهورية؟. فهو بصفته مسؤولاً عن هذا الخط لا يريد التدخل في شؤون والده، بل يريد فقط توضيح الأمور. ولكي يكون كل واحد مسؤولا عن واجبه لا أكثر. في باديء الأمر اجتاحت الوالد موجة من الغضب وأحس بأن أبنه يريد التدخل في شؤونه، بيد أنه سرعان ما كتم غضبه الذي وجد أنه في غير محله، وأن من حق إبنه أن يعرف، مجرد المعرفة، موقفه من التشكيلة الجديدة.

كان قد جمعتهما المصادفة أن يلتقيا في مكتب الوالد الفخم، حيث دفع الحنين النجل كي يشرب فنجان قهوة عند الوالد ويدردش معه في بعض الأمور الأمنية الطارئة. وتذكر الأب أن الفكرة جاءت في الأساس من قريحة نجله. ابتسم الوالد بارتياح وهو ينظر إلى نجله بفخر:

"أنظر يا ولدي، إن لك الحق في أن تسأل كي تعرف حدود واجبك، ولكن ليس لك الحق في التدخل بشؤوني. هناك فرق كبير بين العائلة والدولة، هذا من جهة ومن الجهة الثانية، أريد أن أصارحك ببعض المسائل التي يجب أن تبقى سراً فيما بيننا".

صمت هنيهة، أخرج خلالها سيكارة من العلبة الموضوعة على مكتبه. بعد أن

أشعلها ببطء وأخذ منها نفساً، واصل كلامه:

"صاحب فكرة إنشاء التشكيلة هو أنت. هل تتذكر قولك الذي أفصحت عنه قبل أشهر هنا في هذا المكان؟ وقلت لي أنه نتيجة للمعلومات المتجمعة لديكتوصلت إلى حقيقة أن شلة رئيس الجمهورية بدأت تضيق علينا الخناق، لذلك يجب أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا؟ والآن نحن في طريقنا إلى الغداء، لأنني أريد أن نخرج من مرحلة الكلام، فما هو رأيك الآن يا ولدي؟".

أجاب الأبن باندفاع:

"هذا هو الكلام المضبوط يا سيدي الرئيس طبعا أذكر ذلك يا سيدي الرئيس وجئت إلى هنا اليوم كي أقول لكم الكلام نفسه. إننا يجب أن نعالج الأمر قبل فوات الأوان. إن الرجل تزداد شعبيته ولا يوجد أي انتقاد ضده، سواء من الناس أو الأحزاب العلنية والسرية"

"ولذلك يا بني وبعد تفكير عميق في ملاحظاتك التي أخذتها من الواقع، قررت تشكيل النواة الأولى لحركة تقوم بمهمة نشر الرعب وتكدير جو الأمن في جميع أنحاء البلاد بشكل عام وفي العاصمة بشكل خاص، إذ أن هذا الشعب الأحمق والجاهل والكسول لا يستحق الهدوء والراحة. إنه يجب أن يعامل بالسياط. إن استراتيجنا إذاً هو خلق البلبلة والفوضى والخوف عند الناس. وإلا فإن هؤلاء الرعاع إذا أحسوا بأقل رخاوة من جانب السلطة، سيقابلون أوامر الدولة بالعفاط. وفي الوقت نفسه ينبغي توجيه النقمة ضد شخص رئيس الجمهورية الذي ترك زوجته المسكينة وتعلق بإمرأة لا تحبه. وبهذا نسحب البساط من تحت قدميه ونرغمه على الإستقالة. أنا في الحقيقة لست من دعاة السلطة، ولكنني حين أرى رجلاً عسكرياً أمياً يقود البلاد إلى الهاوية، يفرض علي الواجب التاريخي أن أؤدي مهمتي في إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية. إذا كانت ثمة جهة تقوم بفرض الأمن وإستتبابه في البلد فهي نحن، وليس هذا الحمار العسكري الذي احترمناه أكثر من اللازم"

قام من مكانه، متوجهاً إلى نجله الذي ترك مكانه هو الآخر، قال وهو يقوده نحو الباب:

"هذا الكلام يبقى بيننا فقط، لا أريد أن تحكيه حتى لوالدتك، مفهوم؟"

"نعم بابا، مفهوم، ولكنني قبل أن أغادركم أحببت أن أنقل إليكم خبراً ذامعنى، وهو أن الرئيس قد أختلق مناسبة وهمية كي يحتفل بها هو وشلته بعد يوم غد، حيث أوعز إلى عصابته للقيام بتظاهرة تأييدية لسياسة الرئيس التي اعتبروها حكيمة وديمقراطية. ألا يعتبر هذا التصرف إساءة وقحة لأمن الدولة".

أجاب نائب الرئيس، وهو مندهش لعدم تسرب هذا الخبر إليه، قال:

"وماذا يعمل رجالنا في صفوفهم؟ هل رخّوهم برزم الدولارات؟. استدعيهم كلهم واستدعي جناب حضرة مدير الأمن العام. حقق معهم كلهم وسجل كل شيء بالتفصيل في المحضر. وأما بالنسبة إلى التظاهرة، فاتركوهم يفعلون ما يشاؤون إلى أن يهدهم التعب، آنذاك طوقوهم من جميع الجهات وأضربوهم ضرباً مبرحاً والقوا عليهم القبض جميعاً دون إستثناء، هل كلامي مفهوم؟".

أجاب الأبن بهدوء:

"نعم سيدي الرئيس، مفهوم، ولكن ينبغي علينا أن نحسب حساب الخارج. لا تنس أن الرئيس سيستغل ألامر ويقوم بحملة دعاية واسعة ضدنا سواء في الداخل أم الخارج. ما هي إمكاناتنا ونفوذنا في الخارج؟. أنا أعرف بأن معظم العاملين قد تحول إلى بوق له سواء في داخل الوطن أم خارجه، ناهيك عن فتح أبواب الإعلام أمام اليساريين والشيوعيين".

قال نائب الرئيس بإستخفاف:

"إننا إذا فكرنا في حساب كل سمسار، لما أستطعنا أن نشتغل. نحن لسنا بحاجة إلى هؤلاء. إنهم هم بحاجة إلى مساعداتنا. عند أقل تدخل في شؤوننا الداخلية، يجب أن يحسبوا حساب قطع المساعدة عنهم. المهم قبل كل شيء هو

تنفيذ استراتيجينا، بإعلام الخارج بأن ما يعتبره البعض إستقراراً في هذا البلد ليس سوى ستارة تغطي الفوضى والفساد وحكم العصابات. وسنبدأ بالعمل قريباً جداً. وأما قصة اليساريين والشيوعيين، فينبغي أن نكون حذرين تجاههم. سنضع حلاً لهم في الوقت المناسب"

٥

يعرف معظم الدائرين في فلكهما بأن الخلاف الأساسي بين كل من الرئيس مرزوق ومساعده خلف هو أن الأول لا يعترف بالثاني والثاني بدوره لا يعترف بالأول. والشيء الذي جمعهما في غفلة من الزمن هو نوع من القرابة البعيدة التي لا يعرف بأواصرها إلا الله. وحين يأتي ذكر عواد مثلاً، يقول عنه خلف مرة إنه أبن عمه، وأخرى إنه أبن خالته وعن طريق هذه القرابة الوهمية، تمكنا أن يثقا ببعضهما بعضاً. وهما نفسهما يعرفان أحسن من غيرهما بأن هذه الثقة ليست عميقة وغير صميمية، بل مجرد شكل لتحقيق أمنية، كانا يحلمان بها كنتيجة لتدهور أحوال الدولة التي كان الرعايا فيما مضى يسمونها (ولاية بطيخ) التي كانوا في الوقت نفسه يتوقعون سقوطها في أي لحظة. ولما كان كل واحد منهما، مرزوق وخلف، بحاجة ماسة إلى معونة الآخر، لذا ظهرت مسألة القرابة العشائرية إلى العيان والميدان. كانا يلتقيان في مضيف الشيخ محيسن الذي كان مشتركا في جريدة الأخبار التي يرميها في إحدى الزوايا دون أن يقرأها. وكان يلتقطها كل من مرزوق وخلف ويطلعان عليها ويناقشان المواد والأنباء الواردة فيها. كانا يسافران إلى العاصمة معاً ويرتادان المقهى نفسه. استنتج خلف من كلام مرزوق أن له تنظيماً سرياً داخل القوات المسلحة، فأوحى إليه بشكل غير مباشر بأنه هو الآخر عنده منظمة سرية، ولكن بين الجماهير. بعد أن درسا بيانات المنظمتين تبين لهما أن لا فرق بين أهدافهما ووسائل تحقيقهما.

وشاء القدر أن تتأزم الأوضاع السياسية وتتفاقم أكثر فأكثر. ورغم أن

الحكومة تعهدت بالاصلاح الجذري، فإن الجماهير لم تكف عن مطالبها التي لا تؤدي بالتالي، إلا إلى سقوط الحكومة. وكان أن أنتبه الصديقان العدوان إلى حراجة الأوضاع وتمكنا من ركوب الموجة في اللحظة الحاسمة. وكان أن وجدا نفسيهما في قمة السلطة. ولولا إلحاح مرزوق على ضرورة بقاء خلف إلى جانبه مع منظمته ثم لكونه أبن خالته، وهذه نقطة ضرورية لترسيخ الثقة في مثل هذه الأوضاع الدقيقة، لطرده الضباط شر طردةفي اللحظة الحرجة التي حسمت المعركة لصالح مرزوق. ورغم أن عدم الارتياح تجاه خلف ظل يرافق المحيطين بمرزوق ويحاولون عمل شيء ضده، إلا أن خلف كان يقلب الآية ويوجه إليهم سهامه بنجاح إلى أن تمكن من أن يقضي على الشلة ويفتتها. لقد تسنى لخلف أن يجرد مرزوق من رجاله وبذلك تمكن من الاستيلاء على زمام أمور الأمن والمخابرات، سواء المدنية منها أم العسكرية.

كان من عادة خلف أبو السيف عند قيامه بإصدار القرارات الحاسمة، القيام بعقد إجتماع موسع يضم أولاده وإخوانه وأولاد عمه وخاله الذين تناط إليهم عادة المهمات الأمنية والمخابراتية. وكان الاجتماع يعقد في القرية وذلك في قصره الذي بناه خصيصاً لمثل هذه الأغراض. كانت هذه الاجتماعات التي يسمونها حاسمة، تعقد عادة بصورة في منتهى السرية وفي الليل.

خلال ساعة واحدة تمكن الاتصال هاتفياً وبالتلفون الخلوي بجميع أفراد الشلة. بدأ الإجتماع في تمام الساعة العاشرة مساء. افتتح خلف أبو السيف الإجتماع بكلمة ترحيبية شكر فيها الحاضرين لتجشمهم عناء السفر. وبعد أن تحدث باسهاب حول الوضع الدولي والأمني في المنطقة، تطرق إلى السبب الرئيس الذي دعاهم لمناقشته وقال:

"ماذا سيحصل أو ما الذي ينبغي عمله إذا علمت أن جهة ما تريد أن تتغدى بك قبل أن تتعشى بها. والمصيبة أن هذه الجهة لم تكن عدوك، بل صديقك وقريبك من ظهر واحد. ناقشوا هذه المعضلة بروح ديمقراطية سليمة ونَفَس غير حاقد"

رغم أن السؤال مطروح على الجميع، فليس بمقدور أحد المبادرة للإجابة عنه. الجميع في حالة إنتظار من يقع عليه الدور. وينبغي على المرشح للإجابة أن يكون حذراً في كلامه وأن لا يورط نفسه بالوقوف إلى جانب النقيض. إنه يجب أن يعرف ماذا يريد السيد المساعد. هناك جهة تهدد ليس السيد المساعد فحسب، بل تريد أن تهدد وتزيل الجهة التي يقودها. إذاً إنها معركة مصيرية مخفية في الظل، تشملهم جميعاً. وهنا ينبغي التركيز على مسألة مهمة جداً، ألا وهي الشعار التالي: "من ليس معنا فهو عدونا".

قرر أن يسمع رأي كل فرد من الحاضرين، حيث راح يختار المتكلم بالتناوب، على أن يتكلم باختصار وصراحة. كان الجواب الذي اتفقوا عليه بالإجماع، كما يأتي:

"قبل أن يتعشى بنا مرزوق وزبانيته، نتغدى نحن بمرزوق وحاشيته في أقرب وقت ممكن".

علق خلف بلهجة المنتصر مبتسماً:

"شوفوا شباب. فرقة الكاولية ما تدخل هذا القصر إلا بعد تحقيق الشعار الذي نموت من أجله".

أما تنفيذ الخطة، فسيشرف عليها السيد المساعد. قال خلف محاولاً بث الفرح والنكتة في الجو:

"ها يا شباب. ماكو هوسة شعبية؟"

وقف أحد إخوان خلف وهو يردد:

"شد حيلك خلف يا ريّسنا

أش ورطك يا مرزوق

ها..هاها..

أش ورطك مرزوق

يا مرزوق أش ورطك

في فجر الليلة نفسهاتناقلت وكالات الأنباء والإذاعات الخبر الآتي:

"جرى في فجر هذا اليوم حادث اصطدام بين سيارة نجل رئيس الجمهورية وشاحنة كبيرة تحمل الحصو، أدى الحادث إلى وفاة نجل رئيس الجمهورية، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه. والتحقيقات جارية".

مع إطلالة النهار في اليوم الثاني أتخذ خلف مكانه في مكتبه حيث ألغى جميع المواعيد المرتبطة به وذلك لمراقبة تأثير وفاة نجل الرئيس على الجماهير ومدى رد فعل الأبوالرأي العام وموقفهم من الحادث. أتصل في باديء الأمر بمرزوق مباشرة يستفسره عن صحة الخبر. كان مرزوق في وضع نفسي سيء جدا، قال بألم:

"الخبر صحيح يا خلف، لقد كسر ظهري. يا ترى ما ذنب هذا المسكين. ليت هؤلاء الجبناء قتلوني أنا الذي أوصلت كل من هب ودب إلى قمة السلطة. هذا ضريبة من أخرجتهم من القاذورات"

أرتسمت إبتسامة صفراء على وجه خلف الذي أدرك أن جزءاً كبيراً من الرسالة موجه إليه وإلى بطانته. قال في نفسه:"طز فيك وخراي عليك وعلى بطانتك الجبانة"

ثم قال بصوت حزين مفتعل:

"رحم الله الشهيد والبقاء في حياتكم سيدي الرئيس. إن القتلة يجب أن ينالوا عقابهم. وسوف نطاردهم حتى لو صعدوا السماء السابعة. سيدي أعط أوامرك كي نبدأ باعتقال من يشتبه بهم. إن الحادث لا يبدو طبيعياً".

ورأى في نفسه أن هذه فرصة سانحة بإتجاه التحرك لنشر الفوضى والرعب في البلد.

قال مرزوق بصوت يائس:

"لا إعتقالات ولا هم يحزنون. دعوا الناس يقومون بأعمالهم ولا تشغلوهم بصراعاتنا على السلطة التي لا نشبع منها. نترك المسألة بيد الله"

تحولت أذني خلف إلى لاقطين حساسين وراح يفكر في كل كلمة يطلقها مرزوق بوجهه: ما معنى نترك المسألة بيد الله؟ ثم ماذا يعني بعبارة أنا الذي أوصلت من هب ودب إلى قمة السلطة وأخرجتهم من القاذورات. نترك المسألة بيد الله يعني أنه سينتقم بنفسه وأما من هب ودب، فيعنيني أنا ومجموعتي التي لا تُقتحم. ولنر كيف يلعب أبن خالته في هذه المعركة الفاصلة التي ستحسم أمر المجموعة.

ظل خلفطوال النهار رابضاً في مكتبه يتابع الإذاعات ووكالات الأنباء وهو يطارد آخر الانباء المتعلقة بوفاة مشكوك فيها نتيجة حادث شاحنة كبيرة تحمل الحصو وكذلك لمعرفة رد فعل المواطنين والقوى السياسية والعسكر. ولكي يتمكن من أخذ صورة متكاملة للوضع، كلف مجموعة من موظفيه ومستشاريه بتسجيل كافة الآراء الصادرة عن الجهات المختلفة. كما وأوعز إلى مؤسسات أمن الدولة والأمن الوطني والقومي والاستخبارات المدنية والعسكرية بمراقبة الوضع العام وتسجيل ما يصرح به المواطنون.

كان خلف قد اتفق مع تلك الجهات أن يقدموا تقاريرهم في تمام الساعة الثامنة مساء. وبعد ذلك يمكنهم الإنصراف إلى بيوتهم على أن يلتحقوا بالدوام في اليوم الثاني في تمام الثامنة صباحاً.

أعد له المستشار الأمني ملخصاً موضوعياً لما جاء في التقارير وقدمه له في تمام العاشرة مساء. لأول مرة يحس مساعد الرئيس بيده ترتجف، عندما مدها إلى مستشاره الأمني، ليتسلم منه ملخص التقارير العامة. بقي خلف وحده في مكتبه وطلب من أفراد حمايته أن يصرفوا كل من يأتي لزيارته أو مراجعته وسحب رابط التلفون من مكمنه كي لا يزعجه الرنين، ثم راح يطلع على ملخص التقرير المتكون من عشرين صفحة وبيده قلم رصاص. قرأ

التقرير مرتين واقتنع بموضوعيته، ولكنه استغرب للوضع العام ومزاج الجماهير، التي يسميها عادة بالرعاع، على الساحة الوطنية، ذلك المزاج الذي يكاد في طريقه يصب إلى نوع من الوضع الثوري الذي إذا لم يقم ببعض الإجراءات الحاسمة لوأدها، سيؤدي حتماً إلى نشوب ثورة تهدم كل شيء. واستغرب أيضاً للشعبية التي يتمتع بها مرزوق وعائلته. ومما أثارت دهشته أيضاً أصابع الاتهام الموجهة إليه وإلى رجاله من قبل تظاهرات شعبية تؤيد مرزوق والسياسة التي يتبعها. أسند جبهته على راحة يده اليمنى وراح يدمدم بصوت يكاد لا يسمع:

"الأمور فالته إذاً. هذا الرجل يجب أن يكنس إلى البالوعة، هو وبطانته من العسكريين الأغبياء الذين لا يفيد معهم سوى العصا"

أحس بأوداجه تمتلئ غضباً. وأراد أن يقوم ببعض الإجراءات الفورية لمعالجة الأمور، بيد أنه لعن الشيطان وردد عدة مرآت: الصبر من الرحمن. وكان حين يجتاحه الغضب، يضغط على أعصابه ويحسب إلى عشرة، حيث يهدأ ويقوم بوضع قراراته في ضوء الهدوء الذي يخلو من التوتر والغضب.

أعد قائمة بأسماء كبار الضباط الذين يساندون مرزوق الذي هو الآخر لا يقوم بخطوة دون إستشارتهم، كما وأعد مجموعة من القوائم تحتوي على أسماء السفراء والمديرين العامين في مختلف الوزارات. وكل من أُدرج أسمه في القائمة يعتبر في عداد الموتى إن عاجلاً أم آجلاً والتهمة الموجهة إليهم هي إشتراكهم في مؤامرة لقلب نظام الحكم وأغتيال السيد رئيس الجمهورية.

بعد الإنتهاء من تسجيل ملاحظاته وأهم أفكاره على وريقة صغيرة، دعا حمايته إلى شرب الشاي معه والقيام بدردشة يتعرف من خلالها على مشاكلهم ومطالبهم إن وجدت. رحب بهم واستفسر عن أحوالهم وأحوال عوائلهم وعن مشاكلهم إن وجدت. قالوا بالإجماع أنهم سعداء مع وضعهم الحالي ولا يهمهم سوى سلامته. وبفضله لا يحتاجون إلى أي شيء. وبشرهم بالقرار الصادر

عن الهيئة الثورية العليا الذي يقضي برفع رواتبهم بنسبة ٢٠٪ مع صرف مخصصات خطورة الخدمة. وصعدت الزغاريد والهلاهل والهتاف بحياة السيد المساعد والتمنيات له بالصحة والسلامة والوصول إلى كرسي الرئاسة التي يستحقها بجدارة. ثم طلب منهم أن يشددوا في أمور الحماية ولا سيما أن البلد في طريقه للدخول في مرحلة جديدة تلعب فيها الدول الكبرى والمجاورة دوراً مهماً لا نعرف مدى خطورته على كياننا ولكن لا يهمكم ذلك أن مصير البلاد في أيدٍ أمينة.

كان خلف، قبل أن يحضر مراسيم تقديم التعازي والدفن في السرادِقات التي نصبوها بالقرب من منزل رئيس الجمهورية، قد سبق له أن أرسل وفداً من كبار السن ممن لهم صلة قربى مع الطرفين، ينصحونه بترك أمور رئاسة الدولة لشخص قوي لا يعرف الرحمة. وإنه في هذا العمر الذي بلغ أرذله، بحاجة إلى الهدوء وراحة البال والعبادة. أراد مرزوق أن يعرف من الذي كلفهم بهذه المهمة. أكدوا له أن لا أحد يكمن وراء الفكرة. وأنهم جاءوامن تلقاء أنفسهم يهزهم الخوف على حياته الغالية عليهم، فالحادث الذي فقد فيه نجله مرسوم من قبل أعدائه. وفي المرة القادمة يستهدفونه هو، فلماذا هذا التعلق الأعمى بالسلطة. قال بلهجة حاسمة وهم يجتمعون في غرفة خاصة ملحقة بالقصر:

"إنني لن أتنازل عن الرئاسة، ليس حباً بها وإنني لست من عشاق السلطة، ولكن كي أعرف من خلالها الأعداء الذين يتربصون بي.آنذاك سأقضي عليهم وأنسحب من الميدان لمن يستحقه".

تم نقل هذا الكلام إلى خلف قبل أن يصل إلى السرادِقات. وكان تعليقه كما يأتي:

"إنه رئيسنا ووالدنا، سنقف إلى جانبه حتى الموت"

وفي الوقت نفسه تم نقل هذا الكلام إلى مرزوق. وكان جوابه:

"إن خلف عضيدي، ولكن كثرة من الناس لا تعرف بذلك"

تصافحا وتعانقا بكل حرارة وشدة مصطنعتين. قال خلف مراراً وتكراراً:

"إن دماء الإبن الزكية لن تذهب هدرا. سوف تراق الدماء وتتدحرج الرؤوس وسنرى أي منقلب ينقلبون".

إجتاح رأس الرئيس خليط من الأفكار غير المتجانسة تجاه كلمات مساعده خلف، فهو من جهة يصدق كلامه إلى حد الثقة المطلقة. ومن جهة أخرى يشك في معظم كلامه الذي يبدو له أنه صادر من حيوانين في آن واحد. تارة يجده على شكل ثعلب ماكر وأخرى على هيئة ذئب غدار. والمشكلة الرئيسة تكمن في عدم التمكن من التغلب ليس على كليهما فحسب، بل على أحدهما. فالثعلب إذا أحس بالخطر فإنه يتحول إلى ذئب لا أخطر منه، وأما الذئب فإذا أحس بالخطر فيتحول إلى نمر. والويل لمن يصادف هذه الحيوانات في الغابة.

وجد الرئيس نفسه ضعيفا أمام حيوانين يكمنان في جلد حيوان مفترس واحد. وأخبره نداء صادر من أعماقه أن كلام مساعده خلفإنما موجه إليه هو بالذات. ولما كان مطلعاً بشكل جيد على طبيعة صاحبه، لذا أحس بخوف مصحوب بالشؤم وانطبعت على وجهه معالم القلق والشرود. شعر مساعده خلف بما يهزه في الأعماق. وكان أن تنفس الصعداء لفهمه محتوى الرسالة. وقال خلف في نفسه:

"الوسيلة الوحيدة التي تخلصك من الموت المحقق، هو أن تمتثل للواقع المر وتتنازل عن منصب الرئاسة وأنت تحتفظ بماء وجهك"

تذكر الرئيس قائمة المواعيد الضرورية والمهمة التي تمكن بمساعدة سكرتيره من إلغائها بسبب المصاب الأليم. ولحت في ذهنه فكرة معالجة موعد مهم لم يتمكنوا من تغييره، هو زيارة الرئيس إلى دولة البلقان. وفكر أنه يمكنه ضرب عصفورين بحجر واحد، وهو تكليف نائبه بالسفر إلى هناك بالنيابة عنه، يعقبه مرسوم جمهوري بتعيينه سفيراً لبلاده هناك، حيث لا رجعة إلى البلد. طرح

عليه الفكرة قائلا:

"شوف أبا السيف، إننا لم نتمكن من تأجيل موعد الزيارة إلى دولة البلقان بسبب أهميتها والزيارة مربوطة بالتوقيع على عقود إقتصاديةمهمة لا يمكن تأجيلها، لذلك أقترح أن تقوم أنت بالزيارة وتحل مشكلتي:

قال مساعد الرئيس خلف بشبه توسل:

"إن عدم زيارتك شخصياً يعتبر إهانة لرئيس هذه الدولة المهمة بالنسبة إلى إقتصادنا، هذه من جهة ومن الجهة الثانية إننا في حينه اتفقنا معهم على بقائك هناك لفترة لا تقل عن ثلاثة أسابيع، تخضع فيها للعلاج الطبيعي، حيث المياه المعدنية والتدليك اليومي من قبل أجمل المدلكات وثالثاً هناك خيوط مؤامرة تستهدف حياتك، اكتشفتها أجهزتنا الأمنية بقيادة مدير الأمن العام ولذلك يتطلب الأمر بقائي في البلد، بحيث أنك عند عودتك يكون كل شيء قد إنتهى وأنت مرتاح البال من القال والقيل"

سرح الرئيس بفكره بعيداً وهو يعلق:

"يبدو أن هناك تطورات جديدة في الأفق"

وعاد الرئيس إلى تأملاته من جديد وهو يقول في داخله:

"يا إلهي يا رب العالمين، ألا تقل لي مع من هو هذا المخلوق؟ أهو لي أم عليّ؟ ولكن يبدو أن الأوان قد فات. إننا نحن الذين اكتشفنا هذا المخلوق وقوينا ساعده. وعلمناه الرماية كي يرمينا نحن أيضاً مع من يرميهم"

٦

أجلت السلطات البلقانية الزيارة، بإقتراح من الرئيس الضيف، إلى فترة أمدها ستة أشهر، يقوم الطرفان خلالها بدراسة البروتوكولات وتحديثها من جديد. وإضافة ملاحق جديدة تعزز الأمن وتساعد على تطويرها في مجال القوات البرية والبحرية والعمل على نشوء صناعة التراكتورات وأدوات الانتاج

الزراعية. لاحظ نائب الرئيس خلف أن موقع الرئيس مرزوق يتوطد يوما بعد يوم. ومما زاد في شعبيته التركيز المستمر في أحاديثه وتصريحاته على القضاء على ظاهرة البطالة وتعزيز السلم وتوطيده في المنطقة وإهتمام الرأي العام العالمي والدول المجاورة للسياسة الجديدة المتبعة في هذا البلد الغني بثرواته الطبيعية. وراحت الوفود الرسمية وغير الرسمية ووفود الإعلاميين العالميين تتقاطر إلى البلد. ولأول مرة في تاريخ هذا البلد تصدر كتب باللغات الأجنبية عن السياسة المتبعة، دون أن تكون مدفوعة الثمن. وفتحت الصحافة أبوابها أمام الأقلام التقدمية والديمقراطية وجرى الحديث عن تحقيق جبهة وطنية تشمل كل القوى الوطنية، يكون واجبها توطيد وحدة البلد والسير قدماً لتحقيق أمنية الشعب في الحرية والرفاه الاجتماعي. وراحت الندوات الثقافية والسياسية والاقتصادية تعقد هنا وهناك، تتزاحم عليها آلآف المواطنين. كان في وسع الإنسان أن ينتقد كل دائرة حكومية وكل موظف مهما كانت درجته.

كان مساعد الرئيس خلف يراقب الأحداث وتطوراتها باهتمام بالغ، من دون أن يبدي رأيه حولها، إلا في جلساته الخاصة وفي دائرة ضيقة جداً. وأمر وضع أجهزة الأمن العامة والأستخبارات في حالة إنذار وكلف أفراد الأمن بعمل قوائم بأسماء المحركين الرئيسيين للندوات والنقابات والنوادي والصحافة. وفي حلقة مغلقة مع مستشاريه، سأله أحدهم عن مصير البلد الذي تدفعه عواصف الفوضويين الهوجاء إلى حيث ما يسمى بالمد الثوري الذي يقودنا في النهاية إلى البلشفية. قال خلف والألم يعصره ويلوي معدته:

"لا تخف يا صاحبي، إن الحكم سيظل قوميا إشتراكيا. إن البلاشفة يريدون أن يركبوا موجة (ريّسنا) لحين إستلام السلطة التي سنبقى نحتفظ بها إلى الأبد، رغم أنف دعاة الديمقراطية والتقدم والحرية"

كانت الجلسة تضم إلى جانب مدير الأمن العام، ثلاثة مديرين عامين للإستخبارات، يعتبرون من فطاحل التعذيب ونشر الرعب على مستوى البلد.

كانوا قد جاءوا للإستماع إلى رأي مسؤولهم وأخذ التعليمات منه بخصوص الأوضاع المستجدة، إذ أنهم يرون أن السيل قد بلغ الزبى وأن المبالغة في الصبر قد تؤدي إلى كوارث هم في غنى عنها. علق خلف على رأيهم بخصوص الصبر، قائلاً:

"رفاق، إن أهم شيء في حركتنا التصحيحية التي سنقوم بها بالإستناد إلى عونه تعالى، هو الصبر وليس التهافت والعجلة. كل شيء مرسوم حسب خطة تتحرك مثل عقارب الساعة الثلاث، عقرب الساعة الكاملة وعقرب الدقيقة وعقرب الثانية. إنها ثلاث أدوات تكمل بعضها بعضاً. إنها ثلاثة أشياء تتحرك في آن واحد. هل يمكننا إيقاف إحدى الأدوات وتحريك الأداتين الأخريين؟. كلا. هذا لا يوصلنا إلى أي نتيجة. وإذا أرغمناها على التوقف تكون النتيجة خاطئة. وإذا أخطأت الساعة، لا تضر أحداً. وأما إذا أخطأت الخطة، فتؤدي إلى كارثة تغرق البلد بالدماء"

مد رأسه باتجاه مدير الأمن العام وواصل:

"تمام ؟ يا مدير الأمن العام، أم عندك رأي آخر؟"

أجاب مدير الأمن العام بسرعة كما لو أنه استيقظ من حلم عميق:

"تمام ورب العالمين وألف تمام. كنت يا سيدي النائب غارقاً في شرحك الفلسفي العميق. إن شرحك فيه حلاوة وعمق لا يضاهيه أي شرح آخر"

أدار مساعد الرئيس عينيه بزهو وإستعلاء في عيون الآخرين، قائلاً:

"أعتقد إننا توصلنا إلى نتيجة منطقية، يدعمها شيء مهم جداً هو الصبر. وعندما تبدأ المعركة الفاصلة، فيجب علينا أن نحافظ على هدوئنا. هذه هي فلسفتنا، كما أكد على ذلك الرفيق مدير الأمن العام. أما تخطيطنا على أرض الواقع، فهو كما يلي:

١. ننتظر سفر رئيس الجمهورية إلى بلاد البلقان، إذ أننا لا نريد أن نتلف

أعصابه، هو الشيخ الطاعن في أرذل العمر.

٢. سنراقب الأوضـاع ونرصدها باهتـمام بالغ بعد عودته وسنتحـرك بموجب حـركـة الخط البيـاني. وينبـغي أن نعـرف بـأن الانتـهـازيـين المنحـرفـين قد يحاولون التخلص منه بقتله، لأنه قد يشكل عامل عرقلة لهم.

٣. في حالة هيمنة الهدوء والإستقرار، اللذين هما فـي صالح الحكومة، سنضع خطة خاصة تلائم الوضع لتلك الفترة.

هل هناك ملاحظة أو إستفسار رفاق؟"

كانت ثمة أسئلة ومـلاحظات تدور في رؤوس الآخـرين، تمنوا لو يطرحـونها للنقاش، بيد أنهم كالعادة، تجنبوا إثارة غضبه.

بعد إنقضاء اللقاء، أشر مساعد الرئيس إلى مدير الأمن العام أن يبقى معه وخـرج الآخـرون. حين تأكد النائب من خـروج الآخـرين من البـاب الخـارجي، أقترب من صاحبه قائلاً أنه منذ مدة غير قصيرة تشغله فكرة تصـاحبه ليلاً ونهاراً. وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يثق به لطرحه عليه:

"فهل تتحمل عبء الفكرة التي أنوء تحتها وحدي؟".

أجاب صاحبه بارتياح كبير:

"سيدي، أنا أتحمل عبء العالم كله من أجلك"

علق المساعد وهو يتنفس الصعداء:

"هذا ما كنت أتوقعه منك"

قال بلهجة يغلب عليها التردد:

"أنا في الحقيقة يؤرقني مصير البلد الذي حوله الرئيس الشـايب إلى ريشة في مـهب الريح. أخـشـى أنه أصـيب بالخـرف. آنذاك سـيـقـودنا كلنا إلى ألف داهية. إن هذه الشاعرة قد جننته هو المتصابى في آخر عمره. إننا يجب أن نقوم بعمل يحدد صلاحياته، إذ أنه يتدخل في كل شيء. أنا أفكر ليلاً ونهاراً

بطريقة نحدد من خلالها سطوته وتهوره. قل لي بصراحة كيف نتعامل معه. إننا إذا لم نجد علاجاً سريعاً لهذه المشكلة العويصة لألتهمتنا النيران. إن الإنقلاب عليه وعلينا يقف وراء الباب. تكلم بكل صراحة. أنا بحاجة إلى رأيك؟".

سكت برهة، أطبق خلالها الصمت عليهما. وأما كلماته الأخيرة فنزلت مثل الصاعقة على رأس مدير الأمن العام الذي أحتاج إلى بعض الوقت كي يلم شتات أفكاره. أدرك مساعد الرئيس أنه وضع صاحبه في موضع حرج وأنه حصره في زاوية لا يحسد عليها. ولكي يعيده إلى وعيه، طلب منه أن يكون صريحاً ولا يأخذ أي شيء بنظر الإعتبار. قال المدير وعلامات الحيرة بادية على قسمات وجهه:

"لو لم يكن الشايب قريبك ويجمعكما دم واحد، لعرفت كيف أضع أمامك العلاج الشافي لهذه المشكلة العويصة".

قال خلف بصوت فيه صرامة:

"قلت لك تكلم بكل صراحة. إننا نناقش موضوع مصير دولة وليس مصير عائلة خرائية. إننا حين تسلمنا مقاليد الحكم، هل فكرنا في عوائلنا أو عشيرتنا؟ إننا حين وضعناه على رأس السلطة إنما بسبب سنه ورتبته العسكرية فحسب، وإلا فهو لا علم له ولا فهم. خذ الموضوع بجد يارفيق"

عادت إلى المدير سريرته الطبيعية وقال:

"هناك عدة حلول للتخلص من الشايب الذي بدأ يشكل فعلاً عامل عرقلة على طريق الثورة. الحل الأول تعيينه سفيراً في البلد الذي يزوره. الحل الثاني إرغامه على التوقيع على ورقة يتنازل فيها عن رئاسة الجمهورية لمساعده خلف أبو السيف لأسباب صحية. ولكي لا يشكل وجوده في البلد خطراً على الوضع، يجري إرساله إلى إحدى الدول الصديقة للعلاج الطبيعي والتدليك من قبل الشقراوات الناعمات. وعندما تكون أنت رئيس الدولة، نعرف كيف نضبط

الأمور ونعاقب الخارجين على القانون من أهل الجبال أو ما يسمى بإقليم ميدستان. وأعتقد أن الحل الثاني هو الأسلم. بقي أن تلم خيرة الأعضاء والكوادر الذين يعملون بكل إخلاص على خطنا.

ارتاح مساعد الرئيس خلف لكلمات المدير المقتضبة وعلق بصوت ممطوط:

"لا أريد أن أمدحك، فأنت رجل لا يحتاج إلى مديح، ولكن اسمح لي أن أقول بأنك فعلاً، الرجل المناسب في المكان المناسب. أفهم منك أنك سترتبط مصيرك بمصيري كالعادة، أليس كذلك؟".

أجاب المدير بثقة مطلقة:

"وهل تريدني أن أربط مصيري بمصير الرئيس الشايب؟ كنت فيما مضى معك والآن في الحاضر معك وسأظل في المستقبل معك"

سأل المساعد بملامح جدية:

"هل من الممكن التكلم بحرية أم للجدرآن آذان؟".

"قطعنا كل الآذان المعلقة على الجدران سيدي. خذ حريتك في الكلام"

"كما سمعنا جميعاً هذا اليوم، تأجلت زيارة رئيس الجمهورية إلى ستة أشهر بناء على إقتراح السلطات البلقانية. هل تعتقد بأن ثمة مؤامرة في الطريق؟"

"كل شيء ممكن في هذه الأيام. إن مخابرات الدولة البلقانية قوية جداً ولا شك أنهم على إطلاع كامل على ما يجري في بلدنا. لنا معهم علاقات قوية. وهم يزودوننا بسعر رخيص كل ما نحتاجه، ولذلك لا يمكننا منع رجالهم من التحرك عندنا. وتلعب المصالح دوراًكبيراً في صنع القرار السياسي. ولذلك نجد أنهم على إطلاع واسع على كل شيء ولا سيما حدوث الانقلابات. إن تأجيل موعد الزيارة لمؤشر على الشك بوجودها. وأما إذا أجلوها إلى إشعار آخر، فاطمئن أنهم قد وضعوا اليد على خطة إنقلابية.

قال المساعد بلهجة إستفسار:

"ما هو رأيك في رسم خطة أولية لإنقلابنا، حتى لا نظل ندور في حلقة مفرغة، محتارين بدون خارطة طريق؟".

"في حالة الإصرار على القيام بعمل ثوري نحتاج إلى خطة واضحة، وإلا مثلما تفضلت سنبقى حائرين ندور في حلقة مفرغة. ولما كنت أنت صاحب الفكرة وقائد الانقلاب أو الحركة التصحيحية، لذا أرجو، إن أمكن، أن أطلع على أوليات الخطة ليتسنى لنا الدخول في تفاصيلها".

"الخطوة الأولى قبل ساعة الصفر. أي خلال فترة ستة أشهر الأولى نخلق في البلد جواً متوتراً يسوده الإرهاب والفوضى والقتل العشوائي بحيث أن المواطن لا يأتمن على حياته وحياة أسرته، فيضطر للركون إلى بيته، الأمر الذي يؤدي إلى أن يتمنى تغيير الأوضاع من قبل أي جهة كانت. وبعد أن نتوصل إلى خلق الحالة النفسية المطلوبة، نبدأ بالخطوة الثانية التي ستكون عبارة عن شقين، الأول الإستمرار على إرسال وفود السلام التي تطالبه بالتنازل الطوعي عن الرئاسة، والثاني إرغامه بالقوة على التنازل. في حالة إصراره على عدم التنازل، نلجأ إلى إستعمال الخطوة الثالثة التي هي عبارة عن تحريك قواتنا ومؤسساتنا المسلحة وغير المسلحة والاستيلاء على الإذاعة. وأما ساعة الصفر فستكون اللحظة التي تطأ فيها قدماه أرض المطار، حيث يتم إلقاء القبض عليه. قال مدير الأمن العام:

"خطة محكمة سيدي وفي الوقت نفسه مرنة، يمكن تغييرها حسب الظروف المواتية وتطوراتها. فيها الخير وألف خير والله الموفق"

وأنصرفا على أن يراقبا الأحداث عن كثب وبدقة متناهية ويلتقيا في القريب العاجل من أجل تحديد موقفهما من جواب الشايب بما يخص تنازله السلمي عن الرئاسة.

٧

كان مكتب مساعد الرئيس المتميز بفخفخته وأبهته، مستقلا وغير مرتبط بمكاتب القصر الجمهوري، ولذلك حين يحتاج الرئيس معاونه لبعض الإستشارات الضرورية، كان عليه الإنتظار لفترة غير قليلة. ولم تلعب المصادفة أو ضرورات البناء أي دور في هذا التقسيم الذي أشرف عليه مساعد الرئيس شخصياً، بل هكذا أراد له أن يكون الأمر، ذلك أن المساعد كان يحسم الأمور بنفسه أولاً وآخرا. وكان الكل ، بهذا القدر أو ذاك، يعرف بهذه الحقيقةً التي كان يعرف بها الرئيس نفسه. وكان سبب سكوت الرئيس يعود إلى كون مساعده خلف أبو السيف هو المسؤول الأول عن الخط العسكري التابع للتنظيم السري الذي يخضعون لقيادته. والتنظيم هو الذي يحل ويربط في كل الأمور. كان من المفروض أن يتولى المساعد خلف رئاسة الجمهورية، بيد أنه أناطها إلى الشايب مرزوق، على أن يتنازل عنها متى ما شاء التنظيم السري. وكان سبب التعيين هذا هو تأمين الأستيلاء على القوات المسلحة التي كانت لا تعترف بالتنظيم. وتمكن خلف أبو السيف فعلاً من السيطرة على الجيش الذي استطاع بالتدريج تحويله إلى أداة بيد التنظيم السري.

كان رئيس الجمهورية الشايب مرزوق على إطلاع تام بكل هذه الأمور، ولذلك كان يقف بالضد من مجمل العملية. ولكنه كفرد كان عاجزاً عن تحقيق ما يصبو إليه من تغييرات لا تنسجم مع طموحات التنظيم السري. مثلاً أنه كان لا يستوعب مسألة قيادة السلطة السياسية العلنية من قبل منظمة سرية لا تخضع للقوانين ولا تعترف بالدستور. إن هذه الأفكار وغيرها جاءته من سياسيين كبار وعلماء من أبناء البلد، قابلوه في أوقات متباينة، طالبين منه كرئيس جمهورية أن يلعب دوره في تطبيق القوانين وبنود الدستور وتحويل التنظيم السري إلى حزب سياسي يفسح المجال أمام الأحزاب السرية الأخرى للعمل العلني. وكان هؤلاء يختفون في ظروف سرية وتعثر على جثثهم المزقة

في الشوارع الخلفية من العاصمة أو داخل صناديق السيارات.

ورغم أن الرئيس كان يكره ولا يحبذ الزيارات المفاجئة، إلا أن مساعده خلف أبو السيف، كان يزوره بأسم القرابة والشراكة في قيادة الدولة ويزوده بأنواع التقارير المحشوة بالكذب والإفتراء، مدعياً أنها واردة من قواعد المنظمة. إن أزعج ما كان يعانيه الرئيس زيارته في الأوقات التي لم يتواجد في البيت. ويظل ينتظره ساعات وهو يدردش مع زوجته. وأما الهدف الأساسي لزياراته هو مراقبة تحركاته وتشخيص الضباط الذين يزورونه في البيت. وبأسم القرابة يذهب إلى المطبخ باحثاً في الثلاجة عن الطعام. ولطالما صادف في زياراته المفاجئة ضابطا أو أكثر. كان لا يخرج من البيت، إلا بعد خروج الضابط، الذي يخضع إلى تحقيق طويل من حمايته بإيعاز مسبق منه. وبعد أيام قلائل يختفي الضابط الضيف عن الأنظار ليتم العثور على جثته المزقة في أحد الأزقة.

كل هذه الإجراءات التي كان يعمل من أجل تفاديها بمفرده، لم يجر التغلب عليها. وأشتدت عزلته أكثر فأكثر. ولم يكتفوا بإهانته سراً فحسب، بل كانوا يسخرون منه، لأنه عشق امرأة تصغره بعقدين من الزمن وهي لا تريده. بعد ثلاثة أيام من لقائه بمدير الأمن العام، أتصل المساعد هاتفياً بالرئيس، يطلب مقابلته للتحدث في شؤون البلد. أجاب الرئيس بلهجة غير مريحة قائلاً بإنزعاج:

"أنا موجود في المكتب، يمكنك زيارتي متى ما شئت"

قال المساعد بإنفعال:

"لا في مكتبك ولا في مكتبي. سنلتقي إما في بيتك أو في بيتي. ألا تعلم أن الجدران لها آذاناً قوية"

"إنشاء الله خير"

"الخير كله لك"

عرف الرئيس أن هناك شيئاً مهماً. قال بلهجة من يَرغم على الموافقة لشيء لا يريد أن يوافق عليه:

"ما رأيك في ربط اللقاء بتناول عشاء خفيف عندي؟"

"لا مانع لدي، ولكن يجب أن نكون وحدنا"

"صار"

"عليها"

في تمام الساعة السادسة مساءً طوقت حماية مساعد الرئيس خلف أبو السيف دار رئيس الجمهورية دون أن يشعر بذلك أحد. تم إلقاء القبض على بضعة عابري سبيل. أجريت معهم تحقيقات أولية، جرى في ضوئها توقيفهم جميعاً. والغريب أن رئيس الجمهورية جاء متأخراً عن الموعد،فأغتاظ المساعد وأفراد حمايته من التصرفات غير اللائقة بفخامة الرئيس الذي ينبغي أن يكون قدوة للآخرين ولا يخضع لأوامر شرطي المرور. رغم ذلك كانت مشكلة التأخير ليست ذات أهمية عند مساعد الرئيس، بل المهم عنده أنه كان جائعاً. إعتذر الرئيس لتأخره بسبب حادث إصطدام سيارتين، مات فيه رجلان وصبي. وبعد أن تعانق الرئيس ومساعده، قال المساعد:

"المهم أنت وصلت بسلامة وأما التأخير فيعتبر مجرد علامة فارقة في حياتنا"

خلال تناول طعام العشاء قال المساعد أنه أضطر لنشر أفراد الحماية حول الدار لصيانتها من أعمال العنف التي بدأت بالظهور في العاصمة. سأل الرئيس باستغراب:

"أعمال العنف في العاصمة؟ من أين لك هذا؟"

قال المساعد بهدوء وهو يختلس النظر في الملامح القلقة للرئيس:

"ألتقيت يوم أمس بمدير الأمن العام وسألته عن الأوضاع والمشاكل التي

تعانيها دائرته وما هي أهم الأشياء التي يحتاجونها للقضاء على المواقع الضعيفة في الأمن والإستخبارات ومن هي الجهات التي تقوم بالمضاربات المالية التي تضر الإقتصاد الوطني وتضره في الصميم. وأردت أن أعرف منه ما إذا كان خبر هروب سبعة محكومين بالإعدام شنقاً حتى الموت، خبر صحيح أم مجرد كلام. بالمناسبة إن هؤلاء متوزعون الآن في أنحاء العاصمة ويعتبرون من أخطر المجرمين. والله وحده يعلم كيف ستكون النهاية"

عندما أكمل المساعد كلامه، واصل تناول قطعة لحم الدجاجة المشوية. أراد الرئيس أن يطرح عليه سؤالاً، بيد أنه إنتظر أن ينتهي من مضغ لقمته، ذلك أن السيد المساعد لا يستطيع الكلام خلال المضغ. إقترح المساعد أن يواصلا الحديث بعد الإنتهاء من الأكل. ورغم ذلك فإن الرئيس لم يتحمل السكوت، قال بلهجة مشوشة غير مفهومة:

"الدنيا مقلوبة ونحن لا نعرف بها".

لم يستجب المساعد لكلامه إلى أن انتهى من تناول الطعام، عندها رفع يده قائلاً:

"فيها البركة. الآن نستطيع البدء بالكلام"

سأل الرئيس بفضول:

"وماذا كان جوابه لأسئلتك:

قال:

"خبر هروب المحكومين بالإعدام صحيح. وجواباً لسؤالي ما إذا كانوا يحتاجون شيئاً للقضاء على مواطن الضعف في دائرتهم، قال إنهم والحمد لله لا يحتاجون، إلا إلى شيء واحد فقط وهو إتباع سياسة واضحة لا تتقاطع بين اليمين واليسار"

قال الرئيس بغضب:

"هل هذا كل ما نطقت به سيادته؟ قل لي هل هو مدير عام دولة ولاية بطيخ أم يوزباشي في دولة خان جغان. ما هي الإجراءات التي اتخذها تجاه المتلاعبين بمصير الإقتصاد الوطني. هل هو على علم بمسرحية الوفود التي تأتيني بأسم القرابة وتطالبني بكل وقاحة بالتنازل عن رئاسة الجمهورية. أين هي الديمقراطية. ألم ينتخبني الشعب بالإجماع. إن هؤلاء النماذج بحاجة إلى معاملة خاصة، وإلا فالكلام لا يفيد معهم؟"

فكر المساعد في مدى جدوى مواصلة النقاش معه. وبدا له أن الرئيس ليس مصراً على البقاء في منصبه فحسب، بل أنه يمثل بوعي إتجاهاً جديداً غريباً على سياسة التنظيم السري التي لها خطها واستراتيجها الخاصين بها. وتأكد أن الشاعرة التي منحها قلبه، تعلمه نهجا جديدا في تسيير سياسة الدولة. وظل يفكر في طريقة تخلصه ليس من الريس الشايب فحسب، بل من هذه الساحرة اللعينة التي لا يدري من أين هبطت عليهم.

كان الغضب لا يزال بادياً على ملامح وجهه حين عاد من الحمام، قال كما لو أنه يواصل كلامه الذي بدأ به من قبل:

"إن هذه الوضعية يجب أن تتغير. أبحث عن رجل مناسب أحسن منه، فهو في كل الأحوال له سمعة سيئة. أمامي عشرات التقارير من منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان، تفضح أساليبه البربرية في التعذيب. إن هذا الصعلوك الذي قذفه القدر في صفوفنا إذا لم يتأدب ويعرف حدوده، سينال مني فلقة لم يذقها في حياته"

قال المساعد بلهجة ماكرة ووجه متخشب، يوحيان أنه غاضب فعلا، بيد أنه يحاول أن يتغلب على غضبه. ورأى أن الرئيس غير محق في تهجمه على مدير عامه المخلص الذي ينفذ أوامره بكل حذافيرها دون أن ينحرف عنها قيد شعرة:

"سيدي الرئيس، أنا لا أريد أن أدافع عن المدير العام، فهو قد حصل على

هذا المنصب بقرار خاص من الهيئة الثورية العليا.."

قاطعه الرئيس بغضب:

"هل تريد أن تقول لي بأنني لا أعرفه؟ أم تريد أن تلقي علي محاضرة في الأخلاق؟ هل تتذكر مظهره عندما جئت به وكأنك كسبت صلاح الدين الأيوبي. إنه فاشل في الدراسة لا أخلاق له ولا ضمير. إنه من أجل الحصول على المال والوظيفة، لا مانع لديه من أن يقفز على الجثث ويذبح الأطفال والنساء. كان كل رأسماله هو العنف، فماذا تتوقع من هكذا مخلوق؟"

كاد المساعد ينفجر من شدة الغضب وفهم من كلام وحركات الرئيس وملامح وجهه أنه أشد غضبا وأنه يعنيه هو. أراد أن يدافع عن رفيقه وصديقه، ولكنه خاف أن يعقد ويلوث الجو ويفسد الخطط التي رسمها، إذ تبين له أن المعركة القادمة التي سيضرمها أحد الجانبين، ستكون هي الحاسمة، آنذاك سيعرف أبن خاله وصديقه المخلص من هو خلف أبو السيف.

***

عاد السيد المساعد خلف أبو السيف برفقة حمايته إلى منزله، مهموماً يثقل كاهله ألم شديد يعصر قلبه ويحس بثقل كبير يجثم على صدره. لم تحس زوجته المتأنقة بأحاسيسه المضطربة وقلقه الشديد. ولكي تبدأ بحديث ما معه، سألته بلا أبالية رتيبة ما إذا كان الطعام شهياً وماهي الأكلات التي طبخوها في قصر الرئيس الخال؟ أجاب بإستهزاء دون أن ينظر في عينيها أو يلتفت إليها وهو يهز رأسه:

"عرب وين وطمبورة وين"

عرفت الزوجة أنه محمل بمشكلة، بعد أن دققت في ملامح وجهه الخشبي. في هذه الحالات تتركه وحده وتنصرف إلى شيء آخر من ضمنه تحذير الأولادوتنبيههم بعدم الإقتراب من بابا الذي يعاني من مشكلة:

"سنسمعها منه مباشرة"

طلب من أفراد حمايته أن ينصرفوا إلى مأواهم ويأخذوا قسطاً من الراحة، ذلك أنه سيقوم بجولة إستطلاعية في شوارع المدينة وينجز بعض الأعمال. قضى في مكتبه ساعة شرب خلالها قدحي شاي وأنجز بعض المعاملات التي تحتاج إلى توقيعه والنظر في قرارات الحكم بالإعدام شنقا حتى الموت على نحو عشرين تاجراً بتهمة التلاعب بقوت الشعب بغية تقديمها إلى رئيس الجمهورية، وفي حالة إصراره على عدم التوقيع، قرر أن يوقعها هو نفسه. ومما زاد من همومه التقارير السرية لهذا اليوم والتي تؤكد شعبية رئيس الجمهورية الذي بفضله تم استتباب الأمن والسلام في المجتمع. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن جناحه سينعزل أكثر فأكثر ولذلك بات أمر تكدير الأمن وتخريبه مسألة أساسية في تحقيق سياسة "الرعب الدائم". ورأى أن سياسة الرعب الدائم ستخلق إنساناً قوياً يتحمل فكرة تأسيس جيش قوي مزود بأحدث الأسلحة الفتاكة التي تكون ضمانة أساسية لتوسع البلد الذي قطعت منه مناطق حساسة وغنية بالثروات المعدنية. وأما الوضع الآمن فيخلق مجتمعاً خاملاً وكسولاً لا فائدة منه، الأمر الذي يريده جناب الشايب الريّس مرزوق أفندي. بسط يديه على مكتبه الأنيق الفخم وهو لا يزال يترنح تحت عبء الإهانة غير المباشرة التي صبها الرئيس على رأسه. وحرّكته أسئلة راحت تصعد إلى دماغه واحدة تلو أخرى. أسئلة، يحتفظ بأجوبتها في رأسه، ولكن يا ترى هل هي أجوبة صحيحة أم أنها مجرد أوهام وتمنيات غير قابلة للتحقيق. وأصر في نفسه أنها ليست مجرد تمنيات، بل أفكار جاهزة يجب أن تجد طريقها إلى الواقع مهما كان الثمن. وذهبت به القناعة الذاتية بأن الشخص الوحيد الذي بإمكانه تحويل الأفكار إلى واقع ملموس، هو هو بالذات لا غير. إن الأشياء بدونه لن تتغير. وقد سبق للقدر أن خطط ذلك في مكان أمين أشبه باللوح المحفوظ. الرئيس الشايب قد تحول إلى حجر عثرة "كما يقولون" أو إلى عامل عرقلة لتحقيق أماني الشعب، ولكن أي شعب؟

الشـعب الذي يريده هـو. ولا جـدوى من الشــعب الذي لا يريده هـو. أحس برغبته الجارفة في الإنتقام وسكب الدم، بيد أنه كعادته توقف عن التفكير في هذا الموضـوع وحـسب إلى العـشـرة. وراح يتـحـدث مـع نفـسـه، دون أن يحس بذلك. إذا كان لابد من ذلك ولا يشكل خطراً لحياة الناس، فليكن هذا التفجير برداً وسلاما، ليس على المؤمنين فحسب، بل على كل البشرية.

تذكـر تفـاصـيل اللقـاء الأخـيـر مع الرئيس مـرة أخـرى، والتي عـبـثـاً أراد نسيانها. والشيء الذي قفز إلى سطح ذاكرته بالدرجة الأولى هو هذا التركيز الحاقد ضد مدير الأمن العام. وهو يعرف طبيعة الرئيس جيداً فهو حين يحقد على أحدهم، فإنه لن يبقى في حدود حقده، بل يتحول إلى فعل حقيقي لا يعرف التساهل، فهو عندما يهدد بالفلقة، يعني أنه سيطبقها فعلا وسيفعل ذلك أمام أعين موظفيه الكبار. آنذاك يصدر الأمر الرئاسي بإعفائه من منصبه ولكي يهينه أكثر، يعينه سـائقاً في إحدى المديريات التابعة لوزارة الداخلية. وهذا يعني إسقاط أحد أركان جماعته. وهو إذ يستعرض التفاصيل، توصل إلى فكرة رسم خطة جديدة تدعم سـياسـة "الرعب الدائم" على أن تكون هجـومـيـة شرسة لا تعرف الرحمة. وقرر أن ينقل الحديث الذي جرى بينه وبين الرئيس إلى المدير العام بكل حذافيره كي يكون على إطلاع تام على ما خبأه له القدر. وبهـذا يكون ولاؤه تامـاً له لا تشـوبه شـائبـة ويتـخلص من تردده في أن يكون عدواً عنيداً لخط الرئيس. كما وقرر أن يطلعه على الخطة الجديدة ويشاركه في مناقشة محتواها.

وراح يسـترسل في أحلام يقظته وما ينبغي عليه أن يفعله إعتباراً من هذه الليلة من أجل إسكات الشـعب وضـرب الفـوضـى والشـغب وتطبـيق سـيـاسـة "الرعب الدائم". وجد أن تطبيق هذه السياسة بحاجة إلى مسؤولية كبيرة، لا يريد أن يمارسـها وحده. إذاً ينبغي عليه قبل كل شيء مـفـاتحـة رفيق الدرب مدير الأمن العام. سأل نفسه:

"هل يذهب إليه أم يستدعيه إليه هو؟"

جاءه صوت من أعماقه:

"لا تذهب إليه، دعه يأتك بنفسه. بعد القضاء على غريمك وقريبك، ستكون أنت الرئيس الأوحد. الرئيس لن يترك مكانه. الآخرون هم الذين يزحفون إليه. هل وجدت أسداً يزور ثعلباً في غاره، ناهيك عن أن الأسد لا يتمكن من الدخول في الغار الضيق"

أحس بغضبه أشبه بموجة قوية وعنيفة تتصف بالصعود والنزول.تارة تلطم الصخور وأخرى تمسها بهدوء.في الحالة الأولى يود لو يحرق كل شيء ويفجر الدماء ويقتل بصورة عشوائية كل من يصادفه من الأطفال والشباب والنساء. يود لو يشق بطون الحوامل بمدية حادة ويخرج الجنين بآلة جارحة ويرميه للكلاب. وفي الحالة الثانية يحسب إلى العشرة ويخف حقده الذي يخفيه في إحدى زوايا أعماقه كي يخرجه في الوقت المناسب. إنه لا ينسى الإهانة. والنسيان مفردة غريبة لا توجد في قاموسه. وأما مصلحته الشخصية ففوق كل شيء آخر, وإذ هو مشغول برسم خططه في رأسه، سمع بعدة طرقات شبه خافتة على باب المكتب. إنه كبير أفراد الحماية الذي جرى الإتفاق معه لتنبيهه بالوقت. حين سمح له بالدخول، أدى التحية العسكرية، قائلاً:

"سيدي، مضت الساعة"

قال بصوت ممطوط هادئ وهو ينظر إلى ساعته اليدوية:

"الوقت يمر مثل السهم. على كل حال، أنا سأخبركم فيما بعد، لا داعي لتنبيهي. أنا بانتظار مدير الأمن العام فقط. لا تفسحوا المجال لأي مراجع مهما كان. قل لهم أن المساعد غير موجود"

"سيدي، وزير الثقافة يقول أن له موعدا معكم، ولكنه لا يقبل أن يسلم مسدسه. ماذا نفعل معه. إن موقفه ضد التعليمات؟"

قال بغضب:

"إذا كان وزير السخافة يخالف الأوامر، فماذا ينبغي على المواطن البسيط أن يفعل. صادروا مسدسه وأشبعوه ضرباً، من دون كسر عظم أو فقدان قطرة دم ومزقوا ملابسه ثم افسحوا له المجال لمقابلتي"

"نعم سيدي"

ترك الغرفة مؤدياً التحية العسكرية. بعد نحو خمس دقائق دخل الوزير، وقبل أن يفتح فمه، أستغرق مساعد الرئيس في قهقهة طويلة وهو يقول:

"فعلوها معك أيضاً هؤلاء الأوباش..ها، ها، ها.. كم مرة نبهتكم إلى تعليمات الحماية؟ ولكنكم لا تفقهون. والآن يمكنك أن تنصرف. سأرسل لك موعداً آخر"

بعد أن ترك الغرفة واصل المساعد ضحكه ثم رفع سماعة التلفون وأتصل بمدير الأمن العام:

"أنا بإنتظارك. حاول أن تصل اليّ في أسرع وقت ممكن. جلستنا ثنائية لا ثالث معنا"

"نعم سيدي، حاضر."

بعد فترة قصيرة لا تتجاوز نصف الساعة، ظهر المدير العام لشؤون الأمن بوجه عديم الإنطباع، يكاد لا يعرف شيئاً عن أمور الإبتسامة وعرف بتجربته وسليقته أن ثمة مشكلة تتوجه نحوه في خط مستقيم. وفكر في أعمال الخراب والبناء التي تعرقل الطرق وتؤخر البناء من دون أن يعلم الإنسان أسبابه. اتخذ المدير مكانه على أحد الكراسي الواقعة بين الرئيس والنافذة المطلة على حديقة كثيفة الأشجار. عندما أتخذ مكانه، قال بلهجة شبه جدية تنوء تحت مشاعر الفضول:

"إنشاء الله خير"

سحب المساعد مؤخرته إلى الوراء معتمداً على قبضتيه الممسكتين بمسندي الكرسي المتحرك، قائلاً:

"إن الله سبحانه وتعالى لا يعطيك الخير إلا إذا عملت من أجله. أي إنك يجب أن تناضل من أجل الخير وإلا لن تحصل منه حتى على قرصة خبز شعير، ولذلك نحن هنا، في سبيل تشديد النضال من أجل الخير والبركة"

"لو تدري كم نحن نحتاج إلى كلامك الذهبي يا سيدي"

انحنى على المكتب وهو يرفع قلم الرصاص ثم بدأ يحدثه عما دار بينه وبين الرئيس من الأحاديث. وتوقف بعض الشيء عند كلمة "الفلقة" ثم قال متسائلاً بفضول:

"هل تعرف معنى كلمة الفلقة؟"

أجاب بإبتسامة باهتة:

"نعم سيدي. شد اليدين والرجلين وإظهار المؤخرة فضربها بعصا أمام الطلبة أو الناس بسبب مخالفات قام بها الشخص"

"تصور، إنه يريد أن يمارس معك الفلقة أمام حشد من العسكر، ذلك الأسلوب الذي انقرض، كوسيلة للعقاب، قبل أكثر من ثلاثة عقود من الزمن. حين دافعت عنك نهرني بكل صلافة. إنه الآن صاحب خط جديد يريد فرضه، ليس علينا نحن أصحاب ومنتمي التنظيم السري فحسب، بل على كافة أبناء الشعب. ألا يحتاج هذا الكلام إلى الوقوف بوجه طغيان العسكر بقوة السلاح؟"

ضرب بقبضته بقوة على المكتب قائلاً:

"هذا هو الموضوع الذي يجب أن ندرسه هذا اليوم. ينبغي أن نضع نقاطاً ملموسة لا غموض فيها ولا ثرثرة. يهمني الآن رأيك"

أجاب بلهجة هادئة:

"سيدي، أنا قبل أن أكون جندياً للتنظيم السري، أعرفك أنت. وكنت دوماً

أسير معك إلى حيث ما تريد، وكنت أفعل ذلك ليس من أجل الحصول على منفعة مادية أو معنوية، بل إيماناً بفلسفتك الإشتراكية القومية، ولذلك فإن رأيي من رأيك. أنت تخطط وأنا أنفذ".

كان خلف أبو السيف، مساعد الرئيس يتوقع منه هذا الجواب، إذ أنه يعرفه حق المعرفة: إنسان مطيع، يكره النقاش والجدال وينفذ الأوامر بإبداع. ويتصف بالقسوة التي يمارسها ضد الأعداء بلا رحمة. يعرف كيف يفقأ عين العدو أو يشرّبه مادة البنزين عنوة ويطلق الرصاص على بطنه بحيث ينفجر كأي قنبلة موقوتة. إن خلف أبو السيف لا يحتاج إلى من يقف بوجهه ويناقشه على أفكاره بأسم الديمقراطية أو يفلسف الأشياء ويقف عقبة كأداء أمام تنفيذ قرارات التنظيمالسري الثوري ولذلك فإن صاحبه مدير الأمن العام نموذج مقاس على قياسه، لا يمكنه أن يفرط به، إلا إذا اقتضت ذلك مصلحة التنظيم السري.

تململ خلف أبو السيف في مكانه بارتياح وقال:

"أنا في الحقيقة وضعت بعض النقاط الأساسية التي تخص صميم الخطة، سأعرضها عليك بإختصار. وعند إنتهائي من عرضها، يمكنك أن تبدي رأيك بكل صراحة:

أولاً: هدفنا الأساسي هو إسقاط سلطة الرئيس الشايب بقوة السلاح.

ثانياً: تبدأ ساعة الصفر عندما ينزل من الطائرة وتطأ قدماه أرض المطار، بعد عودته من بلاد البلقان. تكون جميع قوات الأمن والمخابرات والشرطة تحت الإنذار رقم (ج).

ثالثاً: تستولي قطعات الجيش والقوات المسلحة التابعة لنا على جميع مراكز ومخافر ووحدات الجيش والشرطة والإذاعات والقنوات التلفزيونية في جميع أنحاء البلاد.

تنفذ هذه الأوامر فوراً مع بدء الإعلان عن ساعة الصفر"

بعد صمت غير قصير، أضاف بزهو المنتصر:

"هذه هي أهم نقاط الخطة المطروحة للنقاش. وبعد الإنتهاء من مناقشتها وإقرارها، تعرض على اللجان القيادية بدون ذكر ساعة الصفر. والآن جاء دورك أيها الرفيق المدير العام لتناقش الخطة في ضوء خبراتك العملية الثمينة"

إنطبعت إبتسامة عريضة على فم المدير العام وقال:

"سيدي، إنك أستعملت طريقة ما قل ودل وقلت كل شيء في بضع جمل. إن قريحتك الثورية لم تترك مجالاً للمناقشة. يكفي أن نستوعب الخطة ونطبقها بإبداع وجرأة ومن ثم نكون نحن سادة الساحة. هذا رأيي ولا أريد أن أطيل أكثر"

علق خلف أبو السيف بفرح وإغتباط كبيرين:

"أنا سأكرر رأيي الذي سبق أن قلته مراراً وتكراراً وهو أنك فعلاً، الرجل الصحيح في المكان الصحيح. أمامنا الآن ستة أشهر فقط وهي كما نرى فترة قصيرة وطويلة في الوقت نفسه. ولكننا سنجعلها قصيرة بالعمل المستمر من أجل إشباع قواعدنا بروح الثورة والإنتفاضة. والعملية بطبيعتها سهلة (إجبار الرئيس على التوقيع) بيد أننا نصور المسألة أمام رفاقنا صعبة للغاية، وإلا فإنهم سيركنون إلى الخمول واللامبالاة"

"هذا الكلام صحيح سيدي، إنهم يجب أن يعتقدوا بأنهم أمام مهمة صعبة. إننا يجب أن نعيد إليهم ثقتهم التي فقدوها نتيجة لتصرفات الرّيس"

"أحسنت، بارك الله فيك. أفهم من كلامك أنك مع الخطة"

"قلباً وقالباً سيدي"

"إذاً، سنطبق سياسة الرعب الدائم من الآن فصاعداً"

"تقصد إعتباراً من هذه الليلة"

"أجل، إعتباراً من هذه الليلة"

٨

الساعة الرابعة والعشرون.

سيارة مرسيدس سوداء، آخر موديل، مصفحة، حجم كبير، تحتوي على ثلاثة ضباط مسلحين ومزودين بهواتف يدوية ترتبط مباشرة بسيارة أخرى بالمواصفات نفسها، يشغلها مساعد الرئيس خلف أبو السيف مع ثلاثة ضباط من مرافقيه. السيارتان تبعدان عن بعضهما بنحوعشرة أمتار وتحتميان بظلام المكان الذي تحيط به خرائب بيوت متروكة وغير مكتملة البناء. وثمة في الطرف الآخر من المكان سيارة نقل صغيرة تحتوي على مدير الأمن العام وسائق السيارة وثلاثة ضباط ملثمين مع السجناء الخمسة المحكومين بالإعدام. اتصل مدير الأمن العام بمساعد الرئيس خلف أبو السيف هاتفياً، قائلاً:

"سيدي، تم الكشف على المكان، لا رقابة علينا ولا إنصات.."

قطع المساعد كلامه، متسائلاً:

"وحراسه؟"

"نائمون نومة أهل الكهف سيدي. يبدو أن تأثير المخدر كان قوياً جداً"

"بارك الله فيك. استعملوا سلالم الحبال وانزلوا من السطح. أريد أن تجلبوه حياً وحافياً بملابس النوم. أحكموا لثامكم بشكل جيد. لا أريد أن تتعرف عليكم عائلته. هل تكفيكم عشر دقائق".

"نحتاج إلى وقت أقل سيدي، مع السلامة"

"الله معكم"

قال ذلك خلف أبو السيف ثم شغل الشريط. وبدأ فريد الأطرش يغني أغنية بساط الريح، جميل ومريح. طلب من أحد مرافقيه أن يضبط الوقت الذي تستغرقه العملية.

كانت جماعة سيارة النقل الصغيرة جاهزة للإنطلاق. أخذ المدير معه نفرين فقط. هرولوا بسرعة باتجاه الخيمة المنصوبة أمام الباب. كان عناصر الحماية الليلية تتكون من خمسة أفراد برتب مختلفة، استغرقوا في سبات عميق، ثلاثة في داخل الخيمة وأثنان خارجها. أشر إلى مرافقَيه أن يعيدا سلم الحبال إلى مكانه وهمّ إلى الضغط على الزر. ما لبث أن انفتح الباب وأطل عليهم الشخص المطلوب بملابس النوم. انقض عليه المدير لاوياً يديه إلى الوراء وشاداً إياهما بسلك رفيع. كل ذلك جرى بسرعة وصمت. وهرولوا باتجاه الظلام الذي تختفي سيارة النقل الصغيرة في ثناياه. دفع الرجل إلى داخل السيارة ثم أتصل بمساعد الرئيس، قائلاً له بصوت خافت:

"سيدي، انتهت العملية بنجاح"

قال خلف أبو السيف باستغراب وهو يغلق المسجل:

"مستحيل يا رجل. العملية استغرقت ثلاث دقائق فقط. هل أنت ساحر؟"

لم يعلق على كلامه، ولكنه أراد أن يعرف منه ما إذا ثمة عملية أو عمليات أخرى ينبغي القيام بها. قال النائب:

"يا عزيزي، إذا تم إنجاز العمليات الأخرى السرعة نفسها، فإننا سننتهي من تنفيذ الخطة خلال شهر واحد لا أكثر"

"سيدي، القرار بيدك أنت، ولكنني، إذا سمحت لي بالكلام، أرى أن نحسم مسألة هذا الطرطور ونتخلص من عبئه، بهذا نرسل رسالة أولية للشايب. ونرى كيف يكون موقفه، آنذاك سنقرر بدورنا موقفنا منه. والتهمة الموجهة إليه هي قتل ثلاثة ضباط من جماعتنا بدون أي ذنب ونقل البقية الباقية إلى ملحقياتنا العسكرية"

"عاش لسانك الحلو أيها الرفيق. حقق أنت معه. وبعد إنتهاء التحقيق طلقة على رأسه ثم نرمي جثته في أحد الشوارع البعيدة عن مركز المدينة"

في الوقت الذي قررا فيه التحرك للإبتعاد عن المكان، بدأ المدير بالتحقيق. كان المتهم الممدد على أرضية السيارة صامتاً باهت اللون ينظر إلى نقطة وهمية بعينين جاحظتين. كانت الصدمة قوية عليه. اعتقد المدير أنه أصيب بشلل كلي، سأله ما إذا جرى الإعتداء عليه من قبل أحد. أشار بحركة من يده بلا. قال المدير مهدداً:

"استعمل لسانك في الكلام يا حمار وإلا أكسر أسنانك كلها دفعة واحدة"

قال بفم مرتجف:

"نعم سيدي"

"هل أنت وكيل وزير الحربية؟"

"نعم سيدي"

"أنت متهم بقتل ثلاثة ضباط أبرياء. لماذا قتلتهم. هل كانوا خونة أم من أعداء النظام؟ النجاة في الصدق"

"لا من هؤلاء ولا من أولئك. أعرف أنكم ستقتلونني ومع ذلك سأقول الحقيقة، وهي أني قتلتهم بأمر من رئيس الجمهورية، دون أن أعرف التهم الموجهة إليهم. إنني كجندي لا أستطيع مخالفة الأوامر ولا مناقشتها"

هنا اتصل المدير بخلف أبو السيف هاتفياً وأبلغه باعتراف الرجل وقوله الحقيقة وسأله ما إذا كانت ثمة فائدة من مواصلة التحقيق"

أجاب خلف أبو السيف، أنه كان يتوقع كل شيء وأما أن يكلف الريّس أزلامه بقتل الأبرياء بهذا الشكل، فلا:

"على أي حال صفوه وأرموا جثته في شارع مظلم غير بعيد عن مركز المدينة. أما بالنسبة إلى مواصلة تنفيذ الخطة، فأرى إننا طالما بدأنا بالعمل، فليكن مضبوطا وعلى الأقل نكمل الواجبات التي رسمناها لهذه الليلة"

"أمرك سيدي، عملنا القادم هو ملهى الأفراح"

"بالضبط، الله معكم"

طلب المدير من الرجل، الذي كـان لا يزال ممدداً على أرض السـيـارة، أن يقـوم من مكانه ويجلس على الكرسي المحـاذي للبـاب. لم يتـمكن الرجل من القيام، لذلك ساعده أحد الضباط وأتخذ مكانه وراءه. وبخفية،من دون أن يراه أحد، سلم المدير المسدس كاتم الصوت للضابط الذي سرعان ما أطلق النار على قفاه. ثم فتح الباب ورمى الجثة إلى خارج السيارة.

وقفت سيارة الباص الصغيرة في مكان منعزل من أحد شوارع العاصمة المعروفة بالدعارة، آنذاك بدأ المدير بالكلام. تطرق بإختصار إلى تاريخ ملهى الأفراح الذي يملكه أحد الضباط الكبار ويديره رجل لبناني وبأن زبائن الملهى جميعهم من الضباط الذين يقفون إلى جانب رئيس الجمهورية ويعادون التنظيم السري :

"المهم هو تطبيق خطتنا بنجاح، وهي كما يأتي: أولا، هجوم عنيف على الملهى يصاحبه التخريب التاموضرب مبرح للزبائن والخدم بدون أخذ الرتب العسكرية بنظر الإعتبار. يجري إستعمال الدونكيات في الضرب العشوائي على مختلف أنحاء الجسم ولا سيما الرأس. يقوم بتنفيذ عملية الضرب السجناء الخمسة. ثانياً، يسيطر الضباط الثلاثة على الباب الخارجي وكل منافذ العبور. ثالثاً، أي محاولة لإستعمال السلاح من قبل الزبائن، يقمع فوراً بقوة السلاح. رابعاً، العملية كلها تستغرق خمس دقائق فقط، خلالها تكونون قد أتخذتم أماكنكم داخل السيارة.

بعد إنتهاء الدقائق الخمس تم تشغيل محرك السيارة، آنذاك رآهم المدير العام وهم يتركون الباب الرئيس بسرعة فائقة. أتصل المدير بمساعد الرئيس خلف أبو السيف الذي كان ينتظر المكالمة على أحر من الجمر:

"سيدي أنتهت العملية بنجاح. أراهم الآن وهم يتدفقون بسرعة من الباب الرئيسي. الآن خرج آخر واحد. وسيكونون داخل السيارة بعد دقيقة واحدة"

"بارك الله فيكم جميعاً. أنا كنت قلقاً بعض الشيء. إن العملية الثانية كانت أعقد وأهم من العملية الأولى. كيف نكافئ هؤلاء الأبطال الشباب؟"

"سيدي، إن أحسن مكافأة تهديهم إياها هي أن تجلس معهم عدة دقائق لا أكثر. يكفيهم فخراً أن يسمعوا صوتك ويتنفسوا الهواء نفسه الذي يتنفسه جنابكم"

"تقصد أن أجلس معهم الآن؟"

"كلا سيدي، في وقت آخر طبعاً"

قال خلف أبو السيف:

"أنا مشتاق بطبعي للجلوس مع الأبطال، فكيف لا أستجيب لطلبهم؟ يبدو أن الحديدة حارة هذه الليلة. فكروا في العملية الثالثة وناقشوها بالإجماع"

قال المدير بإصرار:

"سيدي، لا تفكير ولا مناقشة ولا هم يحزنون. سيدي، قل نفذوا العملية الثالثة وكفى. هل نقوم تالي عمرنا بالإستماع إلى آراء كل من هب ودب؟ سيدي كما قال جنابك، الحديدة حارة. سنقوم إذاً بتنفيذ العملية الثالثة والرابعة"

قال خلف أبو السيف بإرتياح بالغ:

"خير الأمور ثلاثة. وأما الطفرة إلى الرابعة، فيجب أن ندرسها من جميع الجوانب. قد تؤدي الإنتصارات أحياناً إلى الإحباط الذي هو في الحقيقة مفردة غير موجودة في قاموسنا".

أخرج المدير من جيبه ورقة صغيرة مطوية، راح يقربها من عينيه الضعيفتين. تبين له أن الخطة الثالثة عبارة عن فقرتين، ولكن غير واضحتين:

"سيدي عفواً. أحتاج بعض الوضوح، حيث أن الفقرة الثالثة عبارة عن فقرتين.."

قاطعه خلف أبو السيف، قائلاً:

"لاحظتك عندما كنت تكتب ملاحظاتك بسرعة فائقة. وعرفت إنك سوف لا تفك رموز كتابتك. إليك محتوى الفقرتين: الأولى: أغتيال ضباط معادين إن أمكن. أوالثانية، تفجير سيارة وحماية أحد المعادين الكبار. لاحظ حرف (أو). أنا مازلت أعتبر هذه العملية أعقد بكثير من العمليتين الأخريين، لأننا بحاجة إلى بعض المعلومات الأولية وينبغي عليك أن تعرف بأننا لسنا عبيداً لخططنا التي صنعناها بأنفسنا، وإلا سنتحول إلى جامدين عقائديين، كما تؤكد لغة السياسة. أليس كذلك"

"بارك الله فيك سيدي من قائد محنك. لقد خلقك الله أن تكون القائد الأوحد لهذا البلد العصي وغير سهل الإنقياد. بالمناسبة سيدي، كل المعلومات المطلوبة موجودة عندي من ألفها إلى يائها"

"أنت تؤكد دوماً بأنك خير رجل في خير مكان. أترك لك مهمة قيادة العملية الثالثة. وأنا بانتظار إبداعاتك"

"شكراً سيدي، سأحاول أن أبرر ثقتكم بكل إمكاناتي، مع السلامة"

"الله في عونكم"

سحب المدير العام دفتراً بغلاف أزرق كتب عليه (معلومات سرية للغاية _ خاص للمسؤول الأول) من درج منضدة معدنية صغيرة متنقلة تستعمل لأغراض الكتابة. وراح يقلب صفحات الدفتر بعناية وإهتمام بالغين. واجب الدفتر هو الحفاظ على المعلومات على الورق بعد أن يتم خزنها في الكومبيوتر. وحين يريد الموظف المسؤول الحصول على المعلومات كاملة وبلا تشويه، لا يرجع إلى الإنترنت، بل إلى الدفتر الذي هو المصدر الأول والحقيقي، إذ أنه يرى، بعد الإطلاع الواسع الذي قام به خبير الكومبيوتر الأول إلى عالم هذا الجهاز السحري، بأن المعلومات المخزونة في الكومبيوتر تكون معرضة للتشويه والسرقة والمسح، هذا بالإضافة إلى أن النص المنقول إلى الدفتر

يستند على التقرير الذي يكتبه المخبر بخط يده والذي يربط مع النص الأصلي بدبوس. إن أي خطأ في التقارير قد يؤدي إلى قطع أعناق بريئة.

دمدم مع نفسه:

"المطلوب منا أن نصفي عدة ضباط من الموتورين المحسوبين على الريّس الذي يريد أن يمد رجليه، بدون قواتنا، في الجيش. أي مهمة كبيرة تلك التي يتم فيها الوصول إلى المعلومات المطلوبة عن هؤلاء. إن المعلومات اليومية عنهم، تأتي على شكل أجوبة على الأسئلة الآتية:

متى يبدأون بالدوام؟

كيف يتصرفون في أثناء الدوام؟

متى يتركون الدوام ويذهبون إلى بيوتهم؟

هل لهم عناوين أخرى يسكنون فيها بالإضافة إلى بيوتهم الأصلية؟

متى يتمتعون بالقيلولة؟

متى يخرجون من البيت وأين يقضون سهرتهم؟

هل يترددون إلى ملهى الأفراح؟

هل يناقشون في السياسة؟

ما هي المواضيع التي يتباحثونها فيما بينهم؟

متى يرجعون إلى بيوتهم؟

توقف المدير عند هذا السؤال وراح يبحث عن الجواب الذي كتبه أحد أصدقاء الضابط من المنتمين إلى التنظيم السري:

"إنه من أشد الحاقدين علينا ومن ماسحي حذاء الرئيس. إنه يقود خلية من الضباط التافهين، عددهم خمسة، يبقون يسهرون حتى الثانية بعد منتصف الليل. وفي الثانية والنصف يتواجدون في مطعم الباجة. في الثالثة تنقلهم

سيارة باص صغيرة إلى بيوتهم المبنية في صف واحد في مدخل مدينة الضباط"

نظر المدير العام في ساعته: إنها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.فكر في نفسه: إنهم سيتواجدون في المطعم حوالي الساعة الثانية والنصف لتناول الباجة الشهية. إذاً ينبغي أن تبدأ العملية الثالثة والأخيرة لهذه الليلة بعد نصف الساعة بالضبط. كان محرك الباص في حركة مستمرة، رغم وقوفها أحياناً. وجه كلامه إلى الجماعة المهيأة لكل الطوارئ:

"إخوان، أمامنا مهمة صغيرة سننتهي منها بعد نصف الساعة تقريباً. يقوم بالمهمة السجناء الخمسة، عفواً أقصد النجوم الخمسة. وهي العملية الثالثة والأخيرة لهذا اليوم. نستهدف خمسة ضباط في أحد المطاعم الشعبية. لا نعرف ما إذا كانوا يرتدون الملابس العسكرية أم المدنية. المهم أن الضابط ماجد سيرافقكم إلى المطعم. وحين يؤشر بالرمي تفتحون النار عليهم. تأكدوا من أن الجميع قد فارقوا الحياة"

إلتفت المدير العام إلى الضابط ماجد وهو يؤشر بيمناه إلى ساعته قائلاً:

"كم تحتاج من الوقت؟"

أجاب ماجد بلا أبالية:

"ليس أكثر من ثلاث دقائق سيدي"

وقفت السيارة بالقرب من المطعم على مسافة لا تتجاوز عشرين خطوة. نزل الخمسة المسلحون ببنادق كلاشنيكوف، يرافقهم الضابط المسؤول ماجد، بسرعة فائقة. كان المطعم مليئاً بالزبائن. أستطلع ماجد الوضع في داخل المطعم من خلال الواجهة الزجاجية، قائلا:

"إنتبهوا، الضرب ليس عشوائياً، هل ترون الأفندية الخمسة الذين يرتدون البدلات الزرق؟ هم هدفنا. هيا شوفوا شغلكم"

وفي لحظات صعق الذين لم يشملهم الرصاص. وأما الضباط الخمسة، فتطايرت أمخاخهم ودماؤهم لتحط على الجدار وتتوزع على الصحون المحتوية على الباجة التي لم تؤكل بعد. بالسرعة نفسها التي تركوا فيها السيارة، عادوا إليها. قرب المدير العام ساعته من عينيه وهو يقول بلهجة إنتصار:

"ثلاث دقائق فقط، بارك الله فيكم يا شباب. سوف يلتقي بكم مساعد الرئيس شخصياً ويجازيكم. بالمناسبة إنه يعتبركم أبطالاً أفذاذاً"

٩

هزت العمليات الثلاث العاصمة هزاً عنيفاً، أصبح حديث الساعة على أفواه الناس. وراح المواطنون، إعتماداً على خبراتهم وتجاربهم السابقة، يحسبون ألف حساب للطوارئ الآتية في مستقبل الأيام المقبلة. وسمع الرئيس الخبر في الساعة الرابعة صباحاً، الأمر الذي أدى به إلى الأرق وإرتفاع ضغط الدم. وراح يفكر ويضرب أخماساً بأسداس وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. ويفكر في داخله ويتساءل: من هم يا ترى، هؤلاء الذين يهزون البلد بثلاث حوادث مروعة وخلال ليلة واحدة فقط؟ الشيوعيون؟ كلا أبداً. إن هذا ليس أسلوبهم. القوى الإسلامية؟ كلا، أبداً، فهم ما زالوا يعانون من الضربة التي وجهناها ضدهم. الجبليون؟ كلا أبداً. لا يقومون بالعمليات العسكرية إلا في مملكتهم، ثم أنهم لا يقومون إلا بحرب الأنصار. من هم إذاً هؤلاء الذين وجهوا إلينا هذه الرسالة المحترمة. إذا كانوا منظمين بهذه الصورة القوية، فلن نتمكن منهم. ويعني هذا سقوطنا وفشلنا الحتميين. أين هي مديرية الأمن العامة وأين هي مخابرات التنظيم السري التي استولى عليها خلف أفندي أبو السيف؟ أين كان سيادته في الليلة الفائتة؟ ألا يستحق هو الآخر فلقة محترمة كصاحبه؟"

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً حين انتهيرئيس الجمهورية من إرتداء ملابسه. لم يفطر، ولكنه تناول فنجاناً من القهوة المعدة على الطريقة

الغربية بالفلتر. قبل أن يغادر منزله بنصف الساعة، أستدعى جميع أعضاء الهيئة الثورية العليا مع الخبراء الأمنيين إلى إجتماع طارئ في تمام الساعة الثامنة صباحاً. وفي الساعة السابعة، بعد أن تناول فطوراً خفيفاً، التقى بخلف أبو السيف الذي حضر عنده لتداول نقاط الإجتماع. كان التعب ظاهراً على ملامح خلف وبدا وجهه متجهماً غاضباً. قال بعد أن صافح الرئيس ببرود:

"هذا كله نتاج إدارتنا غير الكفوءة للدولة أيها السيد الرئيس"

قال الرئيس بانفعال:

"إذا كان الأمر هكذا، فلنجر انتخابات عامة ونتخلص من هذه الورطة التي يسمونها السلطة"

"هذا هو بالضبط الخطأ الكامن في سياستنا. تحريض الناس على ممارسة الديمقراطية. وهم يفهمونها بحرية التبول في منتصف الشارع. إن هذا الشعب يا عمي يحتاج إلى دكتاتورية صارمة. ينبغي علينا أن نقوده بالسياط. ويجب علينا أن ندخل الرعب ليس في نفوس أبناء شعبنا فحسب، بل في نفوس الدول المجاورة لنا والدول الكبرى. ولا يتحقق هذا إلا بامتلاك السلاح النووي والجيش القوي الملائم له. آنذاك يحترمك الكل. ولكننا ماذا نفعل؟ نرفع لافتات ما يسمى بمنظمة السلم العالمي. وبالتالي تكون النتيجة أن تسيطر العصابات في ليلة واحدة على العاصمة كلها. أين أجهزة الأمن؟"

قال الرئيس بانفعال:

"أنا أعيد السؤال إلى جنابك. ألست مسؤولاً عن خط الأمن؟"

قال خلف بإستهزاء:

"كنت أتصور يا أبن خالتي أنك ستجيب على فكرتي بالظهور كدولة نووية، ولكن يبدو أنك لا تريد التدخل في السياسة"

"إن أمثال هذه الأفكار تناقش في الهيئة الثورية العليا. لنرجع إلى صميم موضوعنا: من المسؤول عن الأمن؟"

قال خلف أبو السيف وقد انطبعت ابتسامة خبيثة على وجهه:

"يا حبيبي ويا أبن خالتي ويا رئيسي. لقد تحدثنا مراراً وتكراراًعن سياستنا الأمنية وبحضورك. هناك أمن مدني وأمن عسكري. على فكرة أنت نفسك صاحب الاقتراح. كل الأماكن مثل المطاعم والنوادي والمقاهي التي يتردد عليها الضباط ودور الضباط، مهما كانت رتبهم، تابعة للأمن العسكري وأما البقية الباقية، فتابعة للأمن المدني. إن العمليات الثلاث قد جرت في الأماكن التابعة للأمن العسكري التابع لوزارة الحربية. إذاً تقع المسؤولية على عاتق الأمن العسكري وهو الذي يجب أن يحاسب"

قال الرئيس الذي تنفس الصعداء للمعلومة التي سبق أن نساهافي شرود حبه للشاعرة الجميلةوفي زحمة الأشغال الكثيرة التي تختلط عليه، هو الذي دخل أرذل العمر:

"أنا لا يسعني إلا أن أشكرك لهذه المعلومة التي أنقذتني من ورطة كبيرة كانت ستجلب لي العار والشنار"

"يا أبن خالتي وعضيدي، أنا واجبي يكمن في الدفاع عنك في كل الأحوال. إن الإجتماع سيبدأ بعد قليل. وستجري محاسبة شديدة للمقصرين. وأنت بصفتك رئيساً للجمهورية تتحمل جانباً كبيراً من المسؤولية. ويمكنك، من موقع منصبك أن تسحب المسؤولية مباشرة على مسؤولي الأمن العسكري. ولا يعفيك أي مبرر إلا الحكم العسكري بالإعدام رمياً بالرصاص على هؤلاء الجرذان المهملين. ولا تنس أن هؤلاء الضحايا الذين فقدوا حياتهم بسبب إهمال مسؤولي الأمن، لهم أقارب وعشائر لا يسكتون، بل يطالبون بحقوقهم المعنوية والمادية. أليس من المستحسن لك ولنا جميعاً، تفادياً لتحمل المسؤولية والقال والقيل وأنت في عمر تحتاج فيه إلى الراحة، أن تفاجئهم بتقديم الإستقالة

والخلود إلى الراحة والطمأنينة"

كان رئيس الجهورية لا يعرف بما يدور في رأس قريبه وعضيده من النوايا، بل كان يعتقد أنه ينصحه حباً به ليس إلا. وكان خلف أبو السيف يعرف ذلك. ولذلك لم يأخذ كلام الرئيس بالجد والذي قال فيه:

"لا تخف على عضيدك. إن أكبر قوة في العالم لا تستطيع سحب صولجان الحكم من يدي، عدا الله سبحانه وتعالى. هناك أصوات كثيرة تفكر هكذا، ولكني أقول لهم خسئتم، سأظل أحكم هذ البلد طالما قلبي ينبض بالحياة"

قال خلف أبو السيف في نفسه:

"سنرى. الأيام بيننا" ثم أضاف بصوت عال:

"الله يعطيك العمر والعافية، كي تتمم رسالتك الخالدة"

قال الرئيس بلهجة عطف:

"أفهم من كلامك إنك ستقف إلى جانبي وتساندني في مواقفي في الإجتماع. إن آراءنا إذا توحدت، فيمكننا أن نحسم الكثير من المواقف المترددة"

قال النائب بلهجة ثابتة:

"أنا سأختلف معك في الكثير من المواقف، إننا الآن في زمن آخر، لا تلعب فيه الصداقة والقرابة أي دور. إن المسألة الأساسية هي مصلحة الوطن والشعب"

قال الرئيس بلهجة خائبة ملؤها اليأس:

"قالوا لي إنك ستلدغني ذات يوم مثل عقربة، بيد أنني لم أصدق كلامهم. قلت لهم إنه عضيدي ويظل يلتزم جانبي ويقف معي"

"أعرف من قال لك ذلك، إنه مدير الأمن العام العسكري الذي سيحاسب هذا اليوم حساباً عسيراً. إنه مع الأسف حرّف كلامي. على كل حال، سنتخاصم داخل الإجتماع ونتصادق خارجه. ونحن في كل الأحوال يجمعنا دم واحد"

افتتح الرئيس الإجتماع في تمام الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة صباحاً وطلب من الحاضرين الوقوف حداداً لمدة دقيقة واحدة على أرواح الشهداء الذين سقطوا على أيدي مجموعة من الإرهابيين الخونة الذين سينالون عقابهم الشديد عاجلاً أم آجلاً. بعد مضي الدقيقة قرأ عليهم نقاط البحث الآتية:

١. وضع البلد العام وموقف الشعب منه.

٢. بلدنا بين حالتين، عسكرية قوية ونووية أم غير نووية مع التعايش السلمي.

٣. مشكلة الأمن وموضوع حوادث الليلة الماضية الإرهابية.

٤. حلول ومقترحات (خاصة بحوادث الليلة الماضية).

كانت الإجتماعات تفتتح عادة من قبل الرئيس، ثم لا يلبث أن يسلم إدارة الإجتماع إلى مساعده خلف أبو السيف، الذي يكون قد أعد نقاط البحث وتفصيلاتها التي يعرضها للمناقشة. وبعد الإتفاق على صيغ النقاط، يبدأ النقاش العام. أما اليوم فبدأ الإجتماع بشكل آخر وهو عدم عرض نقاط البحث للمناقشة وعدم تكليف مساعد الرئيس بإدارة الإجتماع، حيث برر الرئيس موقفه قائلا:

"بالنظر لأهمية وخطورة الأفكار التي سيطرحها مساعد الرئيس هذا اليوم، أردت أن أفسح له المجالكي يتمكن من المساهمة في النقاشات بصورة أفضل.."

قاطعه أحد الأعضاء قائلاً:

"نقطة نظامية"

أجاب الرئيس بحدة:

"تفضل"

"الإجتماع يجب أن يدار من قبل المساعد"

قال الرئيس بإنفعال:

"هذه ليست نقطة نظامية"

طَلَّب آخر أن يسمح له بالكلام، ولما سمح له بذلك قال:

"ولكن يجب أن يوافق السيد المساعد على الطلب"

صاح مساعد الرئيس خلف أبو السيف من مكانه، دون أن يطلب الكلام من الرئيس، قائلاً:

"أنا موافق. والإقتراح أصلاً من عندي"

تدخل الرئيس قائلاً بحدة:

"أرجو إحترام قدسية الإجتماع. إني سأمارس من الآن فصاعداً حقي في المركزية، لذا أرجو عدم التكلم دون أخذ الموافقة من الرئيس. كما وأرجو الإختصار في الكلام وعدم الخروج من صلب الموضوع. يرجى الإعتماد على مبدأ (ما قلّ ودلّ). والآن نبدأ بالنقطة الأولى:

وضع البلد العام وموقف الشعب منه: (المحضر/ طبق الأصل)

توصلت المناقشات الطويلة والعريضة إلى أن البلد يعيش في بحبوحة لم يعهد بها من قبل، رغم عدم توفر الماء الصالح للشرب وإنقطاع التيار الكهربائي لما لا يقل عن عشرين ساعة في اليوم، إضافة إلى الغلاء الفاحش لكل المواد المتوفرة في السوق. هذا رغم الإحصائيات التي تؤكد على وجود ٧٠٪ من البطالة، حسب كلام الخبير المسؤول عن أحوال السكان. وطلب أحد الأعضاء، تسجيل الجملة التالية في المحضر:"إلى أين تصب أموال الدولة؟"

أما بالنسبة إلى موقف الشعب، فينطبق عليه المثل الذي يقول: شمر بخير، ما عايزه غير الخام والطعام.

(هنا ينتهي القسم الأول من المحضر)

النقطة الثانية:

بلدنا بين حالتين، عسكرية قوية ونووية أم غير نووية مع التعايش السلمي.

كان أعضاء (الهيئة الثورية العليا) العشرة يعرفون حق المعرفة بأن خلف أبو السيف هو الرجل الوحيد الذي سيحتل مكان الرئيس عند حدوث طارئ ما. ويعلم الكل بأن جميع الأعضاء، يهابون خلف أبو السيف الذي يتمكن من إزاحة أكبر لحية لا تعجبه عن طريقه. ولذلك كانوا حذرين جداً في طرح آرائهم التي كانوا يصوغونها بالشكل الذي يتلائم مع طروحاته.

(المحضر / طبق الأصل)

الموضوع الأساسي الذي جرى مناقشته في هذه النقطة هو هل يحتاج بلدنا إلى السلاح النووي أم أن هذا السلاح سيتحول إلى عبء علينا؟ إننا في كل الأحوال لا نتمكن من الإعلان عن رغبتنا في إمتلاك النووي. وإذا أردنا أن نحتمي وراء واجهة (للأغراض السلمية)، فإنهم آنذاك سيضحكون علينا عن حق، إذ أن ثرواتنا في مجال الطاقة لا حدود لها. وبما أن أكثرية الأصوات وقفت إلى جانب ورقة تأييد النووية المطروحة من قبل الرفيق خلف أبو السيف، لذا ترفع الورقة وبتحفظ شديد إلى اللجنة الاختصاصية التابعة لمجلس الأمة. على أن يبقى موضوع النووية سرياً للغاية.

كما وجرت مناقشة موضوع بناء الجيش القوي المجهز بأحدث الأسلحة وأحسن المدربين وذلك على ضوء إمكاناتنا المالية المحدودة. ورأت الأكثرية المطلقة أن بناء الجيش العصري القوي ضرورة وطنية للدفاع عن إستقلال بلدنا وحمايته من العدوان

الخـارجي. ويكلف الرفـيق خلف أبو السـيف بإتخـاذ الإجـراءات اللازمة مع الدول الحليفة التي لها مصلحة في قوتنا.

(هنا ينتهي القسم الثاني من المحضر)

النقطة الثالثة:

(محضر طبق الأصل)

مشكلة الأمن وموضوع حوادث الليلة الماضية:

بعد الإطلاع الدقيق من قبل أعضـاء اللجنة الاختصـاصـيـة العليا للأمن القـومي، على الأمـاكن التي جـرت فـيـهـا الجـرائم، تبين أن القـائمين بالأعـمـال الإرهابيـة، رجـال يتـمـتـعـون بكفـاءات عـاليـة وإمكانات نـاضـجة لقلب نظام الحكم، إذا ظل البلد يـعتـمـد على مـا يسـمى بالأمن العسكري الفـاشل من أسـاسـه. إن جـهـاز الأمن يحتـاج إلى إعادة البناء من جديد. ويتحمل رئيس الجمهورية، الذي يرتبط به الأمن العـسكري، المسـؤوليـة الأولى في هذه الإنتكاسـة الدموية. إن الهاربين من وجـه العدالة، منظمون بصـورة مـحكمـة. ولن يكتـفوا عن ممارسـة فـعـاليـاتهم، إلا بعد أن يـحصلوا على مـا يريدون.

أصـبـحت هذه الوريقة أسـاسـاً للمناقـشـات الحـادة ووثيـقـة إدانة لرئيس الجـمهورية الذي لم يتمكن من الدفاع عن جمـاعتـه، الأمر الذي أدى بـأكـثـرية مطلقـة من مـعـارضـيـه، من أتبـاع خلف أبو السيف، إلى أن يطالبوه بالإسـتقالة. رفض بشدة أمر الإسـتقـالة واعتبر كل من طالب ذلك، متآمراً مارقاً.

وترك الإجتماع متذمراً خائباً ومهدداً.

(هنا ينتهي المحضر/ القسم الثالث)

النقطة الرابعة:

(محضر طبق الأصل)

حلول ومقترحات (خاصة بحوادث الليلة الماضية)

بعد أن درست (الهيئة الثورية العليا) التقرير المختصر بشأن مسؤولية لجنة الأمن العسكرية المقدمة من قبل الرفيق رئيس الجمهورية، تبين أن المسؤولية المباشرة تقع على عاتق مدير الأمن العام العسكري، الذي كان أفراده، بدلا من أن يقوموا بالمراقبة الأعتيادية، كانوا يجلسون مع الزبائن يحتسون المشروبات الروحية وهم في حالة سكر شديد. ومن حيث شئنا أم أبينا، ينسحب هذا الموقف على رئيس الجمهورية، رغم معرفتنا التامة بأنه لا يتناول المشروبات الروحية إلا في المناسبات التي تقتضي ذلك، ولكنه بشكل عام قصّر في مراقبتهم والإشراف الدائمي على أعمالهم. ولذلك نرفع مسألة عقوباتهم إلى اللجنة القانونية المختصة بإصدار الأحكام.

كانت الهيئة تتوقع أن يقوم الرفيق الرئيس بالمشاركة الفعالة، لوضع الحلول العملية لإعادة تركيب لجنة الأمن العسكرية، بيد أنه تشنج ورفض المشاركة في المساهمات والآراء المطروحة بغية إيجاد حل عملي. ولم يكتف بكل ذلك، بل ترك الإجتماع بعصبية، متذمراً ومهدداً بدون أي شعور بالمسؤولية.

تقرر تشكيل لجنة خاصة للنظر في الجرائم الدامية ودراستها بشكل معمق.

(هنا ينتهي المحضر / القسم الرابع).

١٠

بعد انتهاء الإجتماع الطارئ الذي قامت به الهيئة الثورية العليا، خرج الجميع منصرفين إلى مكاتبهم، على أن لا يجري الحديث عن الليلة الدامية ريثما يتم التحقيق في مجمل القضية. ظل مساعد الرئيس خلف أبو السيف جالساً في مكانه يفكر في أحداث الليلة الماضية. والدور البطولي الذي قام به الشباب الأوفياء وقرر أن يقوم بإعداد المدربين والمرشحين لتدريبهم على أحدث الأسلحة الخفيفة والثقيلة وأساليب المصارعة والملاكمة واليودو. وقرر أن يلتقي برفيقه المخلص مدير الأمن العام، لينقل إليه ما دار في الإجتماع. وليضع أمامه سياسته الجديدة التي يجب أن يتبعوها من الآن فصاعداً، وهي: (سياسة الرعب الدائم). وراح يسجل محتوى هذه السياسة على ورقة صغيرة على شكل ملاحظات قابلة للحفظ، إذ أنه منع تناقل الأوراق منعاً باتاً. جاء في الورقة ما يأتي:

سري للغاية

توجيهات داخلية

١. من ليس معنا فهو ضدنا.

٢. يجب تصفية العدو بلا رحمة، سواء أكان في الداخل أم في الخارج.

٣. لا يكفي مجرد التأييد السطحي. يجب الإنتماء إلى التنظيم السري. والعمل في إحدى هيئاته بنشاط.

٤. شعارنا الرئيس خلق دولة نووية بأقوى جيش في المنطقة.

٥. يجب تحقيق قرارات (الهيئة الثورية العليا) بدون قيد أو شرط. (نفّذ ثم ناقش).

٦. في مجال السياسة الخارجية نعادي الاستعمار ونحاربه بسلاح البترول.

هذه ملاحظات عامة ترسم خارطة الطريق في عملنا المقبل. على كافة الهيئات التنظيمية والخلايا والرفاق دراستها وإبداء الرأي حولها، والإلتفاف حول قيادة الرفيق المساعد خلف أبو السيف حفظه الله.

تنبيه إلى الرفاق:

لا يجوز الإحتفاظ بالورقيات أو تناقلها. حاول أن تحفظ النص وتتلف الورقة.

كان مدير الأمن العام ينتظر خلف أبو السيف بلهفة وخوف وفضول في إحدى غرف مديرية الأمن العامة التابعة لمكتب مساعد الرئيس والتي تجري فيها التحقيقات مع رجالات الدولة الذين خالفوا التعليمات بخصوص وظائفهم. لمح المدير العام علائم البشاشة المطبوعة على وجه صاحبه، فإنعكس ذلك على وجهه هو الآخر. ومع كلمة (بشّر) التي نطقها المدير العام، هجم عليه خلف أبو السيف، فاتحاً ذراعيه، يطوقه بشدة، على غير عادته، وفوجئ بذلك المدير الذي يعرف أنه نادراً ما يطوق أحداً. قال النائب وهو يتخذ مكانه على كرسي قريب من صاحبه الذي كان لا يزال ممسكاً بجريدة (الجمهورية):

"ألم أقل لك أن القوة تغير الأشياء؟"

"ولذلك كنت دوماً إلى جانبك يا سيدي"

قال المساعد بكبرياء وفرحة:

"لقد إنتصرنا وهزمنا الرئيس الذي ظل حائراً طوال الوقت لا يدري كيف يدافع عما يسمى بالأمن العسكري. قلت له بصراحة إنني من الآن فصاعداً لن أقف إلى جانبه. إنه فعلا ضعيف ليس بمستوى قيادة دولة. إننا يجب أن نستمر على نهجنا ونظل نطبق (سياسة الرعب الدائم)"

قال المدير العام بلهجة تعليمية:

"سيدي، كل الامبراطوريات الكبيرة أعتمدت على القوة وعاشت من خلالها"

قال المساعد باستغراب:

"برافو، أيها الرفيق المدير العام، هكذا يكون الكلام الذي يفحم الآخرين. يعتقد المثقفون أن رجل الأمن لا يفهم التاريخ، ولكن خاب ظنهم"

ثم مد يده إلى جيبه، أخرج الورقة المحتوية على ملاحظاته وتابع:

"سيبدأ خطنا الجديد بهذه الورقة التي ستغير الأوضاع وتقلبها رأساً على عقب. على أن يرافق السلاح كل كلمة مذكورة فيها"

قبل أن يكلفه بطبعها وسحب كمية على جهاز الرونيو، بادر المدير العام إلى طلب الورقة بغية طبعها وسحبها بنفسه.

عندما تسلم مدير الأمن الورقة من خلف أبو السيف، هم بوضعها في جيبه، بيد أن الأخير طلب منه أن يقرأ الورقة بإمعان ويبدي رأيه فيها بكل صراحة، ذلك أنه هو الآخر يتحمل مسؤولية كل كلمة جاء فيها. قرب الورقة من عينيه وراح يقرأ النص بإمعان في حين أنشغل خلف أبو السيف بتقليب صفحات جريدة الجمهورية. حين انتهى من قراءة النص، رفع يده الممسكة به إلى أعلى قائلا:

"سيدي، هذه ليست ورقة، بل مجلد كامل من الأفكار والموضوعات. وإذا كان لابد لي من إبداء الملاحظات، فأسمح لي بملاحظة، هي في الأساس تكتيكية وغير أستراتيجية وتتعلق بالنقطتين الرابعة والسادسة. الرابعة تقول: خلق دولة نووية بأقوى جيش في المنطقة. لا تنس أن الدول العظمى هي التي تقرر من تملك النووية ومن لا يحق له إمتلاكها. إننا حالياً مشكلتنا ليست مع الإستعمار، بل مع الحاج أحمد أغا. وأما النقطة السادسة فتحتوي على رأي خطير جداً وهو عبارة: نعادي الإستعمار ونحاربه بسلاح البترول. إننا بهذا نكشف أوراقنا أمام العدو الذي يجب أن لا يعرف بعدائنا له. ونكرر في الوقت نفسه الخطأ الذي وقع فيه شاه إيران الذي قال: إن أسعار النفط نقررها نحن أصحاب النفط وإنني سأحول إيران إلى يابان الشرق الأوسط. وكان أن

عاقبوه شر عقاب وخلقوا له الثورة الإيرنية التي صنعوا منها الشيخ الأكبر الذي كان نائماً في سبات عميق لا ينافسه فيه سوى أهل الكهف"

قال خلف أبو السيف بعينين جاحظتين:

"بارك الله فيك يا رفيقي المدير العام. ملاحظاتك واقعية جداً. هكذا تكون نتيجة القيادة الجماعية. يبدو إنني كتبت ذلك تحت تأثير الحماس الذي هيمن على مشاعري التي دعتني أن أحول النقطة الثانوية إلى رئيسية. أمسح النقطتين لتبقى الورقة في حدود ما قلّ ودلّ".

وعادا مرة أخرى إلى مناقشة ما دار في الإجتماع الطارئ وإستنباط الإستنتاجات المفيدة التي تساعدهم في رسم سياستهم (الرعب الدائم) الذي فسره خلف أبو السيف كما يأتي:

هو سلب الإستقرار النفسي الداخلي عند الإنسان بواسطة القوة أو التخويف بمختلف الوسائل كقطع رأس عزيز له أمام عينيه أو تكليفه بقتل أبن عمه، بحيث لا يفكر سوى في نفسه، الأمر الذي يؤدي إلى الإنقطاع التام ليس عن محيطه فحسب، بل عن العالم كله، إذ أنه يرى في الآخرين أعداءه، يراقبونه ليلاً ونهارا ويضعون أنواع الخطط للإيقاع به فقتله.

إنك إذا تمكنت من تطبيق هذه السياسة على ٧٠٪ من أبناء الشعب بنجاح، تكون قد قضيت قضاءً تاما على المعارضة بكل أنواعها. هناك فيلسوف ألماني نسيت أسمه يقول (إن السلطة إله يمشي على الأرض) والسلطة الحقيقية تعرف جيداً كيف تفرض الطاعة على الشعب، ولا سيما إذا كان متخلفاً عن ركب الحضارة. لولا سياسة الحديد والنار التي طبقها بسمارك لما تمكن من توحيد الإمارات الألمانية وتحويلها إلى أمة ألمانية واحدة.

قطع خلف أبو السيف حديثه قائلاً:

"لا أريد أن أطيل حديثي وأسبب لك وجع الرأس. أمامنا شغل كثير"

"كلا أبداً سيدي. إنها أفكار رائعة لقائد رائع...."

قاطعه خلف أبو السيف:

"لا تخف، سنتحدث كثيراً حول هذا الموضوع. ولكننا يجب أن نرجع إلى موضوعنا الأساس الذي يجب أن لا ننساه أو نهمله، فالإجتماع حسم العديد من المسائل المطروحة التي يجب أن ندرسها. والآن بعد أن تطرقنا إلى ما دار في الإجتماع، يجب أن نسجل إستنتاجاتنا وتحليلاتنا مع كيفية التحرك في سياستنا على أرض الواقع. إننا يجب أن نفعل شيئاً ينشر الرعب الحقيقي في كل مكان من أرضنا. والآن، بدلاً من الإستعانة بالذاكرة التي قد تخوننا، نستعين بالمسجل"

أخرج من جيبه مسجلاً صغيراً وضعه على المكتب بعد أن شغّله. وراحا يستمعان إلى المحضر بأقسامه الثلاثة. رفع خلف أبو السيف رأسه وحدق في وجه صاحبه بإستطلاع وفخر قائلاً:

"والآن ماذا تقول يا رفيقي الأوحد؟"

أجاب صاحبه بحيرة وإستغراب:

"ماذا تريدني أن أقول يا سيدي؟ إنني الآن آمنت بنظريتك (الرعب الدائم). إننا لو لم نلجأ إلى القوة لما قطفنا هذه الثمرة الرائعة التي بلبلت وزلزلت (الهيئة الثورية العليا) وقائدها رئيس الجمهورية المخرف. إنها ثورة حقيقية، يجب أن تستمر بدون توقف. إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لو لم نسيطر سيطرة نهائية على هذه الهيئة القيادية التي أغتصبها الريّس في غفلة من الزمن. إن لقب مساعد الرئيس يجب أن يتحول إلى الرئيس سواء على مستوى الدولة أو على مستوى التنظيم السري. في رأيي أن نواصل العملية هذه الليلة"

"برافو أيها الرفيق المدير العام. إنك فتاح فأل وتقرأ ما يدور في رأسي. إن دار السيد غير مأمونه. سنرسم الآن خطة هذه الليلة"

قبل الإتفاق على العملية وتفاصيلها درساً وضع السلطة من خلال الآراء الواردة في المحضر وتبين لهما إنها ضعيفة تحميها مجموعة صغيرة من الضباط المهيمنين على الرئيس الذي يحمل مجرد اللقب. وهو ليس في العير ولا في النفير، يقضي معظم وقته مع الشاعرة تقرأ له قصائدها وتعلمه الشعر. ويقضي المتبقي من وقته في الحمام التركي تدلكه طبيبة بولونية. وأما التواقيع فينجزها في فترة الإستراحة الواقعة بين فعاليات السيدتين.

ناقشا محتوى فكرة خلف أبو السيف الذي يؤكد على إلقاء القبض على رئيس الجمهورية وعلى الضباط المؤيدين له في الفترة القصيرة القادمة وتسفيرهما إلى إحدى دول أوروبا الشرقية الصديقة، ولكن الفكرة لم تجد التأييد منهما. إتفقا مبدئياً على القيام بتغيير السلطة بعد عودة الرئيس من زيارة دولة البلقان. ساعة الصفر تبحث في وقت آخر وتبدأ بإرغامه على تقديم الإستقالة وتكليف خلف أبو السيف برئاسة الجمهورية ورئاسة التنظيم السري. أي أن العملية تبدأ بعد ستة أشهر وتكون بدون إراقة الدماء، إذ أن المتمسكين بالسلطة من كلا الجانبين أقارب من الدرجتين الثانية والثالثة. ذلك أن إراقة الدماء بين الأقارب بسبب الصرا ع على السلطة تفقد مصداقية الحركة التي يقومون بها في عين الشعب.

واتفقا على مواصلة سياسة (الرعب الدائم) خلال الأشهر الستة المقبلة كي تكون الجماهير على إستعداد لتقبل الحركة الإنقلابية على أمل التخلص من الإرهاب والفوضى وفرض الإستقرار والأمن.

توقفا عند فكرة العملية القادمة التي اتفقا على القيام بها مساء هذا اليوم ووجداً أن ثمة مناسبات كثيرة يمكن تحويلها إلى مآسٍ تقف سلطة الريّس مكتوفة اليدين تجاهها، دون أن تتمكن من إتخاذ إجراء ما. قال خلف أبو السيف:

"يا رفيقي العزيز يا أبا التعذيب أنت تمر من أمامك يومياً عشرات القضايا

والإعترافات والسرقات وجرائم القتل والإغتصاب.. إلخ. ألا تتمكن أن تخرج لنا قصة من جعبتك الواسعة كي نحولها إلى دراما"

أجاب صاحبه كمن يستيقظ من نوم عميق:

"القضايا كثيرة، ولكنني أفكر في واحدة تنزل على الناس مثل الصاعقة التي لاتخلق عندهم الذعر فحسب، بل صدمة يعانونها مدى الحياة"

انطبعت إبتسامة عريضة على وجه خلف أبو السيف:

"أنت تثير فضولي أيها الرفيق المدير، هيا انطق خيراً"

مد المدير يده إلى جيبه وأخرج ورقة مطوية قائلا:

"هذه الحكاية دوختني، لذا أفكر منذ أيام في تحويلها ألى مادة لعمليتنا القادمة.

سوف تؤدي العملية بلا شك إلى إثارة الرأي العام العالمي ويستغلها الشيوعيون بإستعمال طبولهم كالعادة. لا يهمنا قرع الطبول ولا الرأي العام العالمي، إذ أن هذه الأصوات تكون موجهة ضد حكومة الريّس وتكون عامل تقوية لنا نحن، بحيث أن الرأي العام العالمي سيكون إلى جانبنا عندما نستولي على السلطة.."

تساءل خلف أبو السيف:

"الحكاية؟ أين الحكاية؟"

"الحكاية تعرفها أنت جيداً يا سيدي. إنها حكاية هؤلاء التجار الذين ألقي عليهم القبض بحجة تخريب السوق وتهريب العملة الصعبة. من جهة تصدر الهيئة الثورية العليا بيانا سرياً بضرورة إعدامهم ومن جهة أخرى يطلق سراحهم بكفالات مالية، يذهبون على أثرها إلى بيوتهم"

ضرب خلف أبو السيف بقبضته المكتب بغضب:

"أنا أعرف نصف الحقيقة فقط والنصف الآخر يرقد بين سيقان نسائهم.

وسوف أريهم واحداً واحداً أين توضع رؤوسهم"

كان المدير العام يعرف أن صاحبه إذا غضب، فإنه لا يحتمل، ولذلك راح يراعي مشاعره ويضرب على الأوتار التي تعجبه:

"سيدي، إن شق الخلاف بيننا وبينهم قد إتسع ويتسع يوما بعد يوم. إنهم يعرفون جيدا بأنهم أقزام أمام هامتك، ولذلك يحاولون النيل منك بإخفاء الحقائق عنك، ولكن هيهات. ينبغي أن نبادر نحن ونستغل هذه الحادثة برميهم بسهام جعبتهم بحيث يتحولون إلى قرقوز أمام الشعب والرأي العام العالمي الذي يتبجحون به"

تنفس خلف أبو السيف الصعداء وانقلبت أسارير وجهه المتجهمة إلى الإنفتاح:

"يا رفيقي أنت فعلاً جبار والرجل الكفوء في المكان المناسب الذي يمسك أسرار مهنته المعقدة بأصابعه الدقيقة. أنت تفكر مثلي وأنا أفكر مثلك. أعرف قصة هؤلاء. كان ثمة قرار لإعدامهم من أجل كسر عين الشعب الذي بدأنا الآن نطبق بحقه سياسة الرعب الدائم، بيد أننا لم نجد حجة كافية لإعدامهم. ومهما حاولنا إيجاد الحجج، كانوا يثبتون براءتهم وهكذا فرضت عليهم الإقامة الجبرية في بيوتهم مقابل وكالة مالية محترمة. على فكرة إنهم تجار رافضية يمكنهم أن يتحكموا بالسوق متى ما شاءوا. اننا بإعدامهم نصيب عصفورين بحجر واحد. أولاً نطبق سياسة الرعب الدائم. ثانياً نحرج الحكومة أمام الشعب والرأي العام..."

قاطعه المدير العام:

"وثالثاً نوجه ضربة قاضية إلى الرأسمال الكبيرالذي يفكر أصحابه بأنهم قادرون على فعل أي شيء"

"حسن، لننتهِ الآن من وضع الخطة، كي نتمكن من تبليغ النجوم الخمس وضباطهم بالأمر. أرى أن نقسمهم إلى أربعأو خمس فرق. كل فرقة تتكون من

محكوم بالإعدام وضابط. ينطلقون كلهم إلى التنفيذ في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بدون أقنعة. ويقدمون أنفسهم كضباط تابعين للإستخبارات العسكرية ويطلبون بأدب من صاحب البيت المطلوب أن يصطحبهم لإجراء تحقيق بسيط في المقر على أن يعيدوه بسيارتهم إلى البيت دون تأخير.

تحتاج العملية كلها إلى خمس دقائق فقط. عند المماطلة أو إبداء أقل مقاومة، يجب إستعمال المسدس كاتم الصوت. تنتهي العملية كلها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. مجموع عدد المرشحين للقتل أربعة عشر رجلاً، ترمى جثثهم في أنحاء مختلفة من العاصمة. وتجري مخابرة مخافر الشرطة ومكاتب الصحافة فور إنتهاء العمليات بالمانشيتات التالية:

- مجهولون يقومون بحمام دم يقتل فيه ١٤ رجلاً.
- أين هي الشرطة والأمن؟
- لماذا تسكت الحكومة عن الجرائم؟
- لماذا سكتت الحكومة عن جرائم الإبادة الثلاث؟
- هل هناك علاقة بين جرائم الليلتين؟
- إلى متى تحكمنا عصابات ذئاب القتل الليلية؟
- عصابتان تتصارعان على السلطة على حساب دم الشعب. من منهما ستنتصر؟ وما هو مصير الشعب في هذه المعمعة؟
- ما هو دور العسكر في هذه الحرب الغامضة؟
- نطالب بالخبز والديمقراطية والقضاء على البطالة.
- أضربوا المجرمين بيد من حديد.
- يشاع أن بعض الرؤوس قد قطعت.

قام بتنفيذ العملية الطاقم نفسه الذي نفذ العمليات الثلاث في الليلة السابقة وتحت إشراف كل من خلف أبو السيف ومدير الأمن العام.

١١

مرت فترة الأشهر الستة ببطء شديد مثل ليلة مليئة بالكوابيس، قضاها الناس، في جميع أنحاء البلد، تحت خيمة الرعب الذي حول المواطنين إلى مخلوقات غريبة تخاف من بعضها بعضاً. وبعد إنقضاء فترة الأغتيالات الفردية، بدأت مرحلة جديدة سميت بمرحلة الأغتيالات الجماعية، حيث كانت تدفن عشرات ، بل مئات الجثث في مقابر جماعية مجهولة لا يعرف بها إلا بعض المشرفين على الدفن. لم يبق زقاق أو شارع لم يعثر فيه على أكثر من جثة. ولم يبق بيت لم يقدم ضحية أو أكثر. بدأ الناس يخافون حتى من التحدث عن أحلامهم، ولكنهم كانوا يحنون في دواخلهم إلى الأيام التي كانت خالية من جرائم القتل. ويقال أن رئيس الجمهورية نفسه كان لا يترك مأواه خوفاً من أن تغتاله الأيدي الأثيمة. وذات مرة أراد أن يتحدى هؤلاء القتلة المجهولين ويثبت شجاعته، فخرج مع موكب حمايته في سيارات مصفحة وظهر في منطقة معروفة بولائها له. وكان أن واجههم القتلة بالصواريخ والبنادق الرشاشة، أبادوا خلال فترة قصيرة جداً جميع أفراد حمايته. وكان أن أسعفه الحظ ونجا باعجوبة هو وسائقه. وسرت بين الناس إشاعات مفادها أن القتلة تعمدوا في عدم قتل رئيس الجمهورية، وإلا فانهم لو أرادوا قتله لتمكنوا من ذلك.

مع إنتهاء مدة الشهور الستة، حان موعد زيارة رئيس الجمهورية إلى دولة البلقان التي كان من المفروض أن يقوم بها قبل ستة أشهر، بيد أن السلطات البلقانية أجلت الزيارة إحتراماً لروح نجله الذي أغتيل على أيدي القتلة المجهولين.

قبل أن يغادر الرئيس البلد، التقى بمساعده خلف أبو السيف، قائلاً له أن البلد أمانة في عنقه وأنه يجب أن يعمل المستحيل من أجل إلقاء القبض على هؤلاء القتلة الذين فشل هو في إلقاء القبض حتى على نفر واحد منهم. وإذا تمكن من تحقيق هذا الهدف، فإنه سيجازيه بالتنازل له عن منصب الرئاسة،

ولا سيما إنه مريض ودخل في أرذل العمر وأنه يريد أن يرتاح فعلاً وينصرف لكتابة الشعر. كان هذا الكلام صدمة كبيرة لخلف أبو السيف. وظل بين مصدق ومكذب، بيد أن الأخير هو الجانب الأرجح عنده وتصور أن الرئيس يضحك عليه ويريد أن يكشف سره، ولذلك قرر في داخله أن يبقى على تحالفه مع مدير الأمن العام. وظل يفكر عدة أيام في كلامه، مرة يصدقه وأخرى لا يصدقه. وفكر، أنه حتى لو أراد أن يتعاون مع الرئيس، فكيف يمكنه التخلص من هذه العصابة الغارقة في الدم والمسلحة حتى قمة الرأس؟ وكيف يواجه حليفه مدير الأمن العام الذي ربما له علاقة مشبوهة بأمن إحدى الدول الصديقة بحكم وظيفته. فهو إن خان صاحبه، فلا يمكنه أن يحرر نفسه من حبائله.

إنها ورطة. ورطة كبيرة جداً. ووجد أن الحل الوحيد الذي يمكن أن يطرحه على صاحبه، هو أن يفاتحه بالحقيقة التي مفادها أن الرئيس سيتنازل عن منصب الرئاسة ولذلك يجب عليهم الكف عن فكرة الإنقلاب وحل المشكلة بصورة سلمية. ولكن، هات من يقنع المدير العام بهذا الكلام. إنه بطبعه يشك في كل شيء. فكيف به أن يصدق الرئيس الذي أكد قبل مدة قصيرة أنه لن يتنازل عن منصبه مهما كان الأمر؟

أصبحت هذه المسألة شغله الشاغل الذي راح يفكر فيه ليلاًونهاراً. إن الرئيس الذي يسمونه بالحج أيضاً لا يكذب ولا يخدع وهو معروف بصراحته. يقول ما يفكر فيه دون أي تردد. المسألة إذاً محسومة بالنسبة إليه ولا تحتاج، لا إلى ساعة الصفر ولا إلى حركة مسلحة ولا هم يحزنون. ولأول مرة في حياته يحس بالخوف والإحباط والندم. ندم ليس تجاه الذين قتلهم بالجملة، بل تجاه شيء غامض لا يعرف ماهيته. يحس أنه محبط يقف بين شبحين مرعبين هما الرئيس والمدير العام، كل واحد منهما يحاسبه على حدة. وراح الشبحان يظهران في كوابيسه، يهجمان عليه بمخالبهما، ولكنه يتخلص منهما بعد القضاء عليهما في اللحظة التي يستيقظ فيها من كابوسه المرعب. وحين يعود

إلى نومه بشق النفس، يعود إليه الكابوس من جديد. ويظهر الرئيس على شكل ذئب قوي بمخالب كبيرة منجلية، يقول بصوت أجش ممطوط، تنبعث منه أصداء طبقات تهتز لها الآفاق البعيدة، تختلط بعواء ذئاب غريبة قادمة من وراء الأفق:

"لماذا يا خلف تتآمر علي مع إنسان منحط وتريد أن تقتلني، أنا الذي لم يبق لي في الحياة سوى أيام معدودات. أعرف أنك أنت الذي دبرت حادث الشاحنة التي أصطدمت بسيارة أبنيومات في الحال. إنك قد حرقت قلبي من أجل لا شيء الذي هو السلطة. كيف يقتل قريب قريبه بهذا الشكل. لماذا بالذات هذا الأبن البعيد عن السياسة. إنك قتلته كي تحرق بذلك قلبي فحسب"

ومع كل ذلك يأتيك الرئيس يا خلف ويقدم لك البلد في طبق من ذهب. ويقول لك "أن البلد أمانة تقع على عاتقك". وفكر خلف كثيراً ورأسه يضطرب بكومة من الأسئلة التي تريد إجابات صحيحة وصادقة. هل يبقى أمينا لقسمه أمام المدير العام الذي قسم هو الآخر بأن يكون أميناً للخطة التي رسماها للقيام بالحركة الإنقلابية وساعة صفرها التي تصادف اللحظة التي تطأ فيها قدم الرئيس أرض المطار عند عودته من زيارته إلى دولة البلقان .

***

ما أن ترك الوفد المرافق للرئيس مرزوق أرض الوطن، حتى بدأ النائب خلف أبو السيف يتصرف كما لو أنه هو الرئيس الرسمي المتوج لإدارة البلد. أول عمل قام به هو أنه بلغ رفاقه من أصغر عضو في القاعدة إلى أكبر كادر مسؤول عن التنظيمات السرية، بالحركة التصحيحية لمسار الثورة التي بدأت تنحرف عن أهدافها القومية على يد زمرة من الضباط الخونة الذين تقف لهم التنظيمات السرية بالمرصاد. ومن حيث شاء خلف أبو السيف أم لم يشأ، حدث إنشقاق في صفوف الهيكل التنظيمي الذي تحول عملياً إلى تنظيمين معاديين، بدت آثارها واضحة في الشارع. من نتائجها قيام تظاهرات يومية، بعضها يؤيد الرئيس ويعادي المساعد خلف أبو السيف وبعضها الآخر يؤيد

المساعد خلف ويعادي الرئيس. لم يكن في مخطط المساعد خلف أبو السيف تصعيد الخلافات بهذا الشكل في الشارع. وخوفاً من وصول الأخبار إلى أسماع الرئيس، بدأ بإرسال مجموعة من الرسائل والتوجيهات إلى المريدات و المريدين، يحذرهم فيها من مغبة الإنتفاضة ضد النظام مع التأكيد بأن القيادة المقدامة هي التي ستحل الأمور، ولذلك لا داعي للنزول إلى الشارع، مع التأكيد على اليقظة وإنتظار الأوامر في اللحظات الحاسمة. حدث كل ذلك بسرية تامة. ولكن النائب خلف أبو السيف يشك في مسألة السرية التامة ويعتقد بتسرب الأخبار بشكل من الأشكال إلى العدو. وراح القلق يقتحم كيانه وهو بانتظار المفاجأة التي ستسقط عليه كالصاعقة. وفكر في إيجاد وسيلة تخلصه من القلق المتوتر الذي يحرق أعصابه. وفكر كعادته في وضع خطط تنقذه من الوقوع في ورطة غير مرغوبة ولا تؤدي إلاّ إلى الهلاك. تذكر المقولة الشعبية التي تقول: "أتغدى به قبل أن يتعشى بي"، ولكن ضد من سيستعمل هذه المقولة يا ترى؟ إنه سينتظر الأقدار التي ستقرر ذلك. ولا يهمه من يتلقى الصفعة، المهم إنه هو سيخرج من المعركة سالماً معافياً.

بعد أيام قليلة حزم الوفد حقائبه لمغادرة دولة البلقان. وتمت مراسيم التوديع على أرض مطار البلد الصديق. بعد مرور نصف الساعة على تحليق الطائرة، تسلم قبطان الطائرة أمراً برقياً يلزمه بتغيير إتجاه الطائرة إلى أقرب بلد يطلب منه الموافقة على الهبوط الإضطراري. وفي مخابرة سريعة بين الرئيسين، علم الرئيس مرزوق بوجود إنقلاب خطط له بعض العسكريين من الضباط الصغار، على أن ينفذ عند نزول الوفد من الطائرة. دام الإنتظار سبع ساعات، ضرب خلالها الرئيس مرزوق الأخماس بالأسداس دون أن يصل إلى نتيجة معقولة وأخيراً تمت المكالمة بين كل من الرئيس مرزوق ومساعدهخلف أبو السيف الذي قال بالحرف الواحد:

"تم القضاء على الرأس المدبر للإنقلاب والذي هو مدير الأمن العام. الأمور تحت السيطرة التامة. نحن بانتظار وصولكم بسلامة".

خلال فترة قصيرة لم تتجاوز أربع وعشرين ساعة، تمكن مساعد الرئيس خلف أبو السيف من إلقاء القبض على أكثر من ٣٠٠ عسكري، أطلق عليهم الرصاص دون محاكمة وعلقهم على جانبي طريق المطار المؤدي إلى مركز المدينة لليلة كاملة وذلك بتهمة التآمر على الرئيس مرزوق. كان المساعد خلف أبو السيف أول المستقبلين، حيث عانق الرئيس بشكل لم يسبق له مثيل، وبشره بالقضاء على آخر ضابط إشترك في المحاولة الإنقلابية الفاشلة. هز الرئيس رأسه بإستنكار وطلب منه رفع الجثث ودفنها في مقبرة جماعية ومنع التحدث عن هذه الكارثة. قال له وهو يحدق في عيني خلف القلقتين الغارقتين في الدماء:

"اليوم فعلتها مع هؤلاء الأبرياء وغداً ستفعلها معي"

أراد خلف أن يقول شيئاً، بيد أن الحماية سحبته إلى موقع آخر.

كانت أجهزة الأمن التابعة لدولة البلقان، قد أعطت معلومات كاملة حول المحاولة الإنقلابية الفاشلة ضد الرئيس مرزوق الذي أصيب بصدمة قوية عندما علم بأن خلف أبو السيف هو الرأس المدبر للمؤامرة يساعده في ذلك ساعده الأيمن مدير الأمن العام. ورغم كل هذه المعلومات التي حصل عليها الرئيس، وقف عاجزاً عن أداء أي شيء تجاه خلف الذي سماه بـ "شيطان أبن الشيطان". وأدرك موقعه بشكل واضح وأقر أنه يتحرك داخل قفص ذهبي لا مهرب منه. وحين بدأ بالدوام في مكتبه لم يجد الوجوه التي كانت تشتغل في معيته. أراد عدة مرات أن يتصل بمساعده خلف أبو السيف، ولكن عبثاً. قيل له أنه يمكنه الكتابة إليه وعرض مطالبه. وراح يتكلم مع هذا الجندي الذي عرف أنه مكلف بجلب الطعام والشاي له:

"ماذا حصل؟ أين هم هؤلاء الذين كانوا يعملون هنا؟"

أجابه الجندي بأستغراب:

"سيدي الرئيس، ألا تعرف بالإنقلاب؟ كل الذين كانوا يشتغلون هنا خانوك

وهم الآن في عداد الموتى"

عرف الرئيس أنه يسكن تحت الإقامة الإجبارية، دون أن تذكر له الأسباب الموجبة لذلك. سمح له بالإتصال بكل من الشاعرة والمدلكة البولونية على أن تكون الزيارة تحت الرقابة. حاول المحيطون به من المستشارين والأطباء إقناعه بإعفائه عن العمل والإعتناء بصحته وراحته، ولكنه كان يأبى ذلك بعناد. قرر خلف أبو السيف حسم الأمور بطريقته الخاصة، حيث راحوا يضعون المواد المخدرة في طعامه ومشربه. ولما ساءت صحته، نفذوا خطتهم في إزاحته نهائياً، حيث غرقوه بالورود في يوم عيد ميلاده وأخفوا وراءه رجلاً يشهر فوهة مسدسه على ظهره ووضعوا أمامه مكتباً، يحرر عليه مذكرة يطلب فيها إعفاؤه عن الخدمة لأسباب صحية. كان لم يزل يحتفظ بشيء من الوعي في رأسه، إذ أحس بفوهة المسدس وهي تضغط بقوة على عموده الفقري، الأمر الذي يسبب ألما حاداً. وعرف أنه لو امتنع عن التوقيع على الورقة الموضوعة أمامه، فإن حامل المسدس الكاتم للصوت، سيضغط على الزناد بدون أي تردد. وكان أن تم لهم ما أرادوه.

وبعد مدة غير طويلة مات الرئيس في ظروف غامضة لم يطلع عليها سوى من دبرها.

١٢

حقق خلف أبو السيف خطته التي رسمها في ذهنه بشكل تام، فأصبح يحمل لقب رئيس الجمهورية بدلاً من مساعد الرئيس الذي رأى أنه كان لا يخوله بتحقيق طموحاته التي لا حدود لها. وأول ما فكر فيه هو بناء جيش قوي لا يقل عدد أفراده عن مليون جندي، خصص له نصف واردات النفط، ترافقه قوة نووية ضاربة لا تهاب أي شيء. وقبل الدخول في تفاصيل بناء هذين المرفقين العسكريين الحاسمين، نبهه مستشاره العسكري بأن بناء مثل هذا الجيش

القوي الذي ترافقه قوة نووية بحاجة إلى موافقة خاصة ومساندة من قبل دولة عظمى، وإلا فإن المشروع لن يتحقق. كانا يتمشيان في حدائق القصر الجمهوري. قال الرئيس الجديد خلف أبو السيف كعادته بغضب:

"هل تريد أن تخضعني لدولة عظمى تتلاعب باستقلالي الوطني أيها الرفيق المستشار؟ هل تريد أن تكسر معنوياتي؟ من خولك أن تتحدث معي بهذا الشكل؟ من هي الجهة التي أعطتك هذه المعلومة؟ من تظن نفسك يا أبن العاهرة؟ أنت إعتباراً من هذه اللحظة تعتبر إنساناً مشكوكاً فيه ومحكوم عليك حالياً بالإقامة الجبرية لحين بدء التحقيقات معك. هل تكفيك هذه الرزالة، أم تحتاج أكثر؟"

أراد المستشار أن يتكلم، بيد أن الخوف الذي هيمن على كيانه لم يسعف لسانه بالنطق. عرف أن الرئيس سوف لا يرتاح لكلامه، ولكنه لم يكن يدري أن جوابه سيكون بهذا الشكل. بعد فترة صمت قصيرة تمكن من التغلب على الشلل الذي أصاب لسانه. قال بصوت متهدج:

"سيدي الرئيس، أستغفر الله أن أكون أخضعكم لدولة عظمى تتلاعب بإستقلالنا الوطني، ولكن مسألة بناء جيش قوي ترافقه قوة نووية لها شأن آخر. أنا لست المستشار العسكري الوحيد في أمرتكم. إسألوا المستشارين الآخرين كلهم، فإذا وجدتم خلافاً في كلامي، فإلجأوا ليس إلى فرض الإقامة الجبرية علي، بل أعدموني شنقاً حتى الموت"

كان الوقت فترة ما قبل الضحى وكانت الشمس الدافئة تطل من خلال غيوم نهاية مارت. قطعا مشيتهما بمبادرة من السيد الرئيس الذي راح يحدق في عيني مستشاره بشكل غريب كما لو أنه يريد أن يعرف مدى صدق كلامه من خلال عينيه. وشعر الرئيس أن دفء الجو وكلام مستشاره قد أثرا على مزاجه إيجاباً، هو الذي ما زالت نشوة النصر تسري في أعصابه. قال الرئيس بلهجة ودية:

"هل أنت مصر على كلامك؟"

قال المستشار بعد أن ملأه الشعور بالأمان:

"سيدي الرئيس، حين عينت مستشاراً لكم، أقسمت اليمين على أن أكون صادقاً وأميناً أمامكم وفي كل ما أقوله في محيط عملي. ولذلك فأنا ما زلت مصراً على كلامي الذي أتحمل كامل مسؤوليته"

قرر الرئيس خلف أبو السيف الإتصال بسفير الدولة العظمى في أحد البلدان المجاورة للتباحث بشؤون العلاقات بين البلدين. وأعلمه بمكالمة خاصة أنه يريد اللقاء به بمنتهى السرية. أبدى السفير ترحابه وغبطته باللقاء مؤكداً له أن الأمور ستجري على ما يرام. أختار خلف أحد وزرائه ممن يجيدون لغة الدولة العظمى كمترجم شخصي له وأوعز إلى مديرية السفر والجنسية بإصدار جواز خاص له بأسم مستعار.

وصل الوفد المكون من كل من الرئيس خلف أبو السيف ووزير الخارجية في الموعد المقرر والمتفق عليه. وكان السفير قد خصص له كل وقته في ذلك اليوم. بعد كلمات الترحيب التقليدية، أخذ خلف زمام الكلام متطرقاً إلى العلاقات التاريخية الحميمة بين البلدين والمساعدات الحاسمة في إنجاح الثورتين في بلده. وقال أنه جاء خصيصاً من أجل إنعاش العلاقة بين الدولتين:

"ها إننا جئنا إلى الحكم للمرة الثانية. إنني أيها السيد السفير الرجل الأول في بلدي. أنا رئيس الجمهورية، جئت أطلب حمايتكم كما أنتم تطلبون حماية مصالحكم عندنا، فلنتباحث هذا الأمر على أساس شرف الكلمة"

قال السفير بابتسامة غامضة:

"شرف الكلمة يعني الكثير أيها السيد الرئيس"

قاطعه خلف أبو السيف:

"أعرف ذلك أيها السيد السفير. إن أقل خروج على الإتفاقية المبنية على

شرف الكلمة يؤدي إلى دحرجة رؤوس"

قال السفير ضاحكاً:

"إن شاء الله، لن تصل الأمور إلى هذا الحد"

"كلا، لن تصل، نحن نعرف بعضنا بعضاً بشكل جيد"

قال السفير وهو يريد الدخول إلى مجال الأمور الملموسة:

"نحن نتحمل حماية شخصكم وحماية حكمكم بكل ما نملكه من طاقة..."

قال خلف بحماس:

"ونحن نحمي مصالحكم، ليس في بلدنا فحسب، بل في المنطقة كلها"

قال السفير بلهجة قاطعة:

"كلا. أنتم تحمون مصالحنا في بلدكم فقط، وأما حماية مصالحنا في المنطقة، فلا. إنها مشكلتنا نحن"

"كما تشاؤون أيها السيد السفير، ولكنني ينبغي بهذه المناسبة أن أتطرق إلى ضعف تعانيه حكومتنا ألا وهو الوضع البائس لقواتنا المسلحة التي تحتاج إلى البناء من جديد. إننا بصراحة نحتاج إلى جيش قوي يتمكن من حماية ليس جمهوريتنا فحسب، بل مصالحكم في بلدنا أيضاً. إننا يهمنا استقرار وتثبيت السلم في المنطقة"

هنا أراد أن يتطرق إلى ضرورة بناء قوة نووية، بيد أنه تذكر نصيحة مستشاره. ثم أنه وجد طرح المسألة في غير محلها ولربما أدى ذلك إلى تخريب اللقاء.

بعد أن تم الإتفاق المبدئي على أهم النقاط وأشرف الإجتماع على النهاية، قال السفير أن هذا اليوم يعتبر من أجمل الأيام التي عاشها. وأكد بأن اللقاء القادم سيكون في عاصمة بلد الرئيس، حيث سيجري بحث البنود وتثبيتها في بروتوكول مفصل يتناول النواحي الإقتصادية والسياسية والإجتماعية

والثقافية. وعبر الرئيس خلف أبو السيف عن مشاعره تجاه هذا اللقاء التاريخي العظيمالذي سيؤدي حتما إلى تلاحم البلدين من أجل مستقبل أفضل للأجيال القادمة.

بعد تناول طعام الغداء مع السفير، توجها إلى الطائرة الخاصة التي كانت تنتظرهما في المطار. عند بلوغ طائرتهما مطار العاصمة العالمي، إفترق الرئيس عن مترجمه، حيث تم نقل الأول إلى مكتبه في رئاسة الجمهورية والثاني تم إيصاله بإحدى سيارات الأمن العامة إلى منزله الواقع على أحد أطراف العاصمة.قبل أن تسأله زوجته عن سبب الكآبة الجاثمة على وجهه، بادر هو إلى الكلام بصوت كسير:

"يا امرأة هيا أعدي الحقائب. إننا يجب أن نرحل من هذا البلد. أنا مستهدف للقتل. اليوم أو غداً يتم أمري"

سألت زوجته بدهشة وإستغراب:

"ما بالك يا رجل؟ ماذا تقول؟"

قال وهو يحاول أن يهدأ:

"يا امرأة، أنا اطلعت اليوم على معلومات خطرة، لا يحق لي الإطلاع عليها ولهذا السبب يجب أن أموت"

واتفقا على أن يغادرا البلد غداً بأول طائرة، على أن يكونا في الصباح الباكر في المطار. بعد تناول طعام العشاء، خرجا كعادتهما في كل يوم للتمشي على شاطئ النهر وإلقاء النظرة الأخيرة على المنطقة.

فجأة ومن بدون سابق إنذار، إنطلق وابل من الرصاص من العدم. كانا يعتقدان إنها لعبة عشواء، بيد أن الإعتقاد خانهما هذه المرة. وتكوم الرجل على نوافير الدم التي راحت تتدفق من أنحاء جسمه. تجمهر الناس في مكان الحادث. وراح كل فرد يفسر السبب بالشكل الذي يلائم مصلحته. أقدمت

جماعة ملثمة على الجثة وألقت بها في سيارة ترانسبورت صغيرة اتجهت إلى جهة مجهولة دون علم الزوجة. وفي اليوم الثاني خرجت تظاهرة حكومية ضخمة، تصاحبها سيارات الشرطة والدراجات البخارية وهي تستنكرعملية الأغتيالات التي تقودها العناصر المشبوهة والعميلة، تتقدمها جنازة مرفوعة على الأكتاف مع لافتة كبيرة كتبت عليها:(دماؤك لن تذهب هدراً أيها الرفيق الشهيد البطل). وعند إجراء مراسيم الدفن، كان الرئيس خلف أبو السيف هو أول من مسح دموعهوألقى باقة ورد بيضاء في القبر الذي كان يضم جثمان الوزير.

١٣

كان من عادة الرئيس خلف أبو السيف إحياء حفلات، يدعو لها أصدقاءه، تغني وترقص فيها مغنيات وراقصات غجريات بانتظام. كانت الحفلة تقام بأسم مناسبة معينة. وإذا حصل أن غابت المناسبة، فكان ينبغي إيجاد مناسبة موهومة مثل يوم عيد ميلاد فلانه أو نجاح أحد الأبناء بدرجة جيد جدا. وكان من عادته أيضاً، دعوة فتاة مختارة من قبل زبانيته حسب ذوقه ومواصفاته على أن تكون من عائلة أو عشيرة معروفة. كان الإنتقاء يجري بصورة سرية جداً. وكان آمن مكان للعثور على فتاة بتلك المواصفات هو المدرسة أو المعهد. وكان أغلب الفتيات اللواتي يقعن في الفخ هن الفتيات الباحثات عن المغامرة والمال أو ممن لهن هواية الأدب وكتابة الشعر والرسم. وإذا وقع الأختيار على فتاة أبت الإنقياد لأوامر الزبانية، فإنها ترغم على الخضوع بمختلف الوسائل. وهي تعرف مقدماً أن الرفض لا جدوى منه أبداً. وكان معظم الفتيات يركضن وراء أمل موهوم، يرسمنه لأنفسهن ولا سيما المقتنعات بجمالهن الصارخ. ويأملن بأن الرئيس سيقع في غرامهن.

كان الرئيس خلف أبو السيف يتعارف مع الفتاة المختارة لأول مرة في الحفلة الغجرية، فإذا أعجبته، يدعوها إلى بيته المخصص لهذا الغرض، حيث

يتناول معها طعامه المفضل التمر واللبن ويبدأ بالتحدث عن بحثه الدائم عن حب أصيل يهيمن على عواطفه بكاملها. وإنه إن وقع في غرام إحداهن، سيتقدم لطلب الزواج منها. كان يتهيأ لمضاجعتها في كل الأحوال، ولكن دون أن يتهافت عليها. وويل للفتاة إن امتنعت عن ذلك، حيث يعريها ويبدأ بضربها بالسوط على ظهرها ومؤخرتها. ويظل لا يكف عن ضربها إلى أن تتوسل إليه أن يكف عن الضرب ويبدأ بالمضاجعة. آنذاك يطلب منها أن تتعرى وتستلقي على ظهرها وترفع ساقيها وتداعب فرجها.

ذات مرة نقلت إليه زبانيته خبراً مفاده أن هناك مسابقة شعرية تقوم بها مجموعة من الفتيات الجميلات في أحد النوادي، ينتمين إلى عوائل ارستقراطية والجمهور نسائي فقط. أقترحت عليه زبانيته أن يحضر الحفل ويختار الفتاة التي تعجبه بنفسه. أثلج الإقتراح قلبه، ولكنه أبدى إعتراضاً شكلياً يكبح تهافته:

"تريدون تورطوني؟"

قال كبيرهم:

"سيدي الرئيس، سيعجبك الوضع جداً. إشارة واحده منك سينتهي كل شيء. وسوف تنسى مع هذه المحروسة كل هموم العمل. إنها تنتمي إلى عشيرة القمر وهي في الوقت نفسه قمر العشيرة وشمسها"

"هكذا إذاً، لنجرب قمر العشيرة. هل هي أيضاً شاعرة؟"

"نعم، سيدي الرئيس بدليل أنها مشتركة في المسابقة الشعرية. ويقال أن هناك إحتمالاً كبيراً بفوزها للجائزة الأولى"

سأل الرئيس بجد ما إذا كان ثمة جوائز نقدية للفائزين، أجاب رئيس الزبانية، أنها مجرد جوائز معنوية بلا فلوس. قال الرئيس بإنطلاق:

"إذاً سنأخذ معنا حقيبة مليانه فلوس حتى نونّس فتياتنا الجميلات"

عندما امتلأت القاعة من الجمهور النسائي وجرت محاولة من أجل غلق

الباب الرئيس، ظهر فجأة عدة رجال بملابس عسكرية متوجهين إلى مجموعة من النساء، يطلبون إليهنفسح المجال أمام منتسبي حماية الرئيس الذي جاء خصيصاً لمشاهدة مسابقة أحسن شاعرة. أمرت المشرفة على شؤون المهرجان بإخلاء الجالسات في الخط الأمامي لأماكنهن كي يتسنى للسيد الرئيس وأفراد حمايته من إتخاذ أماكنهم. رحبت عريفة الحفل بمبادرة السيد الرئيس الذي تجشم عناء المساهمة في هذا المهرجان الشعري الذي له الشرف، كل الشرف بحضور سيد البلاد. وإن دلت هذه الزيارة على شيء، إنما على مدى إلتصاق القائد البار بأبناء شعبه المخلص وإهتمامه بالثقافة والأدب.

تمكن الرئيس، نتيجة للهمسات التي كان يقوم بها عضو الحماية الأول أن يرى قمر العشيرة بشكل واضح، حيث كانت قد أتخذت مكانها على المنصة مع مجموعة من الشاعرات المساهمات في المسابقة.

كانت قمر العشيرة قد سمعت وقرأت الكثير حول الرئيس، دون أن تشاهده في الواقع. كانت متأثرة به كرجل. وأما كسياسي، فلم تهتم بهذا الجانب. كانت تتمنى بل تحلم أن تلتقي به وتلمس يداها يديه.

ها هو الرئيس يجلس قبالتها على بعد خطوات منها. إنه هو هو بلحمه ودمه. عيناه مشدودتان إلى عينيهاوهو يكاد يلتهمها. أحست أن وحيها يريد إلغاء القصيدة الجاهزة للمشاركة في المسابقة، كي تحل محلها قصيدة جديدة في طريق الولادة. وأن القصيدة الجديدة تتدفق بقوة كشلال هادر، يجتاز النتوءات الصخرية، قاذفاً الرذاذ المتطاير لمسافات طوال. وراحت تمسك بالأفكار الهائمة والكلمات المتطايرة لتسبكها في قلادة ذهبية تضعها في عنق رئيسها الجميل.

وبدأت القراءات الشعرية.

أرادت أن تكون في آخر القائمة. وحين جاء دورها أنشدت بصوت رقيق متناغم، يجري مثل ينبوع رقراق:

يا سيدي

وأميري الجميل.

يا سليل حمورابي.

يا وردة أزلية

منحته حدائق بابل المعلقة

لسومر وأكد.

ولبابل وآشور.

يا راعي الحضارات

المتجول.

يا مَلَك الحب،

مدّ يدك الرحيمة

وضعها فوق قلبي

الجريح

حيث يلتئم جرح

ألف عام.

آنذاك

أعود زنبقة حمراء

تدثرني

بيديك

أنا الحمامة التائهة

في رحاب الحب،

أنا المتشردة

في الطرقات

والدروب المجهولة

أبحث عن الدفء

فلا أجده.

امنحني قليلاً منه،

أعطيك

أصغَرَيّ.

تصفيق حاد هز القاعة لمدة خمس دقائق.

همس الرئيس في أذن كبير مرافقيه الجالس على يمينه:

"هذه لقطة يا أبا الشباب. أين عثرتم على هذا الجمال القاتل؟ أين؟ أنا لم أعد أتحمل نظراتها القاتلة"

"سيدي، قريباً سنترك هذا المكان. قررت اللجنة التحكيمية أن تحسم أنت صاحبة الفائزة بالجائزة الأولى"

أجاب الرئيس خلف أبو السيف بإغتباط ومرح:

"وهل هناك من تنافس قمر العشيرة؟"

كان كبير المرافقين يتنقل بين الرئيس والهيئة التحكيمية التي تنتظر جواب الرئيس. صعدت عريفة الحفل المنصة وبيدها المايكروفون. أطبق الصمت على القاعة. وراحت عريفة الحفل تتكلم بصوت جهوري:

"رئيسنا المحبوب وقائد شعبنا البطل،

سيداتي وسادتي:

هل هناك من تنافس قمر العشيرة؟ (تصفيق حاد يهز القاعة لمدة خمس دقائق)

كلا أبداً.

فلتفتخر العشيرة بابنتها البارة"

في الوقت الذي ترك فيه الرئيس الباب الرئيسة مع حمايته، كان رئيس المرافقين يرافق قمر العشيرة عند إجتياز الباب الخلفية لإتخاذ الإجراءات الضرورية لتسليم الجائزة الأولى التي قدرها خمسة آلاف دولار في مكان ما.

بعد نحو نصف الساعة وصلوا ذلك المكان. والمكان عبارة عن قصر منيف مبني على جزيرة في وسط النهر، لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة نقل نهرية. كان الرئيس قد فقد صبره، يريد اللقاء بصاحبته قمر العشيرة في أسرع وقت ممكن، بيد أن هذه أصرت أن تخبر أهلها بأنها ستبقى هذه الليلة عند صديقتها. كان يرافقها كبير مرافقي الرئيس. ورغم إلحاحاته بالإسراع فإنها كانت تتعمد التأخير ونصحها أن لا تتصرف مع الرئيس على هذه الشاكلة. قالت أنها لم تتصنع أي شيء، بل أن تصرفها هو هكذا ينبغي على المقابل أن يتحمله، وقالت بصراحة غريبة:

"إن الرئيس إذا تعرى أمامي، أو إذا تعريت أنا أمامه، فإنه آنذاك سيفقد صفته الرسمية، حيث تتحكم فينا قواعد الحب وسلوكه"

سكت المرافق ولم يشأ أن يعلق. ووجد أن مجمل القضية خارج إرادته وأن بقية التصرف ليس من شأنه، بل من شأنهما هما وحدهما. وأما واجبه هو فعبارة عن إيصالها إليه بسلامة. وإرجاعها في الوقت المحدد إلى حيث تشاء.

وأخيراً تنفس الرئيس الصعداء. وكانت مائدة العشاء قد أعدت حين بزغت الآنسة قمر العشيرة وهي تتهادى في مشيتها. أخذ الرئيس بيدها وأجلسها على الكرسي المجاور لمقعده بشكل آمر. ولما أنتبهت بأنهما وحدهما، قامت من مكانها قائلة:

"سيدي الرئيس، يعجبني أن أتخذ مكاني هنا على هذا الكرسي قبالتك، كي أراك ملء عيني وأتمتع بجمالك"

قال مداعباً:

"وإذا لم أوافق؟"

قالت بدلال:

"هذا بيتك، تتصرف فيه كما تشاء يا سيدي. كان ذلك مجرد إقتراح"

أرادت أن تقوم من مكانها إلى محلها الأول، بيد أن الرئيس طلب منها بلطف أن تبقى حيث هي، قائلاً بمزاح:

"تمتعي إذاً بوجهي القبيح"

قالت بلهجة إحتجاج:

"أستغفر الله يا سيدي، أنت أجمل الرجال"

تناول الرئيس جرعة من الويسكي البارد، أعقبها بتمرة وعدة ملاعق لبن ثم سألها ما إذا كانت تشرب نوعاً معيناً من المشروب. قالت أنها تفضل الشراب الفرنسي الأحمر وستشربه من أجل عينيه. قال بلهجة إحتجاج:

"أنت هربت مني ونقضت ما جاء في قصيدتك. أنت تقولين:

أبحث عن الدفء

فلا أجده

أمنحني قليلاً منه

أعطيك أصغري.

فأين هذا من ذاك يا قمر العشيرة؟ تالي وياك. أنا لم آخذ منك حتى الآن ولو لمسة من أكبريك؟"

تفتحت أسارير وجهها مثل وردة محرومة من شعاع الشمس، وقالت:

"بحثت عن الدفء يا سيدي الرئيس فوجدته. ولكنني طلبت قليلاً منه. أخشى أن يغرقني دفئك الكبير، فيحرقني"

قال مداعباً:

"لا داعي للخوف. سنتصل بدائرة الإطفائية فوراً. وسيصلوننا خلال دقائق"

ضحكا بصوت عال. كان الخمر قد بدأ بالتسرب إلى أعصابهما التي كانت مستعدة للخدر. قامت من مكانها وتقدمت منه برجلين حافيتين وصدر مكشوف بنهدين مكتنزين. أتخذت مكانها في حضنه، معانقة إياه بساعديها. مرر راحته اليمنى على ساقيها ثم نزل باتجاه وسطها الذي يستره سروال داخلي أحمر قصير. هنا وضعت يدها برفق على يده تمنعه من الحركة قائلة بغنج:

"الطريق مسدود هذا اليوم يا سيدي، يجب أن تتحلى بالصبر"

قال بإصرار:

"وإن لم أتحل بالصبر؟"

قالت بلهجة المنتصرة:

"عليك إذاً أن تطعن في الدم"

"وهل هناك ما هو أحلى من الطعن في الدم؟"

قالت بوجه عليه علامات التقزز:

"ألا تتقزز نفسك من منظر الدم وهو يسيل من العضو التناسلي للمرأة ويلطخ كل شيء ولا سيما الملابس الداخلية؟"

أجاب باستغراب:

"أنا أتقزز من الدم؟ أنت أول إنسان يطرح علي مثل هذا السؤال. أنا أعشق الدم، تماماً مثل عشقي للسلطة"

"من حقك أن تعشق السلطة، ذلك أنها تليق بك وتستأهلها بكل جدارة، وأما أن يكون الإنسان عاشقاً للدم، فهذا لا أستسيغه"

"يا سيدتي يا قمر العشيرة والزمان، إن السلطة لا يمكن الحصول عليها من

دون أن يغمس الإنسان خبزه في الدم، ولا سيما دم العدو"

"ولكنه نجس يا سيدي الرئيس"

"هذا رأيك أنت، وأما رأيي أنا فيقول: إنه أطهر سائل يخرج من جسد الإنسان"

قالت بلهجة رجاء يحيطها هاجس من الخوف:

"سيدي الرئيس، هل يمكننا أن نختلف في نظرتنا إلى الأشياء؟ أم علي أن أوافقك على كل ما تراه أنت صحيحاً"

قال وقد أنطبعت علامات الحيرة على قسمات وجهه:

"نحن الآن لسنا جالسين في الهيئة الثورية العليا. أنت يمكنك أن تناديني هنا بأسمي الأول خلف. ويمكنك أن تعترضي على كل كلمة أنطقها، بيد أنني لا أتعهد بالالتزام بكلامك. وأنت أيضاً ليس من الضرورة أن تلتزمي بكلامي"

"استغفر الله يا سيدي الرئيس. إنني لن أناديك بأسمك الأول أبداً. ولن أعترض على أي كلمة تقولها، بل أعتبر تحقيقها لزاماً عليّ"

قال بإرتياح:

"تربيتك البيتية راقية يا قمر العشيرة، إنني فخور بك. وعلى فكرة إنني أريدك عشيقة مخلصة وبالإضافة لذلك أحتاجك كسفيرة متجولة في السلك الخارجي. أريد منك تقارير منتظمة عن تصرفات السفراء وبطاناتهم"

من شدة فرحها لم تتمكن من التغلب على دموعها التي سالت على وجنتيها. كانت لا تزال في حضنه. مسح دموعها وهو يقول بصوت خافت:

"هل يمكنني الآن يا قمر العشيرة أن أطعن في الدم؟"

"سمعاً وطاعة يا مولاي"

١٤

مع إستلام السلطة من قبل خلف أبو السيف الذي راح يعدم الناس بشكل عشوائي وبدون أي سبب يذكر، انتشرت الفوضى في كل مكان من البلد. ودفع التذمر وإرتفاع مستوى المعيشة إلى ظهور عصابات قامت بأعمال النهب والسلب ليس في الليالي المظلمة فحسب، بل في واضحة النهار. المعلمون وأساتذة الجامعات، راحوا يشتغلون بعد الدوام الرسمي كسواق تاكسي وباعة مخضرات ومنظفي الحدائق العامة والخاصة. وروجت وأزدهرت تجارة شراء الأسئلة الإمتحانية وبيعها، الأمر الذي أدى إلى تدني المستوى الدراسي في كل المراحل. هذا من جانب وأما الجانب الآخر بدأت قوى جديدة مثقفة بالظهور بكل جرأة من أجل حماية المكتسبات التي تحققت في العهد الجديد، والتي هي في الواقع ليست مكتسبات جديرة بالذكر. ونتيجة لتصاعد الأزمات الداخلية وتشابكها مع الأزمات الخارجية التي تحتاج إلى حلول سريعة وتفاوت النظر في معالجتها، جرى إنقسام شديد في الآراء وطريقة الحل. وكان أن أنشق التنظيم السري الواحد على نفسه. ووجد نفسه أمام هيئتين قياديتين، تعملان في السر من أجل الهيمنة على التنظيم.

كان بعض القياديين في الهيئة الثورية العليا يروى أن المهمات الواقعة على عاتق الحكومة الجديدة أثقل بكثير مما تتحمله حكومة الحزب الواحد. ويؤكد آخرون بأن ما يسمى بـ (الهيئة الثورية العليا) التي يعتبر معظم أعضائها من أناس أميين ينحدرون من عصابات شرسة، حالة شاذة لا توجد في أي بلد آخر. وأفرزت هذه الوضعية فئة فاسدة تعيش على جباية الخاوات من أصحاب الحوانيت والمقاهي والمطاعم بحجة حمايتها من ضغط العصابات المختلفة. ومما زاد في الطين بله، وجود مشاكل أساسية، جرى التنبيه على ضرورة حلها، من قبل هيئة الأمم المتحدة. أهم المشاكل الملتهبة التي استرعت إنتباه الأمم المتحدة التي تنتظر الإجابة، هي:

- مشكلة أقليم ميدستان. وضربه بالسلاح الكيمياوي.
- ماذا تعني الأنفال؟
- أسباب أغتيال وزير الخارجية.
- حقيقة إنتاج القوة النووية.
- شن الحرب على الجارة خراسان.
- إحتلال دويلة المرجان.
- ماذا يعني جيش تعداده مليون فرد.
- مشكلة النفط وأسعاره.
- حقوق الإنسان وحق الأمم في تقرير مصيرها.
- تعذيب المعارضين بمختلف الوسائل البربرية.

جرى بحث هذه النقاط بصورة أولية مع جميع سفراء دولة الرئيس خلف أبو السيف. إلتزم السفراء جانب الصمت ورغم ذلك أكدوا بأن بلدهم له برلمان منتخب بصورة شرعية. وأنهم يتمكنون من زيارة البلد ليروا الإزدهار بأعينهم وليس بعين الحاقدين الذين يريدون الإساءة إلى بلدهم. ومع ذلك، فإنهم سوف يرسلون الاتهامات المدونه إلى الوطن، وبالذات ليد فخامة رئيس الجمهورية كي يقوم باستعمال صلاحياته في مكافحة الإرهاب.

جواباً على هذا الموقف الديماكوكي المزيف الصادر من السفراء، إجتمع جمهور غفير في بعض البلدان الأوروبية وهم يوزعون بيانات مختلفة وكراريس مصورة عن الوضع العام في البلد. وشوهد عدد كبير من أزلام النظام العاملين في السفارات وهم يقومون بضرب المتظاهرين. وتمكن أفراد الشرطة من إلقاء القبض على عدد من هؤلاء الذين تم إطلاق سراحهم بكفالة مالية بعد إبراز جوازاتهم الدبلوماسية.

عندما سمع سفير الدولة العظمى خبر أغتيال الوزير الذي كان يترجم

للرئيس خلف أبو السيف، أراد أن يتأكد ما إذا كان القتيل هو نفسه، ولم يتأكد من صحة الخبر إلا بعد أن جلبوا له صورته، فتأكد أن القتيل هو المترجم. أوعز السفير إلى جميع العاملين في سفارته بجمع كل النشرات والإصدارات التي صدرت في يوم التضامن مع شعب دولة الرئيس خلف أبو السيف. ورفعها إليه في أسرع وقت ممكن. خلال أقل من ساعة وصلته كافة الإصدارات. وراح يفكر في إستذكار الحديث الذي جرى بينهما. وتذكر أنه كان حذراً جداً، في حين أن صاحبه خلف كان يطلق التصريحات كيفما يشاء. ورغم ذلك سحب السفير حقيبته الدبلوماسية وأخرج منها ملف (الشيخ خلف أبو السيف) وراح يدقق في الملاحظات التي سجلها بخط يده. وبعد أن قارن تصورات خلف حول مشكلات بلده مع النقاط المذكورة في بيان (منظمة حقوق الإنسان)، قال بصوت مرتفع:

"أبن الخنزير، أراد أن يضحك علي"

أخرج تلفونه النقال من حقيبته الدبلوماسية وأتصل بسفيرهم في دولة الرئيس خلف أبو السيف. بعد لحظات جاء صوت السفير من الطرف الآخر:

"نعم، هنا مكتب السفير"

"هنا صديقك من البلد المجاور"

"أهلاً وسهلاً، كيف الصحة؟"

"شكراً،على ما يرام وأنت؟ هل قرأت الوصايا العشر؟"

"إنها ليست بجديدة عليّ. قرأتها هذا اليوم أيضاً"

"هل هي صحيحة؟ أقصد هل هناك شيء من هذا القبيل؟ بالنسبة لنا ثمة تقتير وعدم شفافية في الأخبار"

"نعم صحيحة. ولكنها محصورة في زوايا معينة لا تصلها أنوفنا. نحن بحاجة إلى أستراتيج جديد"

"أشكرك، مع السلامة"

كان السفير قد سبق له أن سمع الكثير عن الأوضاع غير الطبيعية في بلد صاحبه الرئيس خلف أبو السيف، ولكنه كان يضع تلك التقديرات في باب المبالغات العاطفية كشأن أي بلد من بلدان الشرق الأوسط والعالم الثالث بشكل عام. هذا بالإضافة إلى التأكيدات التي كانت تأتيهم من مكتب العلاقات في وزارة الخارجية بعدم تصديق كل شيء. والتأني في نقل الأخبار، ذلك ان خبراً واحداً خاطئاً قد يكلف الدولة غالياً. أنكب السفير على المعلومات التي وصلته من الصحافة ومن مراكز المعاهد الأستراتيجية التي تهتم بالدرجة الأولى بدولة الرئيس خلف أبو السيف وسيرته الذاتية التي يقال أن لها ارتباطا أو كان لها علاقة بمكتب مركز المخابرات الأميركية. وإستنتج معظم الدراسات بأن هذا الشخص لا يمكن الإعتماد على كلامه وهو متأثر بكل من هتلر وستالين.

كان السفير على علاقة جيدة بصحافي معروف يعمل في صحيفة كبيرة واسعة الإنتشار، تصدر في الدولة العظمى، يقدم مقابلات شيقة ذات طابع فكاهي مع شخصيات كبيرة. أتصل به السفير بعد إطلاعه على التفاصيل المتعلقة بالنقاط العشر. وأقترح عليه أن يقوم بإجراء مقابلة صحفية مع الرئيس خلف أبو السيف رئيس جمهورية البترول. وتعهد أنه حال موافقته على الموضوع، سيرسل له رزمة من المعلومات الضرورية للمقابلة. رحب الصحفي بالفكرة قائلاً:

"إنه سفاح طريف، سيفضحه أمام الملأ، ولكنه يخشى أن لا يوافق على إجراء المقابلة. إنه يريد أن يتأكد من موافقته"

أجاب السفير من الطرف الثاني بأنه سيضمن له ذلك ولا داعي للقلق. تم الإتفاق على أن يزور الصحفي رئيس الجمهورية في بلده خلال أسبوع من تسلم الدعوة الرسمية. وأشترط الصحفي أن تكون المقابلة غير مشروطة. وأن

الصحفي حر في إلقاء أسئلته وأختيار مجالات تحركه. كما وإن لرئيس الجمهورية الحق في عدم الإجابة إن لم يعجبه السؤال. وافق الطرفان على الملاحظات المطروحة. وبدأت المقابلة في إحدى الغرف المخصصة لهذا الغرض في القصر الجمهوري.

١٥

الصحفي: شكراً جزيلاً لدعوتكم الكريمة ولموافقتكم على إجراء هذه المقابلة يا سيدي الرئيس. إن قراءنا ينتظرون المقابلة بلهفة.

رئيس الجمهورية: أشكركم لتلبيتكم دعوتنا ونرجو لكم إقامة طيبة بين ظهرانينا.

الصحفي: سيدي الرئيس، أمامي مجموعة من الأسئلة المتعلقة ببلدكم الذي له موقع استراتيجي مهم في المنطقة. هل تحبون الإجابة عليها كلها أم نترك بعضها؟

الرئيس: سنجيب عليها كلها إن شاء الله.

الصحفي: سأبدأ بسؤال حول الحكم الذاتي لمنطقة ميديستان التي لها قوميتها ولغتها وثقافتها الخاصة بها. كنتم قبل أعوام قد منحتهم الحكم الذاتي، الأمر الذي أدى إلى وقف القتال وإحلال السلم. ولكننا منذ مدة قصيرة لا نسمع شيئاً عن مصير هؤلاء وإذا وصلنا شيء فهو غير مفرح، يتطرق إلى استعمالكم للسلاح الكيمياوي ضد أناس عزل. هل ما زلتم تعترفون بحقوقهم أم ألقيت في عرض الحائط؟

الرئيس: في الحقيقة ألقينا بحقوقهم ليس في عرض الحائط فحسب، بل في طوله. وهم يستحقون ذلك، لأنهم كذبوا علينا. تبين أنهم ساميون من سلالة مرد أبن كورد. إنهم من ساميي الجبال. إننا لا نسمح بشق وحدة بلدنا. أنظروا إلى بريطانيا وأسبانيا وغيرهما كيف يستميتون في الدفاع عن وحدة بلادهم.

الصحفي: ولكنهم لم يطالبوا سوى بحقوقهم الأولية التي يستحقونها.

الرئيس: أنظر يا صديقي الصحفي. حقوق مقوق ماكو. إستحقاق مستحقاق ماكو أيضاً. كل هذه الترهات تضر بوحدة بلدنا التي هي فوق كل شيء.

الصحفي: ما علينا من أصل هؤلاء. لننظر إليهم كبشر لهم حقوقهم التي تقرها مبادئ حقوق الإنسان والأمم المتحدة. حكومتكم متهمة بمحاربة جميع أشكال المعارضة بالقمع الوحشي. وطبقاً لبيانات "مراقبة حقوق الإنسان" يعد النظام مسؤولاً على مدى ٣٥ سنة

من الدكتاتورية عن إختفاء ما يتراوح بين٢٥٠ و ٢٩٠ ألف شخص. ويحتمل أنهم قد قضي عليهم وأختفت جثثهم في المقابر الجماعية المجهولة. ما هو رأيكم تجاه هذا الإتهام.

الرئيس: هذا هو مصير من يحاول شق الوحدة الوطنية وأما بالنسبة للأرقام فهناك مبالغة. إنها لا تتجاوز الرقم ١٣٠ ألف في كل الأحوال.

الصحفي: ما معنى الأنفال وما الذي حدث تحت هذا الأسم؟

الرئيس: الأنفال سورة قرآنية كريمة، تبدأ كما يأتي: يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين. والأنفال تعني الغنائم التي تعود لله ورسوله.

الصحفي: التهمة الموجهة لكم هي أنكم هجرتم سكان ميدستان وسبيتهم وقتلتم منهم ١٨٠ ألف مواطنا وصادرتم ممتلكاتهم. أليست هذه إساءة صريحة لله ورسوله؟ هل الله ورسوله بحاجة إلى الغنائم؟

الرئيس: يا أخي الصحفي، هذه دعاية إستعمارية بنكهة شيوعية. أتحدى هؤلاء الذين يتهموننا أن يدلونا على قبر واحد لهؤلاء. إن كل ذنبنا هو إننا بنينا لهم قرى عصرية وأنقذناهم من قراهم المتخلفة، ولكنهم يرفضون السكن في البيوت المتحضرة. إنهم مثل الغجر، يكرهون كل شيء له علاقة بالحضارة.

ولا يمكن التفاهم معهم أبداً.

الصحفي: لماذا أعلنتم الحرب على جارتكم خراسان؟

الرئيس: الحديث حول عدونا التاريخي، الذي يعتبره جنابكم جارنا، ذو شجون. لقد تحملناهم أكثر من طاقتنا. وكنا نعتقد إننا سنفتح معهم صفحة جديدة، بيد أنهم أثبتوا للعالم أنهم مجوس أقحاح لا فائدة من ورائهم. ولما كانوا يقطعون المياه من أنهارنا ويسرقون نفطنا بواسطة الأنابيب المائلة ويتلاعبون بحدودنا الجغرافية التي ثبتت منذ تأسيس دولتنا، أقول إننا لم نعد نتحمل ضغوطهم، فقررنا أن نلقنهم درساً في السياسة

فما هو في رأيكم شكل العمل مع هؤلاء. الرضوخ أم التحدي؟

الصحفي: إذا كان الأمر بيدي، لما دخلت الحرب، لأن الخروج منها أكبر مصيبة. متى تتوقف الحرب؟ وهل هناك أفق يؤشر لذلك يا سيادة الرئيس؟

الرئيس: القيادة الحكيمة هي الأفق. إننا جئنا كي نبقى ونصنع التاريخ كما صنعه أجدادنا الأبطال في معركة القادسية، حيث ارتفعت راية الإسلام وأنتهى عهد المجوس إلى الأبد.

الصحفي: قبل فترة تم أغتيال وزير خارجيتكم في ظروف غامضة، دون أن تعثروا على القاتل. والمتابع لأوضاع بلدكم يجد أنه لا يمر يوم دون أن تحدث عملية إرهابية. يا ترى ماهي الأسباب؟ ومتى سيتوقف هذا المسلسل الإجرامي؟

الرئيس: هناك مثل قاله الزعيم الهندي مهاتما غاندي وهو، إذا تشاجرت سمكتان في النهر فالسبب هو الإنكليز. إن الإستعمار يقف وراء كل عملية إرهابية مهما كان حجمها. إنهم بذلك يريدون عرقلة بناء المشاريع الهائلة التي نريد إقامتها في بلدنا.

الصحفي: هل تقصدون بالمشاريع الهائلة، مشروع الإنتاج النووي أيضاً؟

الرئيس: طبعاً.

الصحفي: للأغراض السلمية أم العسكرية؟

الرئيس: حالياً للأغراض السلمية.

الصحفي: ولكن يقال أنكم تملكون السلاح النووي.

الرئيس: لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

الصحفي: ما هي أسباب إحتلالكم لدولة المرجان؟

الرئيس: كانت دويلة المرجان جزءاً من وطننا قبل تشكيل دولتنا، أي منذ العهد العثماني. إننا في الحقيقة لم نحتل هذه الدويلة، بل قمنا بتصحيح الخارطة التي رسمها الانكليز والفرنسيون.

الصحفي: هل يمكنكم أن تتصوروا شكل العالم يا سيادة الرئيس لو قامت كل دولة بتصحيح خارطتها؟

الرئيس: ستحصل مشكلات هنا وهناك، ولكن مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها أعلى بكثير من هذه المشكلات.

الصحفي: يقال أن تعداد الجيش في بلدكم قد بلغ مليون شخص. هل هذا صحيح؟

الرئيس: نعم.

الصحفي: ما هو هدفكم من بناء مثل هذا الجيش الضخم؟ هل تنوون تحقيق الوحدة العربية بالقوة؟ أو كما فعل بسمارك بالنار والحديد؟

الرئيس: يبدو أن ما لا تستطيع تحقيقه بلسانك، يمكنك تحقيقه بقبضتك.

الصحفي: بلدكم غني بالنفط الذي يعتبر سلعة نادرة خاضعة لمقاييس وأسعار دولية معينة لا يجوز التلاعب بها أو تحويلها إلى سلاح سياسي أو إيديولوجي لصالح هذا وضد ذاك. يفيد بعض التقارير الواردة من المراكز النفطية أنكم لا تلتزمون بتلك القواعد. هل هذا صحيح؟

الرئيس: إن نفطنا هو ملك شعبنا. يتصرف به الشعب كما يشاء ثم أننا دولة مستقلة نتصرف بثرواتنا كما نشاء، دون الإلتزام بالأوامر القادمة من الخارج.

الصحفي: شاه ايران تكلم في حينه أيضاً بهذا الإتجاه. وكان أن حصل ما حصل.

الرئيس: أنا لست شاه إيران.

الصحفي: بالتأكيد، ذلك أن شاه إيران كان لا يملك ربع جيشكم.

الرئيس: ولذلك كان عليه أن يسكت. هناك مثل شعبي يقول مد رجلك بقدر اللحاف الذي يغطيك.

الصحفي: نعود مرة أخرى إلى مبادئ حقوق الإنسان والإتهامات الموجهة إلى سياستكم ونهجكم في التعامل مع المعارضة في داخل بلدكم وخارجه. وأسمحوا لي أن أكرر بعض المسائل لأهميتها.

يشار إليكم بأصابع الإتهام بأنكم مارستم وما زلتم تمارسون أعلى أشكال العنف ضد أبناء بلدكم. إن نظامكم فتاك في الداخل والخارج، يحارب جميع أشكال المعارضة بالقمع الوحشي. وطبقاً لبيانات "مراقبة حقوق الإنسان" يعد نظامكم مسؤولاً على مدى ٣٥ سنة من الدكتاتورية عن إختفاء ما يتراوح بين ٢٥٠ و ٢٩٠ ألف شخص ويحتمل أنهم قد قضي عليهم وأختفتجثثهم في المقابر الجماعية المجهولة. ووصل عدد ضحايا الأسلحة الكيمياوية في مجرد مدينة صغيرة واحدة ٣٢٠٠ شخص، موثقة أسماؤهم، بينما قيل إن العدد الحقيقي يتعدى الخمسة آلاف. وتعتبر هذه المذابح أفعال إبادة جماعية genocide، كما تعد أعمال القتل وتهجير الشعب عنوة وبشكل عشوائي والهجوم بالأسلحة الكيمياوية جرائم ضد الإنسانية. ما هو رأيكم حول هذه الإنتهاكات التي تطرقت إلى جزء يسير منها.

الرئيس: أنظر يا أخي الصحفي المحترم كيف تقلب الحقائق. إن الذي يسمع كلامكم، الذي هو في الواقع ليس كلامكم أنتم، بل كلام هؤلاء المرتزقة العاملين

في المنظمات الشيوعية اليتيمة، أقول إن من يسمع كلامكم، يعتقد أن نصف الشعب معارض، ولكن في الحقيقة إننا إذا نظرنا إلى واقع ما يسمى بالمعارضة، نجد أنها لا تملأ باصاً واحداً من باصات مصلحة نقل الركاب. ومن الجدير بالذكر أن جماعة الباص هؤلاء هم أنصاف مواطنين، يحملون جنسيات أجنبية أو بالأحرى مجوسية غير مؤهلين للقيام بأعمال المعارضة. إننا لا نخاف منهم والباب مفتوح على مصراعيه، يمكنهم أن يعودوا إلى الوطن للعمل كمعارضة.

الصحفي: شكراً جزيلاً يا سيادة الرئيس.

الرئيس: شكراً جزيلاً أيضاً.

١٦

في الصراع الذي أستغرق عدة سنوات بين كل من خلف أبو السيف ومرزوق العلواني، تمكن الأول من الإنتصار على قريبه وغريمه وإنهاء المعركة الخفية، التي كلفت أعداداً هائلة من الضحايا، بصمت، وجده الكثير من أتباعه وأعدائه، مريباً تكتنفه سلسلة من الدسائس والحيل، الأمر الذي وضعهم أمام سؤال كبير مفاده: ما هي القوى الخفية التي وقفت إلى جانب هذا الرجل الغامض. وتحول السؤال يوما بعد يوم إلى عقيدة راحت تتناسل وتتكاثرمن دون توقف، من إلتقاء زوجين مختلفين يعودان إلى نسل الملائكة والشياطين. وهكذا توزع أتباعه إلى نوعين متضادين تحولا إلى عضيدين يأخذان بيديه في أحلك الأوقات. بيد أن هذا كله لم يمنعه من التوصل إلى حقيقة راسخة تقف أمامه مثل جبل شامخ، أحس به منذ فترة غير قصيرة أو بالأحرى منذ أن بدأت تماثيله البدائية تنصب في كل محلة وزقاق. وتكمن هذه الحقيقة الراسخة التي اقتحمت حاسته السادسة في أن نجمه بدأ بالأفول والتوجه نحو الظلمات، بدليل أن أصواتاً مجهولة تأتيه من حواليه بكل وضوح، تقول له:

"انتبه يا خلف، إنك قد تجاوزت الخط الأحمر"

وعبثاً يحاول الإتصال بأصحاب تلك الأصوات لمعرفة المقصود بالخط الأحمر، بغية التوقف عن تجاوزه، ولكن يبدو له أنه ثمة خطوط حمراء كثيرة تجاوزت حدود معرفته. ذات يوم، وهو منصرف إلى خلوته في إحدى غرف قصره المطل على الصحراء، بانتظار الأصوات المجهولة، ظهر له شبح صديقه الذي رافقه كمترجم إلى زيارة سفير الدولة العظمى. آنذاك تذكر ما تعنيه عبارة (الخط الأحمر). وتذكر أيضاً الملاحظة المهمة التي أبداها السفير بضرورة عدم تجاوز الخط الأحمر، وإلا فإنه سيخسر صداقته وعليه أن يعرف بأنه لا صداقة بدون مصلحة. وفكر وهو ينظر مبهوتاً إلى الشبح ويسأله:

"يا ترى، هل يقصد بتجاوز الخط الأحمر مسألة قتلي لك؟"

قال الشبح وهو يختفي فجأة:

"فكر جيداً"

ولما أخفق العديد من المحاولات لإزاحته من الحياة، راح هو نفسه يؤمن بوجود قوة خارقة تقف وراءه دوماً وتحميه من دسائس أعدائه وراح يوحي لأتباعه بأنه على إتصال دائم بهذه الأرواح التي تحميه من غدر بني البشر. وفي جلساته الخاصة مع أتباعه يتطرق بإسهاب إلى هذا الموضوع، حيث يصنف هؤلاء إلى صنفين من الأرواح، يشكلان الملائكة والشياطين.

ولم يقف عند هذا الحد فحسب، بل راح يزرع في رؤوس حمايته بذور هذا الإعتقاد الذي أصبح جزءاً من حياتهم وصار، من حيث لا يدرون، لزاماً عليهم، التحدث عنه ونشره في كل مكان يحلون فيه. ومن الأمور التي لم يطلع عليها أقرب المقربين إليه والتي خص بها أفراد حمايته فقط، هي لقاءه المستمر مع أرواح الملوك الأسلاف حمورابي ونبوخذ نصر وآشور بانيبال. يدعي بأن الأول سلمه قوانينه وشرائعه، والثاني علمه نظام الإدارة وبناء المدن والثالث علمه فنون الحرب والقتال. وأكد له الملوك الثلاثة أن يكون عنيفاً ودموياً، ذلك

أن العنف يدخل في تركيب الإنسان في بلادهم ويشكل شرطاً من شروط القيادة الحكيمة.

قالوا له، في غيبة من غيبوباته الجديدة كنصيحة أبوية من الأسلاف، إن الفلسفة التي استندت إليها تشريعات حمورابي تبلورت في تكريس الحق الإلهي المطلق الممنوح من الآلهة إلى الملك ليحكم بموجبه المجتمع البابلي، فهو الوسيط بين الآلهة والشعب، أو بين السماء والأرض، فهو مرة أبن السماء ومرة أخرى أبن الأرض. وبهذا كرس العلاقة العضوية بين الأطراف الثلاثة: الآلهة والحاكم والمجتمع.

عبر هذا التكريس للعلاقة بالآلهة سعى الحاكم إلى فرض قوانينه وأوامره على المجتمع وعزز معها سلطة الحاكم أزاء المعبد والكهنة والمجتمع. وعلى الرعية كلها أن تعبر عن حبها له وإحترامها لشريعته وإلتزامها بتنفيذ بنودها وإطاعة أوامره في الحرب والسلم.

وهناك مجموعة جديدة من العقوبات ترقى إلى مستوى التعذيب الجسدي والنفسي والإهانة المباشرة والموجعة لكرامة الإنسان. فهي إلى جانب أحكام الموت بطرق جديدة غير معهودة في القوانين السابقة، ولم تعرفها مجتمعات ودويلات المدن السابقة أو حتى الدولة المركزية التي أقيمت في فترة السومريين والأكديين قبل ذلك، تتضمن ولأول مرة عقوبات التعذيب بحق الإنسان وعقوبات القصاص المماثل للمخالفة التي وقعت من شخص على آخر، سواء أكان ذلك بالنسبة للمخالفات العائلية والإجتماعية والسياسية المختلفة. فهي تشمل عقوبة القتل والإجلاس على القازوق حتى الموت، وعقوبة الحرق بالقاء المعاقب في النار، أو عقوبة القتل وحشره بالصدع الذي أحدثه في المنزل وسده عليه، أو قتل المخالف وتعليقه على باب بيته، والرمي في النهر، والدمغ بميسم الإماء أو العبودية وعقوبة قلع العينين وقطع اللسان وقطع ثدي المرأة وجدع الأنف وقطع صيوانالأذن وقطع اليد والجلد وكسر العظم أو السن وقص نصف شعر

الرأس. وفرض القيام بأعمال السخرة في أملاك الملك، إضافة إلى تطبيق مبدأ القصاص، أي "العين بالعين والسن بالسن". وبعد أن يسهب في ذكر السلطات التي منحها له الملوك الأسلاف، يقول بصوت عال:

"هل سبق لكم أن وجدتم قتيلاً من أفرد حمايتي؟ بل هل أصيب واحد منكم بجرح طفيف؟ كلا، أبداً"

ثم يسكت ويطبق الصمت عليهم لفترة غير قصيرة، يغمض خلالها عينيه، وحين يفتحهما، يقول بصوت هادئ:

"يكفي أن أغمض عيني لمدة خمس دقائق، آنذاك يأتيني الخبر اليقين. ويأتيني الجواب القاطع:

"خلف، كن حذراً هذا اليوم، لا تترك بيتك" أو:

"لا تبتعد عن مقرك أكثر من خمسة كيلو مترات"

ويأتيه أحيناً يوم سعيد، كله فرح وإغتباط يبشر به الملائكة والشياطين. يتحرك فيه كما يشاء ويوقع البروتوكولات والوثائق المهمة والمعاهدات التي تراكمت تنتظر يوماً كهذا. ويأمر بنحر الذبائح وتقديم الطعام للفقراء والمعوزين. ومن الأسرار التي يعرف بها بعض المقربين إليه، الواجبات الموزعة بين الملائكة والشياطين، فالأولون يقومون بدور الحماية، حيث ينشرون أجنحتهم ويشكلون حوله طوقاً لا يخترقه أعتى الصواريخ وأما الثانيون، فلهم وظيفة هجومية مهمتها الإبادة والقتل الجماعي. وهكذا يتحد الخير والشر من أجل إيجاد حاجز فولاذي مهمته الحفاظ على حياة خلف أبو السيف كي يتمكن من مواصلة سيره الذي بدأ به قبل أعوام طوال.

لخص فلسفة العنف عند الملوك الثلاثة بعبارة (سياسة الرعب الدائم) وطبقها بكل صرامة داخل (التنظيم السري). إن مزايا سياسة الرعب الدائم لا تقدر بثمن، إذ أنها تشكل حجر الزاوية في بناء كيان التنظيم السري على أسس فولاذية تصب المنظمة كلها في بوتقة واحدة. ومن هنا يجري العمل المنظم من

أجل خلق إنسان إشتراكي قومي لا يعرف معنى حرف (لا)، بل أن قاموسه يحتوي على كلمة (نعم) خلاقة، يردده الرفيق حين يأتيه الأمر من الأعلى. أما حرف (لا)، فينطق به الرفيق حين يأتيه الأمر من كتيبة عدوة.

"من ليس معنا، فهو عدونا" وهذا يعني إن من ليس عضواً عاملاً في (التنظيم السري) فهو عدونا مهما أبدى من الإخلاص و الأمانه، وإلا لماذا يمتنع عن الدخول في صفوفنا؟ إنه إستعلاء في غير محله.

"عزل الرفيق عن عالمه الخارجي الملوث" وهذا يعني أن إختلاط الرفيق بالعناصر غير المنتمية، يسيء إلى سمعته. عليه أن يعلم بأن غير المنتمي إلى صفوفنا، هو عدونا. ولذلك يجب أن يبرر رفيقنا سبب تواجده بين الأعداء، مثلاً كسب أحدهم لصفوفنا. ويجب أن تتم هذه العملية تحت إشراف أحد المسؤولين من فوق.

"القائد الأوحد هو رمز وحدة التنظيم". إن من ينتقد (التنظيم السري)، ينتقد القائد الأوحد. وإن من ينتقد القائد الأوحد، ينتقد التنظيم السري.

القائد الأوحد يعني التنظيم السري والتنظيم السري يعني القائد الأوحد. التنظيم والقائد توأم.

اجتمع الدكتاتور خلف أبو السيف كعادته ذات يوم بكبار مستشاريه وطلب منهم أن يبتكروا طريقة جديدة لم يسبق لأحد أن جربها من قبل، وذلك في كتابة سيرته الذاتية منذ ولادته حتى لحظة اجتماعه بهم. وبعد أن شرح لهم الهدف من ذلك، طلب منهم أن يبدأوا بالمناقشة الحرة بمنتهى الديمقراطية.

قال المستشار الأول بسرعة كما لو أنه يخشى أن يسبقه الآخرون في ذكر فكرته:

"سنكتبها يا سيدي بالذهب الخالص"

قال الدكتاتور بامتعاض ودون أن ينظر إليه:

"اسكت"

قال المستشار الثاني:

"سنكتبها بحبات اللؤلؤ يا سيدي، فهي أغلى الأحجار الكريمة"

قال الدكتاتور بنفس اللهجة:

"اسكت"

قال المستشار الثالث مبتهجا:

"سنكتبها برحيق أجمل الأزهار في العالم يا سيدي"

قال الدكتاتور باحتقار:

"أنت آخر من يحق له الحديث عن الأزهار يا نتن، اسكت"

كان المستشار الرابع هو آخر من بقي. وكان من عادته أن لا يتكلم إلا بعد أن يتأكد من أن الجميع قد انتهى من كلامه. كان يعصر رأسه بيسراه بقوة، مفكرا في الجواب الذي يلائم ذوق ومزاج سيده.

قال الدكتاتور ملتفتا بكبرياء إلى المستشار الرابع:

"لقد سمعنا آراء العباقرة الثلاثة. بقي أن نسمع رأي جنابك. فإذا كان رأيك خرائيا مثلهم، فمن الخير أن تسكت"

قال المستشار الرابع بلهجة الواثق من نفسه:

"أعتقد يا سيدي أن اقتراحي سيكون موضع إعجابكم. إن سيرتكم الذاتية الغالية علينا لا تقدر بثمن، ولذلك فأنا لا أنظر إليها بعين التاجر الذي يمسك بالميزان ويزن الأشياء بالذهب أو الجواهر أو العطور. إن سيرتكم الذاتية أغلى بكثير من هذه الأشياء التافهة والزائلة. إننا سنكتب سيرتكم الذاتية يا سيدي بالدم، لنضعك في مقدمة أبطال التاريخ. سنأخذ قطرة واحدة من كل مقاتل سقط في المعركة. وهكذا نأخذ أكثر من خمسين ألف قطرة دم، نكتب بها سيرتكم الذاتية، فنخلدهم كلهم من خلالكم كما ونخلد أعظم معركة حدثت في

التاريخ من خلال سيرتكم الذاتية. إذا كان هذا الاقتراح لا يعجبكم يا سيدي فهذا هو رأسي أمامكم، اقطعوه. وإنه لشرف عظيم لي فيما بعد، إذا أضفتم قطرة من دمي إلى تلك المحبرة"

انطبعت ابتسامة صفراء على وجه الدكتاتور وقال بارتياح ممزوج بعجرفة:

"كلا. إن رأسك سيبقى منتصبا، لأنه رأس يفكر. وإنك ستبقى المستشار الوحيد في هذا المجال. أما الثلاثة الآخرون فلا بأس أن نمجدهم بأخذ قطرة واحدة من جثة كل واحد منهم".

تمت كتابة السيرة الذاتية للدكتاتور بالطريقة التي أرادها هو. وكان يعتقد أن الهموم التي تعصر قلبه ستزول وتحل محلها سعادة أزلية ترفعه إلى أعالي النجوم. كان يختلي إلى نفسه ويعيد آلاف الكلمات المكتوبة بالدم على ألواح ذهبية، فيرى أمامه آلاف الجماجم والهياكل العظمية والأطراف المقطوعة والجثث المشوهة. كانت الصورة تعجبه وتشيع في نفسه نشوة لذيذة تخدره، فيحس بالراحة التامة، بيد أن خوفا جنونيا لم يعرف سببه بدأ يحيط بقلبه ويفقده صوابه. وعبثا كان يحاول التخلص من هذا الخوف.

وعندما استشار بعض أطبائه الأخصائيين حول وضعه النفسي، عقّدوه أكثر، فأرسل في طلب منجمه الخاص. وحين امتثل أمامه قال:

"أنظر، يا صديقي المنجم لا تحاول أن تخفي على الحقيقة، وإلا قطعت رأسك. إني أرى مستقبلي بأم عيني، ولذلك يجب أن تصارحني بكل شيء"

"نعم يا سيدي سأصارحك بكل شيء"

قلب المنجم أوراق الكتاب القديم بيده المرتجفة، ونظر في خطوط كفي الدكتاتور، واستمع إلى نماذج من أحلامه المرعبة، ثم قال:

"يا سيدي، لا أجرؤ على قول الحقيقة، أخشى أن تتأثروا بذلك"

اصطنع الدكتاتور ابتسامة صفراء وقال:

"لا تخف، صارحني بكل شيء"

"سيدي، الأعمار بيد الله والغيب لا يعرفه سواه ومع ذلكأرى أمامي جداول الدم يا سيدي، أرى الموتى ينهضون من قبورهم ويسيرون فوق بركان ضخم لم ينفجر بعد. نجمكم يا سيدي يتوغل في ظلام دامس، أكاد لا أراه"

نظر إليه الدكتاتور بجد وقال بلهجة استعطاف لم يعهدها المنجم من قبل:

"أستنتج من كلام جنابك أنني سأموت قريبا، ولكن كيف سيكون الأمر إذا تركت هذا البلد إلى مكان بعيد؟"

قال المنجم وهو يرتعد من الخوف:

"هناك شبح يا سيدي يلاحقك دوما، والمشكلة أنه في كل مكان. إنه مثل الروح الهائمة. لا تقتله الرصاصة ولا يخرقه السهم ولا تمسكه اليد"

وفكر الدكتاتور في اثنين من أمثاله ممن خطفهم هذا الشبح. وتنهد بعمق قائلا وهو يؤشر له بالانصراف:

"كذب المنجمون وإن صدقوا"

ولم يصدق المنجم أنه خرج من الغرفة سالما.

١٧

القادسية،

الأنفال،

جيش المليون جندي،

إحتلال دويلة المرجان،

حرب خراسان،

النفط سلاحنا في المعركة،

حرب الإبادة ضد شعب ميدستان،

حرب الإبادة ضد شيعة علي،

التعذيب البربري ضد المعارضة...

كل هذه الإجراءات لم تتمكن من إيقاف زحف نجم الدكتاتور خلف أبو السيف من التوغل أكثر فأكثر في الظلمات اللانهائية. إنها بداية النهاية التي سجلها سفير الدولة العظمى كتجاوز للخط الأحمر الذي تم الإتفاق على أن لا يتجاوزها الرئيس خلف أبو السيف. آنذاك تذكر عبارة (الخط الأحمر) وما تعنيه. وتذكر سفرته الفجائية إلى سفير الدولة العظمى، تلك الزيارة القصيرة والمهمة التي كاد أن ينساها. وكيف ينسى الإنسان مثل هذه الزيارة المصيرية التي بادر هو بتحقيقها. وأحس بأن الشيخوخة قد أدركته. وتذكر قصة أخرى، كاد ينساها هي الأخرى، نقلها له بأمانة أحد وزرائه.

كان الوزير في زيارة رسمية إلى إحدى الدول الأوربية. كان جالساً في مقهى الفندق الذي حل فيه، يشرب قهوته في الصالة الفارغة، وعلى غير عادة الأوروبي، جاء رجل أنيق وسأله ما إذا يسمح له بالجلوس بالقرب منه. قال الوزير وهو يقلب أوراق جريدته ويسترق النظر إلى صاحبه:

"تفضل أجلس. المكان ليس ملك أبي"

وسرعان ما بدأا بالحديث، حيث عرّف كل واحد منهما نفسه بالآخر. وعندما عرف الأوروبي بلد صاحبه، قال له بصوت خافت:

"هل تعرف أن رئيس بلدك الدكتاتور خلف مرشح للموت المحقق؟"

قال الوزير باسغراب وفضول:

"مرشح للموت المحقق؟"

أجاب الأوروبي بلهجة واثقة:

"نعم، الموت المحقق. إن الدولة العظمى حين تصدر قراراً من هذا النوع، فإنها ستنفذه، إن عاجلاً أم آجلاً"

"ولكن، لماذا؟ إن للدولة العظمى أعـداء أشـد خطراً من الرئيس خلف أبو السيف"

قال الأوروبي بلهجة صارمة:

"إن اليانكيين يعرفون مصالحهم أحسن مني ومنك. إنهم غاضبون عليه، لأنه ضحك على ذقونهم في مسألة الملف النووي. وأما بالنسبة إلى البترول، فحدث ولا حرج. إنه يبيع برميل البترول للمعسكر الإشتراكي بثلاثة دولارات فقط. أليس هذا تحدياً واضحاً للدولة العظمى وإهانة لهيبتها العالمية؟"

سكت الوزير وطال سكوته. ولما كـان الأوروبي، ينتظر منه مـواصلة الكلام، علق الوزير بهدوء وهو ينهي الحديث:

"ليس لدي ما أضيفه ولا أستطيع إبداء رأيي في هذا الموضوع"

كان الوزير منذ عودته إلى الوطن يفكر في مسألة واحدة فقط وهي: هل يحتفظ بهذه الحكاية لنفسه فقط؟ أم ينقلها بحذافيرها إلى رئيسه؟. وكان يعرف جيداً أن مثل هذه الأشياء يجب أن تنقل إليه مباشرة وأنها أمر يجب أن يلتزم به كل رفيق في التنظيم السري، وإلا فإن العاقبة شديدة ولا رحمة فيها..

حال وصوله إلى البيت، كتب الوزير رسالة قصيرة موجهة إلى الرئيس خلف أبو السيف، يطلب فيها منه أن يكون حذراً في تنقلاته ويرجوه أن يحدد له موعداً للقاء به لمسألة مهمة جداً. تسلم الرئيس الرسالة وراح يتابع النجوم المتلألئة في ظلام الليل العميقوهو يتذكر كلام العراف الذي شم منه رائحة الموت. وحين عرف أن وزيره كان في الخارج لمهمة رسمية، خمن أن المسألة المهمة، التي ذكرها في رسالته، إنما تتعلق بمصيره الذي بدأ يشغله منذ أسابيع. اجتاحته رجفة أصابته مثل تيار كهربائي ترافقه منذ طفولته. ذات مرة أخذه خاله إلى الطبيب النفساني الذي فحصه بعناية وقال:

"إن الولد يعاني من أزمة نفسية، تداهمه بعض الأحيان، فيتشنج بشكل مخيف"

وعندما سأل الخال عن السبب، أجاب الطبيب بأن الأسباب كثيرة منها شعوره بالخطر والإضطهاد والمطاردة أو حين يطلب شيئاً يرفض طلبه أو حين لا يمكنه التغلب على خصمه، الأمر الذي يؤدي به إلى أن يكون عدوانياً لا يرتاح إلا إذا رأى الدم يسيل من خصمه. بدت علائم الفرح والفخر على وجه الخال. علق بعجرفة:

"الحل بين أيدينا إذاً. سنلبي كل حاجاته مهما كانت"

قال الطبيب بعدم إرتياح:

"ولكن هذه ليست وسيلة تربوية يا عمي"

سحب الخال الطفل من ذراعه بغضب وهو يهم إلى مغادرة الغرفة:

"سأشتري له حتى مسدساً إذا أراده"

في اليوم الثاني استدعى الرئيس خلف أبو السيف، الوزير إلى مكتبه. في البدء شكره لنقل الخبر بأمانة ثم طلب منه أن يروي كل شيء بالتفصيل. وحين تم له ما أراد، قام من مكانه قائلاً إنه يعرف بأنهم يريدون رأسه، ولكنهم لا يتمكنون من تحقيق هدفهم وانصرف الوزير إلى مكتبه.

تذكر أبو السيف

حكاية ذهابه إلى الطبيب مع خاله بكل تفاصيله. ورغم أنهما، الطبيب وخاله، كانا يعتقدان أنه لا يفهمهما، إلا أنه كان منتبهاً إلى كلامهما بكل جوارحه وفهمهما جيداً، بحيث أنه استغل في أقرب فرصة موقف خاله وطلب منه أن يشتري له مسدساً. تذكر الخال حديثه مع الطبيب وراح يستجوب الولد:

"لماذا تريد مسدساً بالذات؟ هل لك أعداء؟ أم تحس بالخطر من شخص ما؟ قل لي السبب بعد ذلك أفكر في الموضوع"

قال الولد باحتجاج:

"ماذا يعني أفكر في الموضوع؟ أنت وعدتني أمام الطبيب بأنك ستشتري لي كل ما أطلبه منك بما فيه مسدساً"

قال الخال بتوسل:

"يا بني، أنت مازلت في الثانية عشرة من عمرك. وحيازة السلاح في مثل هذا العمر ممنوع، يعاقب عليها القانون، ثم إنك يجب أن تقول لي سبب حاجتك للمسدس. هل هددك أحد بالقتل؟"

أجاب الولد بعناد:

"كلا.

لم يهددني أحد، ولكن أقراني الكبار يضربونني دون أن أتمكن منهم. وأما إذا عرفوا بأنني أملك مسدساً، آنذاك يتحولون إلى فئران ويختفون في جحورهم"

هز الخال رأسه قائلاً:

"سنحل المشكلة يا بني. ستحصل على ما تريد، ولكن عليك بالصبر. إنك قبل كل شيء يجب أن تتمرن على إستعمال السلاح، وإلا أنقلب السلاح ضدك. وهناك من يتمكن أن ينتزعه منك. آنذاك ستتحول إلى أضحوكة بين الناس"

كانت تلك أيام الطفولة، تذكرها الرئيس خلف أبو السيف ووجد أن الهزائم والإنتصارات لم تكن شيئاً معيباً. كانوا كصبيان صغار يتعاركون فيما بينهم ثم يتصالحون. وينسون ما حصل في اليوم الفائت. وإذا كان لابد من معرفة المنتصر أو المهزوم، فيذكرون أسم المحلة التي انتصرت أو أسم الدربونة التي خسرت المعركة، دون أن يتطرقوا إلى الأسماء المنتصرة أو الخاسرة. وهكذا كان الخاسر يختفي تحت عباءة الفريق دون الإشارة إلى أسمه. وأما اليوم فالمسألة تختلف، فالإنتصارات التي يسجلها جيش المليون جندي، تعرض وتمجد بأسم الرئيس المنقذ خلف أبو السيف وأما إذا انتكست الأمور وانهزم

جيش المليون جندي، فيكون السبب عدم إلتزام الجندي أو عدم فهمه لأوامر القائد الذي لا يمكن أن يتزحزح عن موقعه، إلا بإنتفاضة شعبية. وحين تنتصر الإنتفاضة الشعبية، توجه الأصابع إلى خلف أبو السيف وينعت بمختلف النعوت. والويل له إذا وقع بأيدي الجماهير الغاضبة. عندما خطر أسم الجماهير بباله، مسته رجفة أشبهبالتيار الكهربائي. وأقتحمه الخوف من جديد. خوف غريزي لم يتمكن من تبديده.

قال في نفسه وهو في قلعة عزلته:

"إنهم يفرضون علي أن أتبع معهم (سياسة الرعب الدائم)، فليتسلموها بألف عافية، إذ لا تفيدهم غيرها. إن غداً لناظره قريب"

وراح الرئيس خلف أبو السيف الذي فرض على نفسه ما يسميه بكل فخر، (عزلة الوقاية) منذ فترة غير قصيرة ينشغل بالصلاة وقراءة القرآن الكريم. ولكي يثبت للجميع أنه مسلم سني جيد قام بإصدار أوامره إلى كافة الدوائر والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية وإلى جميع أبناء الشعب، نساءً ورجالاً بالتقيد التام بتعاليم الإسلام. واقتنع بأن مبدأ قيادة الدولة من مكان مجهول، هو الوسيلة الوحيدة للوقوف بوجه المؤامرات والمتآمرين الذين لا يكفون عن خلق الدسائس له، بغية إزاحته عن موقعه الذي أغتصبه بالمراوغة والقوة. ومما زاد من مخاوفه الخبر الذي نقله وزيره من أحد الأجانب. وانتصبت أمام عينيه مجموعة من الأشباح بلا وجوه، تقف في خط طويل لا نهاية له تحمل لافتات كتبت عليها بالدم العبارات الآتية:

شعب ميدستان يعاني من الإبادة الجماعية.

أوقفوا حربكم ضد مملكة خراسان.

أخرجوا من دولة المرجان أيها اللصوص.

لا تلعبوا بنار الملف النووي.

الخزي والموت لمستعبدي شعوبهم.

قال في نفسه، ككل مرة حين يحس بالضيق يطبق على صدره وبالحبل يلتف على عنقه:

"سوف أتعشى بهم قبل أن يتغدوا بي. لابد أن أتحول إلى واحد من هؤلاء الذين يسمونهم في أواسط أفريقيا بآكلة لحوم البشر. إنهم كلهم أعدائي، يريدون الإطاحة بي"

فكر في إيجاد بديل لمدير الأمن العام، الذي حين أحس بأنه سيضحي به في إنقلابهما الذي كشفته إستخبارات دولة البلقان، بصق في وجهه، قائلاً بحقد:

"يا كلب يا حقير، من أنت لو لم أساندك في جرائمك"

آنذاك إلتفت إلى زبانيته الخمسة وطلب منهم أن يقوموا بالواجب. هجموا عليه بعد أن طوقوه كالذئاب وطرحوه أرضاً وهم يضربونه بأخامص بنادقهم الرشاشة على رأسه. وقبل أن يموت، طلب منهم الرئيس أن يتركوه له. وكان أن أخرج من جيبه مدية حادة، شهرها في وجه صديقه العدو. ولكي يؤدي عمله باتقان وهدوء طلب منهم أن يمسكوه بشكل لا يمكنه أن يتحرك. قال وهو يلوح بالمدية في وجهه الملاصق على الأرض، حيث وضع أحد الرجال رجله على عنقه:

"إننا لا نكتفي بالبصقة، بل نريد منك أشياء أخرى لنرسلها إلى أهلك الخنازير الذين لم يعتنوا بتربيتك"

وبدأ أولاً بقطع أنفه ثم أذنيه وسمل عينيه. وعندما حاول قطع لسانه، صدرت منه رجفة قوية، تشنج على أثرهاجسمه ثم خمد كل شيء. بيد أن عينيه ظلتا مفتوحتين، يسيل منهما سائل زلالي شفاف خليط بالدم. عندها التفت إلى أفراد زبانيته، قال وهو يسلم لكل واحد منهم ظرفا ثخيناً:

"أنا فخور بكم. لقد أديتم واجبكم على أحسن وجه. وهذه هدية متواضعة لأنكم أرهقتم أعصابكم معي"

وراحت الهتافات تملأ جو الغرفة المخصصة لمثل هذه التحقيقات. ثم واصل كلامه قائلاً:

"تصوروا، بربكم هل هذه أخلاق؟ جلبته من الشارع. كان حسرة عليه قرصة خبز. جعلت منه شخصية متميزة في مفاصل الدولة الحساسة. جعلت منه مديراً عاماً للأمن والمخابرات ثم يأتي ويبصق في وجهي. إتق شر من أحسنت إليه"

مع رحيل صديقه ورفيقه على مدى عقود من الزمن، اعتقدَ أنه سيرتاح لتخلصه من غريم خفي، بيد أنه أحس بعزلة باردة تسربت إلى كل جزء من كيانه. الشعور نفسه صاحبه عندما تخلص من الرئيس مرزوق. الشعور بالغبطة يعقبه الشعور بالعزلة. وها هو يفكر منذ أيام في أختيار من يمكنه الإعتماد عليه إعتماداً كلياً، ولكن بلا جدوى. كلهم خونة متآمرون ولا سيما من يسمونهم بالمثقفين.

١٨

تبين لخلف أبو السيف، بعد أن أصبح رئيساً لبلده أن هناك فرقاً بين أن تكون مساعداً للرئيس أو رئيسا للبلد، فالأول له هدف واضح وهو أن يكون رئيساً، بيد أن المشكلة تبدأ حين تتحقق هذه الأمنية، فماذا تريد أن تفعل بعد أن تحقق هدفك. قال له أحد أصدقائه القدماء ذات يوم، رداً على سؤاله: ما هي طموحاتك إذا دفعك القدر إلى أن تكون رئيساً للبلاد. أجابه صاحبه بقناعة:

"أن أتمكن من خدمة أبناء شعبي بكل إمكاناتي"

قال خلف أبو السيف بلهجة قاطعة:

"إذا كان هذا هدفك، فتأكد إنك لن تكون رئيساً، حتى لو حالفك الحظ"

قال الصديق بهدوء:

"أعرف ذلك، ولكن هل يمكنني أن أسألك عن طموحاتك أنت؟"

أجاب خلف بإعتزاز وقناعة:

"الشعب هو آخر ما أفكر فيه يا صديقي العزيز. سأجعل منه أداة طيعة لخدمة مشاريعي التي تصب في تأسيس أمبراطورية تحمل أسمي وتعيش ليس ألف عام فحسب، بل إلى الأبد. سابزّ بابل وآشور في عظمتهما. سأرفع أسم دويلة المرجان من الخريطة وأضمها إلى بلدي. و المصيرنفسه ستناله دولة خراسان. سأعلنها حرب إبادة ضد ما يسمى بشعب بيدستان وسأقلعه كأي بقة من جلد بقرة. سأشكل جيشاً لا يقل تعداده عن مليون جندي مزود بأحدث الأسلحة النووية"

قال الصديق بإستهزاء ومرارة:

"أنت بحاجة إلى مستشارين حياديين، يوضحون لك مخاطر أفكارك ومشاريعك"

"هذه النقطة سأفكر فيها، حين يضعني القدر في المكان المطلوب. بالمناسبة هل توافق أن تكون مستشاري بعد إقرارك لمشاريعي؟"

"كلا أبداً"

"لماذا؟"

"لأنني لا أريد أن أرافقك إلى المشنقة"

"وهل أنت خائف من المشنقة؟"

"وهل هناك من لا يخافها؟"

"أنا لا أخاف المشنقة"

"كن إذاً رئيساً لهذا البلد"

كان هذا آخر لقاء له مع هذا الصديق. وكانا آنذاك يجلسان على رحلة واحدة في الصف الثالث المتوسط، افترقا فيما بعد بسبب إنتقال والده بحكم

وظيفته إلى قصبة أخرى. وكان خلف يرى في هذا الصديق الشخص الوحيد الذي يقف على طرفي نقيض من أفكاره وعلى الرغم من ذلك كان يبحث عنه في أيام صعوده، ولكن عبثاً.

لا يدري لماذا فكر فيه هذا اليوم. يا ترى هل هذا الصديق كان يكسر عزلته؟ ويشعره بالأمان؟ أم كان بمنزلة محرار ينبئه بالمخاطر المقبلة؟ كم هو بحاجة اليوم إلى هذا الصديق الذي كان مجرد تواجده عنده، يشع الطمأنينة والأمان في جو المكان. إنه يعرف بأن عزلته اليوم تختلف عما مضى. وإن صديقه مهما أوتي من قوة وحيلة، فإنه ليس في إمكانه إخراجه منها، ذلك أنه يجهل ظروفه الخاصة وطبيعة عمله، وطبائع وسلوك الناس العاملين معه. ومشكلة خلف تكمن في أنه هو نفسه يصنع المشاكل سواء لنفسه أو للآخرين وإن مفهومه للصداقة يختلف عن الآخرين، فهو ينظر إلى كل المقربين منه من الذين يحتكون به، خدماً. الصديق هو من لا يعمل عنده ولا يحتاجه ولا يحتك به يومياً ولا يؤيد كل أفكاره، بل يناقشه دون أن يخشى منه. ولكنه حين تسلق بإتجاه أعلى الدرجات، انتهى مفعول الصداقة عنده ولم يعد يتحمل بعد أي رأي مخالف لآرائه. فلو أن صديقه أعطى لنفسه الحق بمعاقبة كل من يخالفه رأيه، سواء من داخل التنظيمالسري أم من خارجه. لكان هذا الصديق، يتذوق الموت على يديه ثم ينال حتفه بسبب آرائه المضادة للرئيس. حالفه الحظ إذاً عندما افترقا بسبب إنتقال أبيه إلى قصبة أخرى .

هاجه الحنين إلى الريف، موطن أجداده. عرض هذه الحالة على طبيبه النفساني. قال له الطبيب بعد أن فحصه بعناية تامة:

"سيدي أنت مرهق. وإرهاقك من النوع الثقيل. أنت تحتاج إلى الراحة والهدوء لفترة غير قصيرة. سلم مسؤولياتك إلى معاونيك وأذهب إلى مكان هادئ. لا بأس أن تقضي بعض الوقت في الريف، ولكن حذارِ أن يعرف بوجودك أحد من أبناء العشيرة. وإلا سيقلبون حياتك إلى جحيم"

كان الرئيس خلف أبو السيف يستمع إلى كلام الطبيب بإهتمام بالغ ويفكر في الوقت نفسه في خططه التي أشغلت تفكيره منذ فترة غير قصيرة. ورأى أن إقتراح الطبيب بخصوص الراحة لا بأس به، حيث يتمكن من التفرغ إلى رسمتلك الخطط بصورة محكمة، بيد أنه فكر في مشكلة أخرى، يجب أن يجد لها حلاً مقبولاً، ولذلك توجه إلى الطبيب يسأله:

"أفكارك ومقترحاتك يا أبا الشباب في مكانها. إنها حديثة ومبدعة يمكن للإنسان أن يطورها. سأغير مثلاً هيئتي وأجعل من نفسي راعياً بصحبة كلب شرس، ولكن هناك مشكلة يجب معالجتها فيما بيننا..."

عندها توقف عن الكلام وبدأ كما لو أنه يفكر في إخراجه أو حبسه. أطبق عليهما الصمت. بعد هنيهة قال الطبيب:

"نعم سيدي، أمرك"

قال الرئيس بعينين متعبتين:

"أنظر يا صديقي الطبيب، إنك طبيبي الخاص منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، ولكنك لا تعرف كل شيء عني، لأنني لم أصارحك بكل شيء. إن وظيفتي هي حراسة هذه الدولة التي لا يمكن لأي إنسان أن يقودها بدون إراقة الدم بشكل يومي. كما إني أدمنت على إراقة الدم في كل ليلة، أدمن بدوره ما يسمى بالشعب على هدر دمه، الأمر الذي يمنحه الراحة. هل فهمتني جيداً؟"

أجاب الطبيب وقد أصابه الهلع:

"نعم سيدي، فهمتك جيداً"

قال خلف أبو السيف مبتسماً بسخرية:

"إذاً، إشرح لي المعادلة"

قال الطبيب بتلعثم:

"سيدي، من أجل الحفاظ على هذه الدولة يجب إراقة دم أعدائها كل يوم. ولما كنت أنت الحارس الأول الذي يرى الدم يسيل كل يوم، لذلك أصبت بالإدمان. ومن جانب آخر أصيب ما يسمى بالشعب على الإدمان أيضاً، أي الإدمان على منح الدم والموت في سبيل لا شيء"

أطلق الرئيس ضحكة شيطانية قائلاً:

"برافو.. برافو.. سأعينك وزيراً للصحة حال مباشرتي بالعمل، إذ اكتشفت فيك إخلاصك اللامتناهي لي وللدولة"

احتار الطبيب في أمر سيده الرئيس وراح يفكر في إيجاد الرابط بين مشكلته التي لم يفصح عنها وحكاية الإدمان على سيل الدم المراق من أعدائه. بعد صمت قصير قال خلف أبو السيف:

"والآن نعود إلى موضوعنا الأول. أقولها لك بصراحة بأن لي عدداً لا يحصى من المعارضين الذين يطالبون برأسي. إن هؤلاء يجب أن أصفيهم بنفسي. ولا أرتاح إلا إذا رأيت جثثهم وهي ملطخة بالدماء، عندها أنام ملء عيني ومرتاح البال. والآن تأتي أنت وتقترح علي أن أقضي فترة عطلة طويلة للراحة بدون رؤية قطرة دم. إنهم إذا لاحظوا بأن الناس لا يموتون تحت التعذيب، تعود إليهم وقاحتهم وجرأتهم ويتسلمون زمام أمور ما يسمونهم بالجماهير. هل تعتقد أن جماعتنا يمتلكون الجرأة الكافية لإيقاف هؤلاء الرعاع عند حدودهم؟"

قال الطبيب بلهجة من يحاول أن يقنع صاحبه للقيام بعمل خير:

"سيدي، إذا كانت المشكلة هي مجرد رؤية الدم وهويسيل، فأذبح في كل يوم شاة، أرميها للذئاب الجائعة في البراري. وإذا سنحت الفرصة فاعط قطعاً منها لفقراء الناس كي يسدوا بها رمقهم ولا تنس الكلاب السائبة التي تحلم بالعظام. وأما بالنسبة إلى وكلائك الذين لا تثق بهم، فسلط عليهم إخوانك وأولاد عمك وخالك وأبناء عشيرتك. فكر يا سيدي قبل كل شيءبصحتك. إن

الدولة بحاجة إليك"

قال الرئيس خلف أبو السيف وهو يفكر بجد في مقرحات الطبيب:

"مقترحات جيدة يا أخي الطبيب. أقر بأنني أهملتك طوال السنوات الماضية، ولكن لا بأس سنعوض السنوات الخالية. إني بحاجة إليك فعلاً، بيد أنني أريد أن أعرف ما إذا كان دم الخروف يمكن أن يعوض دماء القتلة المجرمين؟

قال الطبيب بلهجة ودية تتوقع الخير من المقابل:

"يا سيدي الرئيس أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان على إستعداد على التضحية بإبنه إسحاق. أنت جرب أولاً مع الشاة. إذا وجدت فيها علاجا ناجعاً، فبها. وأما إذا لم تفد فديرتنا مليئة بالمجرمين الذين يستحقون أكثر من إعدام. سيدي ليست ثمة مشكلة تعصى عليك. أنت ما عليك سوى أن تأمر"

قال خلف أبو السيف بجد:

"أنت مكانك فعلاً ليس هنا. سألتزم بنصائحك بحذافيرها. سأختفي بمظهر راع لأهلي في القرية. سأرتاح هناك فعلاً ولا أعود إلى القرية إلاّ بعد إنتهاء فترة الإستراحة التي مدتها لا تتجاوز ثلاثة أسابيع. هل تكفي المدة؟"

"يمكن أن تمدد الفترة ولكن بشرط أن لا تحول كوخكم الواقع على أرض المرعى إلى مضيف، وإلاّ فمن المستحسن أن تبقى هنا"

"إطمئن. لي تجربة كافية في الإختفاء"

أخذ توصيات الطبيب النفساني بجد وقرر أن يلتزم بها فعلاً. وعاتب نفسه إنه لم يتمكن من إكتشافه وإناطة مركز مهم وحساس في مفاصل الدولة إليه. ومما لاحظ في شخصية صاحبه الطبيب إنه ليس من النوع الذي يتهالك على السلطة وبأي ثمن كان. إنه من النوع الذي يخدم المواطنين ولا يأبه بالسلطة. أعجبته فكرة تقمص دور الراعي. وبعد أن إنتهى من توزيع المسؤوليات، بصورة مؤقتة بين أفراد جماعته المخلصين له إلى درجة العبادة. عين إخوانه

الثلاثة كمستشارين رئيسيين عليهم. وظل أسبوعاً كاملاً دون أن يحلق ذقنه، بحيث إن الإنسان لم يعد يتمكن التعرف عليه. وقبل أن يختفي عن الأنظار نهائياً، عمل له أحد الفنانين، ماكياجاً يناسب عمره. وكتجربة أولية قام مع أحد أبناء أعمامه، أسمه عواد، بجولة في سوق قصبته. تأكد له أن أحداً من أهالي قريته لم يتعرف عليه، بدليل إن أحداً لم يلتفت إليه. نصحه عواد أن يترك مشروع الرعي الذي فيه مخاطر كثيرة، منهااللدغات القاتلة للثعابين السامة ومخاطر مداهمة العصابات المسلحة الهاربة من وجه العدالة. "وأما أن تبقى وحدك خارج القرية" قال قريبه "فمسألة، لن نقبل بها يا أبن عمي بتاتاً"

لم يناقش عواد على أفكاره التي إقتنع بها فوراً، ولكنه طلب منه أن يجد له حلاً واقعيا يجنبه شر الثعابين وعصابات الليل المسلحة. قال قريبه وهو يستغرب من قرار أبن عمه العجيب:

"يا أبن عمي، أنت رئيس دولة تريد مني أن أجد لك حلاً واقعياً يجنبك شر الثعابين وعصابات الليل المسلحة؟ ألم تجد مكاناً تقضي فيه عطلتك غير هذه الأرض القاحلة والجرداء. لماذا لا تسافر إلى أوروبا؟ ألست رئيس دولة. أم أن راتبك لا يسد حاجاتك"

قال خلف أبو السيف وهو يحاول مجاراة قريبه الساذج:

"يا أبن عمي، إن المسألة لا علاقة لها براتبي. أنا لا أحتاج راتباً. إن نفط البلد كله ملكي، أتصرف به كيفما أشاء. أنا أريد أن أرتاح بعض الوقت لأنني مرهق جداً. وأحببت أن أقضي بضعة أيام في مراعي أهلي، دون أن يحس بي أحد. والآن تأتي أنت وتدخل الرعب في قلبي بثعابينك السامة التي لا تعرف المزاح. وفـــوق هذا كله تريد أن ترسلني إلى أوروبا، حـــيث يتـــخندق أعدائيويتربصون الفرص لأغتيالي"

قال قريبه بفرحة من وجد الحل:

"يا أبن عمي، أحنا واجبنا الحفاظ على حياتك الغالية علينا بوسائلنا

الخاصة. أنا عندي بفضل معونتك، مزرعة فيها خيمة وبيت، تبعد عن القرية عشرين كيلومتراً. ما يزور البيت حتى الطير. لا عقربة ولا ثعبان. تريد أن تبقى وحدك، فأنت حر. تريدني أن أخدمك فأنا أخوك وخادمك"

"بارك الله فيك يا أبن عمي. عرض حاتمي لا يمكن أن يرفض، ولكني أحتاج إلى قطيع غنم صغير أشتريه بفلوسي ويجب أن أصطحب معي كلبي حنش"

قال القريب بلهجة قاطعة:

"كل شيء مقبول عدا الفلوس. ملكي هو ملكك. لولاك أنت وفضلك، لكنت الآن حافياً لا أملك فلساً واحداً"

"ولكن يا أبن عمي أنا أذبح في كل يوم أو مرة في كل يومين ضحية على روح والدي، فإذا دفعت أنت فلوس الضحية من جيبك، يذهب الخير إلى روح والدك. وتبقى روح والدي خالية الوفاض، فهل يقبل ضميرك هذا الشيء؟"

رفع عواد يده اليمنى إلى أعلى وقال بلهجة حاسمة:

"كلا أبداً. الخير يجب أن يأخذ مكانه"

١٩

رغم السرية التامة التي رافقت عملية إختفاء رئيس الجمهورية الجديد والأمين العام للمنظمة السرية والقائد العام للقوات المسلحة ووكيل وزارات الداخلية والدفاع والمالية ووزارة الأمن القومي، السيد خلف أبو السيف، فإن الخبر قد إنتشر عبر القنوات السرية، سواء في مفاصل الدولة أو بين أبناء الشعب. ورافقت الخبر كومة من الشائعات التي تناسب أمنية كل فئة تقف وراء صنع الخبر ولاسيما ممن يسمونهم بالمثقفين، فهناك من يؤكد بأنه سافر إلى الإتحاد السوفييتي لدراسة الماركسية _ اللينينية. وهناك من يقول إنه سافر إلى الصين، ليتتلمذ على يد مدرسة ماوتسي تونغ الذي يملك شيوعية أضبط من الماركسية _ اللينينية. ويقول مصدر آخر، يحلف صاحبه بأنه صحيح مائة

بالمئة، بأن جماعة من الضباط التقدميين قد ألقوا عليه القبض ونفوه إلى الهند. واشترطوا على السلطات الهندية عدم السماح له بممارسة النشاطات السياسية ضد حكومة بلده. ومن الجدير بالذكر أن الهند تلقت لموقفها المشرف باخرة من البترول الخام. وتبين أن هناك مذكرة إلقاء القبض، من القضاء الهندي، على خلف أبو السيف بسبب إهانته الشعب الهندي وإتهامه بالتخلف. ومن ضمن الإشاعات التي أنتشرت أيضاً كآخر إشاعة، حكاية تزعم أن خلف أبو السيف قد أصيب بلوثة جنونية أفقدت توازنه العقلي، أدخل على أثرها مستشفى الأمراض العقلية. ويقال أنه فور تواجده في ساحة المستشفى نزع ملابسه إلى آخر قطعة بحيث أصبح عارياً كما ولدته أمه. وراح يركض في أرجاء ساحة المستشفى بسرعة فائقة. وما زالت الإشاعات تتوالى ومن أغربها: أنه دخل الخلوة حتى يرتاح ويفكر بهدوء ويرسم الخطط لمعاقبة الشعب الذي لا حول له ولا قوة. ويقول البعض من هؤلاء أن شعباً أنجب مثل هذه النماذج، يجب أن يعاقب.

لاحظ عواد أن صاحبه خلف يبالغ جداً في أمور الصيانه، بحيث أنه يخاف حتى من ظله. ولا يريد أن يعرف بتواجده هنا حتى أقرب المقربين إليه. استغرب عواد من هذا التصرف غير الطبيعي من أبن عمه وراح يضرب أخماساً بأسداس ويشك في مجمل تصرفه الذي لا يدل أنه أصبح رئيساً للجمهورية. وبدأت أنواع الأفكار والتساؤلات تقتحم رأسه ويفكر في مصيره هو فإذا حدث مكروه لخلف أبو السيف، يتضرر هو الآخر ويساق إلى المصير الذي ينتظر أبن عمه. وستكون أول مجابهة بينه وبين صاحب الأرض التي أستولى عليها بمعونة خلف، حيث سهل له تزوير أوراق الطابو التي أنتزعت من صاحب الأرض الحقيقي عنوة. قرر عواد أن يصارحه بالأمر بكل صراحة. وأنه إذا كان هارباً من محاولة إنقلابية، فيجب عليهما أن يفكرا في إيجاد حل آخر، وإلا فإن أمرهما سيكتشف في كل الأحوال.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً عندما أمتطيا حصانيهما وهما يودعان أم خلف بإتجاه مزرعة عواد. قبل أن يتركا الحوش، رشت أم خلف طاسة ماء من ورائهما وهي تدعو لهما بالخير والسلامة. وكانت السماء الزرقاء تحتضن شمس نهاية مايس التي تبعث الحرارة بأشعتها الذهبية. عندما أصبحت القرية وراءهما، قال خلف بلهجة إحتجاج وعدم إرتياح:

"لو كان الأمر بيدي، لتركنا القرية فجراً"

قال عواد بلهجة المنتصر:

"هل رأيت إنساً في الدرابين الخالية؟"

"هذا مجرد مصادفة"

وجه عواد حصانه للإقتراب من حصان خلف وقال بلهجة تصحيحية:

"هذا ليس مجرد صدفة يا أبن عمي. إن الفلاحين والعمال يتركون بيوتهم فجراً، ولذلك تبقى القرية خالية في مثل هذا الوقت. وأما النساء فمشغولات بالطبخ"

قال خلف وعلائم الغبطة تعلو وجهه:

"برافو عواد. أنت تفهم أمور الصيانه أحسن بكثير من بعض الضباط الذين أضع مصيري وحياتي بأيديهم. أنت يجب أن تدخل في صفوف الدولة. أنا بحاجة إليك. أن يكون أبن عمي إلى جانبي، يرتاح بالي"

قال عواد وهو يشكره لثقته به:

"يا أبن عمي، الدنيا فيها تقلبات كثيرة والدولة لا تبقى ملكاً أبدياً. ناس يأتون وناس يذهبون. أنا أفيدك حين أكون خارج صفوف الدولة. لو كنت مفوض شرطة مثلاً لما إستطعت أن أكون إلى جانبك"

قال خلف أبو السيف بلهجة جدية:

"تفكير جيد. مع ذلك سنتحدث بالموضوع حين نكون في المزرعة"

أراد عواد أن يطرح عليه سؤالاً بخصوص مبالغته بالصيانة. وما إذا كان يعاني من مشكلة ما. بيد أنه أحس إن أبن عمه لا يحبذ الكلام في حالة الجلوس على ظهر حصانه الذي لا يريد أن يخب جنب الحصان الآخر. وأطبق عليهما الصمت. بعد دقائق بدا خلف كما لو أنه يريد أن يصحح شيئاً. شد زمام حصانه وسحبه بقوة بحيث أضطر للتوقف عن السير. وحين لحق به عواد، قال خلف أبو السيف وكأنه يواصل كلامه:

"شوف يا أبن عمي عواد، إنني قررت أن أضمك إلى جهاز الدولة. هذا موضوع لا نقاش عليه. أنا أحتاجك كمستشار في شؤون الريف. تأتي إليّ متى ما شئت. سأخصص لك مكتباً بالقرب مني، يداوم فيه مساعدك. هذه وظيفة بدرجة خاصة لها راتب وزير. هل لك إعتراض؟"

قال عواد وهو يكاد لا يصدق ما كان يحلم به من قبل:

"إذا كنت فعلاً تحتاجني يا أبن عمي فأنا خادمك المطيع"

قال خلف بلهجة قاطعة:

"أنا سعيد جداً لعملنا المقبل، ولكنه سيظل سراً فيما بيننا. لا أريد أن يهيج علينا الأقارب الذين لا يشبعون من الوظائف"

"أحسنت يا أبن عمي. هذا ما أردت أن أطرحه عليك"

بعد مسيرة غير قصيرة قال عواد وهو يخرج من شروده الذهني:

"عند دوامي عندكم هل واجب عليّ أن ألبس ملابس الأفندية؟"

ضحك خلف أبو السيف بصوت عال وأجاب:

"أنت حر يا عواد في إختيار نوع ملابسك. نحن ناس ديمقراطيون. أنت مثل ما يعجبك. تريد تصير أفندي أهلاً بيك، تريد تبقى بالملابس العربية أهلاً وسهلاً بيك. إذا تسألني رأيي أنا، فأفضل الملابس العربية لأنها تناسب وظيفة مستشار في شؤون الريف؟"

ارتاح عواد لكلام خلف. قال وهو يخلط الجد بالهزل:

"يا أبن عمي الله يوفقك ويبقيك ذخراً للعشيرة التي لولاك لماتت جوعاً. سوف أحضر بالدائرة بأحسن ملابسي حتى لا أنكس رأس العشيرة"

قال خلف وهو لا يزال يبتسم وينتبه لكلام عواد الذي يرتاح له:

"أنت أسمك من الآن فصاعداً الشيخ عواد. وويل لمن لا يناديكبهذا الأسم"

قال عواد بمزاح:

"ولكن رئيس أي عشيرة؟"

"هذا غير مهم. لا يطرح عليك أحد مثل هذا السؤال. وإذا كان لابد من السؤال، فرئيس عشيرة ألبو ربيع، هذا أيضاً دبرناه لك. ماذا تريد بعد؟"

"أريد لك طول العمر والصحة والسلامة وليحفظك الله من كل مكروه يا طويل العمر. وأنا سأظل خادمك الأمين حتى يوم القيامة"

أراد خلف أن يمتحن قدرة عواد الأمنية وأمور الصيانه ومدى صراحته مع نفسه وسيده، سأله قائلاً:

"هل عرف أحد بوجودي في المنطقة"

أجاب عواد دون تفكير:

"طبعاً يا أبن عمي، كل الأقارب يعرفون"

توقع خلف هذا الجواب ورغم ذلك قال بأسى:

"من الذي ثرثر بالموضوع ونشر الخبر؟"

"هل هناك غير أمك يا أبن عمي؟ تهمس في أذن القريب بوجودك هنا وتطلب منه أن يحتفظ بالسر لنفسه. وينتقل السر من زقاق إلى آخر وتعبر النهر والقنطرة. وكل فرد فرح كونه هو الوحيد الذي يعرف بالخبر والخبر يعرفه الجميع"

"مفهوم، مفهوم جداً. أمي مثل ملكة إنكلتره، مصونة غير مسؤولة، لا يوجد قانون يحاسبها"

بعد صمت قصير أضاف خلف بلهجة جد:

"شوف يا أبن عمي عواد. نحن الآن، أقصد أنا وأنت قد دخلنا مرحلة جديدة من العلاقة تختلف عن العلاقة العشائرية وصلة القرابة. إنها تسمى بلغة الدولة (العلاقة الرسمية)، يعني أنا الرئيس وأنت المرؤوس. حين نتكلم فيما بيننا، تخاطبني أنت بالرئيس خلف أبو السيف وأنا أخاطبك بالشيخ عواد، رئيس عشيرة ألبو ربيع، مفهوم؟"

أجاب عواد بإستغراب:

"من الآن فصاعداً يا سيدي الرئيس؟"

قال خلف بلهجة آمرة:

"بالضبط من الآن فصاعداً يا شيخ عواد"

قال عواد ببلاهة:

"لكن سيدي الرئيس لا توجد عشيرة بأسم ألبو ربيع"

قال خلف بغضب وإستهانة:

"أنت تعلمني على أسماء القبائل والعشائر العربية يا شيخ عواد. إذا كنت لا تعرف شيئاً فمن المستحسن لك أن تسكت"

قال عواد في نفسه بعد أن أحس بجرح عميق في داخله: "هذه أول إهانة تأتيك من الدولة التي لم توقع معها عقد العمل بعد يا عواد، فماذا سيحصل بعد توقيعك على العقدولكن لا بأس. لا توجد نعمة بدون إهانة. الأيام بيننا يا خلف". قال عواد وهو يحاول أن لا يبدو كما لو أنه تأثر بكلام خلف وإهانته الجافين:

"ها قد وصلنا سيدي الرئيس"

كان موسم الحصاد قد إنتهى. وكانت المزرعة بأشجارها الخضراء وبيتها الجميل الذي نصبت جنبه الخيمة السوداء، تبدو مثل واحة خيالية وسط هضبة، ما زالت آثار الحصاد الطري فيها واضحة المعالم. تذكر الرئيس خلف أبو السيف قصة الإستيلاء على الأرض، ولكنه لم يتأكد من تفاصيل الملكية ولذلك نادى على عواد ليقترب منه بعد أن راح حصانه يسرع الخطى للوصول إلى القرية. قال وهو يقترب منه:

"نعم سيدي الرئيس:

"قل لي يا شيخ عواد، هل تم الإستيلاء في حينه على الأرض التي عليها المزرعة فقط أم على الأراضي المحيطة بالمزرعة أيضاً؟"

قال عواد بزهو:

"سيدي الرئيس أنت نفسك قلت في حينه، لو كلها لو ما نريد والمزرعة التي لا تحيط بها الأراضي الديم من كل الجهات ما تنفع"

كانت أشجار الرمان والبرتقال والتين والنخيل وغيرها من المتسلقات المحيطة بالفيللا قد أخفت حقيقة الدار التي هي أجملوأكبر بكثير مما يبدو من بعيد. عندما وقف الحصانان أمام بوابة جانبية تؤدي إلى الأسطبل، ظهر رجل مسلح بادر إلى فتح البوابة. في الوقت نفسه ترجل عواد منعلى ظهر حصانه وأخذ الزمام من يد خلف الذي ترجل هو الآخر. وبعد أن سلم عليهما، قاد الرجل الحصانين إلى الأسطبل وقدم لهما الماء والعلف. وتوجه كل من خلف وعواد إلى البوابة الداخلية للفيللا. لمس خلف الباب المزركش وهو يقول بشيء من الحسد المستتر:

"هذا خشب بلوط يا شيخ عواد"

عقب عواد بارتياح:

"من فضل الله ومن فضلك سيدي الرئيس. الدار دارك"

إلى جانب حسده المستتر، أحس خلف بنوع من الفخر لهذا العمل الشامخ الذي لولاه لما أنشئ في هذه البقعة الجرداء من الأرض. قال وهو يجيل بنظراته في أنحاء الفيللا:

"مبارك يا شيخ عواد، هذا ليس بيتاً، بل أستوديو سينمائي"

قال عواد بحمية:

"تقبل يا سيدي الرئيس"

قال خلف بلهجة شكر وقد انطبعت إبتسامة على وجهه:

"ألف شكر يا شيخ عواد. نحن ما نسترجع ما أعطيناه"

"مثل ما قلت يا سيدي الرئيس، البيت بيتك"

"أنت حميت الثورة يا شيخ عواد في أحرج أوقاتها. والثورة لم تفعل شيئاً سوى أنها ردت لك جميلك. هل نسيت حمايتك لي عندما تمردت على السلطة وأنا في العشرين من عمري؟"

"لم أنس ذلك اليوم، ولكنني فعلته لأنك أبن عمي"

"إذاً إنك خدمت الثورة عن طريق العشيرة. وأنقذت حياتي حين أخذتني إلى الطبيب سراً ثم أوصلتني إلى أهلي. تصور، لو أصابك الجبن وهربت دون أن تساعدني. ماذا سيكون مصيري وماذا سيكون مصير الثورة"

قال عواد وهو يبسط يديه ووجهه إلى أعلى كما لو أنه يخاطب الله:

"فضلك يا إلهي، وإلا لما كانت هذه المزرعة ومرفقاتها موجودة"

قال خلف أبو السيف منشرحاً:

"برافو يا شيخ عواد، أحسنت"

بعد أن قاما بجولة إستطلاعية في أرجاء الفيللا بطابقيه، إتخذا مكانيهما في الشرفة المطلة على الحديقة؛ حيث حوض بأسماك حمرصغيرة للزينة، تتوسطه

نافورة. سأل خلف ما إذا كان الحارس الذي فتح الباب موضع ثقة ويعتمد عليه. وجد عواد أن الفرصة مواتية كي يطرح أسئلته على خلف بخصوص ما يسمى بالثقة والصيانة. قال عواد رداً على سؤال خلف:

"بصراحة يا سيدي الرئيس أضطررت أن أفضل الغريب المخلص على القريب الكسول. شغلت عندي أقارب، حولوا المزرعة إلى أحراش. كانوا يذبحون الدجاجات بالجملة. والفاكهة تقطف قبل أن تنضج وترسل إلى السوق والمخضرات تحولت إلى علف للأرانب. وأما الشغل، فحدث ولا حرج. وما أن انتقدته أو عاتبته للإهمال، إلا وتأسد عليك وإتهمك كونك أصبحت إقطاعياً تستغله. إن الحارس الذي رأيته، موضع ثقتي المطلقة. إنه يتصرف مع المزرعة كما لو أنها ملكه الخاص. والآن يا سيدي الرئيس يمكنك أن تثق بالرجل وزوجته بشكل مطلق. وأما إذا كانت ثمة مشكلة، فأنا عضيدك وتعرفني جيداً. أنا تحت أمرك. وأعرفك إنساناً شجاعاًولكنني أستغربت منذ يوم أمس لمبالغتك في أمور الصيانة والأمن، فظننت أن هناك شيئاً تخفيه علي"

قال خلف وهو غارق في تفكير عميق:

"همومك أعرفها يا شيخ عواد ولا داعي لنبشها. أنت تتصرف بعقلانية وتعرف مصلحتك. وأما سبب مجيئي إلى هنا فله عدة أسباب، سأشرحها لك بصراحة، ذلك إني عند قيامي بأول عملية ثورية، فتحت عيني عليك"

"تسلم عيونك سيدي الرئيس"

عندها حضر الحارس مع زوجته ورحبا بالضيف وسأل الزوج ما إذا يعجبهما الشاي أم القهوة؟. بعد أن أختارا القهوة، سألت المرأة عن موعد تقديم طعام الغداء. أقترح خلف أبو السيف الساعة الثانية والنصف.

بعد أن أكد خلف بأن الكلام يجب أن يبقى بينهما، واصل حديثه قائلاً بأن الطبيب النفساني نصحه أن يذهب إلى الريف في منطقة نائية يبتعد عن الإختلاط بالناس ولا يدخل في مناقشات طويلة وعريضة. والسبب الثاني، وهو

الأهم، جرت محاولة إنقلابية راح ضحيتها عدد كبير من الضباط الصغار. وفي خضم هذه الأحداث، قدم الرئيس مرزوق إستقالته من كل من الرئاستين، رئاسة الجمهورية ورئاسة الهيئة الثورية العليا. والحقيقة إنه بعد تقديم الرئيس أستقالته من كل من الرئاستين، تكونان بصورة أوتوماتيكية من حصة مساعد الرئيس:

"ولكنني رغم إستحقاقي للرئاستين، عرضت الأمر للإنتخاب، ولكنهم طلبوا تأجيل الطلب لغاية في بطن يعقوب. وكانت مجموعة من أعضاء الهيئة الثورية العليا كانت قد طرحت فكرة الإنتخاب فيما بينها دون علمي. وتعتبر هذه العملية إنشقاقا على التنظيم. إن العملية الإنشقاقية التي ستكون نتائجها وخيمة عليهم، قد أثرت على نفسيتي تأثيراً كبيراً.

جئت الآن إلى هنا كي أقرر مصير هؤلاء الخونة. وأنت يا شيخ عواد بصفتك تحمل تجارب ثلاثة عقود من الزمن وكونك المستشار الريفي لرئيس الجمهورية، أحب أن أسمع رأيك بخصوص هذا الإنشقاق، علماً إننا سنلجأ إلى الأسلوب الديمقراطي في حل هذه المشكلة. وسنصل إلى أعمق أعماق الريف لمعرفة رأيهم في هذه العملية الإنشقاقية الخيانية.

قال عواد وهو يهز رأسه بإستغراب للتطورات التي حدثت في العاصمة التي تخرج منها أنوا ع المفاجئات الغريبة:

"سيدي الرئيس، تريد الحقيقة؟ العتب عليك. إن هؤلاء الصبيان الذين يريدون أن يغدروا بك الآن، أنت جلبتهم ووضعتهم في الهيئة العليا. طلقة على رأس كل واحد منهم و ابوك ألله يرحمه"

تنفس الرئيس خلف أبو السيف الصعداء وقال بلهجة حقد دفين:

"برافو عليك يا شيخ عواد. هذا هو المناضل الثوري وهذا هو الحل الثوري"

قال عواد وقد بلغ به الحماس أوجه:

"سيدي الرئيس، تستريح يومين وبعد ذلك نقوم بجولات يومية في القرى، تفضح فيها هؤلاء الخونة. الحياة حركة وفي الحركة بركة. بعد ذلك تحل المشكلة مع الصبيان بالطريقة التي تجدها صائبة"

قال خلف بلهجة ندم:

"كان ينبغي أن أجعلك مستشاري منذ البداية، ولكن ما العمل مع هؤلاء الصبيان الذين يفكرون مثل البغال. يا شيخ عواد، هل تدري أن كلامك من ذهب وأنك بذلك قد ذكرتني بمسألة مهمة كنت قد نسيتها منذ مدة طويلة؟"

لم يتمكن عواد من ضبط نفسه بسبب المديح الذي كسبه من الرئيس خلف أبو السيف، قال مندهشاً:

"أنا ذكرتك بمسألة مهمة يا سيدي الرئيس. من أنا حتى أذكرك بمسألة مهمة؟ ما هي هذه المسألة"

واصل خلف كلامه بجد:

"إن عبارتك (جولات يومية في القرى) هي أحد المبادئ التنظيمية التي نشأت بموجبها حركة الهيئة الثورية ومدت جذورها في أعماق الريف. أعتبر نفسك، من الآن فصاعداً، إلى جانب كونك مستشاري، عضواً في لجنة التنظيم المركزي. الراحة التي إقترحها الطبيب سأؤجلها إلى ما بعد القضاء على المنشقين. والآن أعمل لي قائمة بأسماء كافة القرى التابعة وغير التابعة لمحافظتكم مع عدد الأيام التي نحتاجها في جولتنا. إننا بزياراتنا لقواعدنا نرسخ العلاقة بين القيادة والقاعدة ونعري في الوقتنفسه المنشقين المارقين ونرميهم إلى خارج صفوف حركتنا"

قال عواد بإنشراح:

"سيدي الرئيس، زيارتك لنا فيها الخير والبركة"

قال خلف وقد أرتسمت إبتسامة عريضة على وجهه:

"وأنا سعيد جداً لأنني أكتشفتك من جديد يا أبن عمي الشيخ عواد"

ظلا جالسين في ركنهما يتمتعان بالدفء ويتأملان الحديقة ويضعان مختلف الخطط لعملهما المشترك وكيفية القضاء على المنشقين الذين يشكلون خطراً كبيراً، ليس على كيان الهيئة الثورية فحسب، بل على كيان الدولة أيضاً. أراد عواد أن يعرف ما إذا كان المنشقون يعرفون بأن أوراقهم مكشوفة لدى السيد الرئيس خلف أبو السيف. وخطورة بقائهم حتى الآن طلقاء. قال خلف أنه لولا معرفته التامة به، لما أجاب عن هذا السؤال الخطر. ولكنه يعرف الشيخ عواد الذي عاصر الحركة منذ صباه. ويعرف أن السر عنده باب ضاعت مفاتيحه، أجاب خلف متهكماً:

"إذا كان المنشقون أغبياءً، فنحن لسنا أغبياءً. إننا تغدينا بهم، قبل أن يتعشوا بنا. وهم إلى الآن لا يعرفون بهذه الحقيقة. وتأتينا أخبارهم يوماً بعد يوم. وهم ليسوا طلقاء كما تظن يا شيخ عواد. إن حركاتهم مراقبة مراقبة تامة. إذا أرادوا أن يطيروا، فأجنحتنا أطول من أجنحتهم. إذا أرادوا أن يعبروا الحدود البرية، فنحن نستقبلهم هناك. نحن سنشكل محكمة خاصة عادلة بأسم (محكمة الهيئة الثورية العليا)، سنضع أمام المحكمة الأدلة الدامغة التي ستثبت خيانتهم وإنشقاقهم الذي لو تسنى له النجاح لإنتشر الخراب في كل مكان"

قاطعه عواد بحماس قائلاً:

"تكون أنت تحاكمهم يا سيدي الرئيس"

"بهذا الخصوص سيصدر قرار من الهيئة الثورية العليا. مع ذلك يمكنك أن تقترح من تشاء ويمكن للمنتمي أن يرشح نفسه أيضاً"

٢٠

إتصل الرئيس خلف أبو السيف بصورة سرية بمسؤول منظمة الهيئة الثورية وأعلمه بوجوده في المنطقة لأسباب خاصة تتعلق بالهيئة الثورية العليا. وأكد بأن زيارته سرية للغاية. وأن من ضمن زيارته، الإشراف على الهيئات القاعدية وإعلامها بسياسة الهيئة الثورية الجديدة والتغييرات المحتملة في تاكتيكاتها. كل رفيق ملزم بالحضور، ولذلك يطلب منه أن يزوده بسيارة جيب، يفضل أن تكون يابانية الصنع مع سائق ماهر في السياقة والتصليح.

الحماية تناط بالرفاق أنفسهم وتكون تحت إشرافك.

لا يجوز الغياب إلا بإجازة مرضية.

أؤكد مرة أخرى بأن زيارتي سرية للغاية.

إستغرقت عملية زيارة الهيئات القاعدية ثلاثة أيام بكاملها. وكان الزمن المخصص لكل زيارة نصف الساعة، حيث بلغهم الرئيس خلف أبو السيف بضرورة الإحتفاظ بسرية الإجتماعات وعدم الثرثرة بها. وأن العلاقة التنظيمية من الآن فصاعداً ستكون مباشرة به ولا يجري الإتصال بأي رفيق آخر مهما كانت درجته التنظيمية. أكد خلف بأن هناك محاولات من عناصر مخربة لشق التنظيم، ولكن القيادة حذرة جداً. في الحالات الإضطرارية يجري الإتصال بالرفيق شيخ عواد. نَبَذَ الحاضرون بالإجماع المحاولات الإنشقاقية التي تقوم بها العناصر المخربة وهتفوا بحياة الرفيق الرئيس البطل خلف مراراً وتكراراً وطالبوا بالحكم بالإعدام حتى الموت على المنشقين الخونة.

تمكن الرئيس خلف أبو السيف أن يتصل خلال ثلاثة أسابيع بكافة منظمات القاعدة في البلد وتمكن من زيارة أغلبها. وفي تنقلاته التي قام بها بمنتهى السرية، رافقه عواد والزبانية الخمسة الذين سبق أن صدرت بحقهم أحكام الإعدام. وكان واجب الزبانية الخمسة الذين تمرنوا على القيام بمختلف أنواع

الحركات البهلوانية والقتل والتعذيب، هو التصفية الفورية للعناصر التي لها علاقة ولو بسيطة برؤوس المنشقين الذين، كانوا يريدون السيطرة، كما يقول خلف أبو السيف، على مقدرات الهيئة الثورية.

كان خلف وينادونه عادة بالرفيق خلف، يحمل في جيبه دفتراً صغيراً يحتوي على أسماء وعناوين وأرقام تلفونات مسؤولي جميع اللجان القاعدية. وكان أغلب هؤلاء متفرغين للعمل الحزبي، لا يحق لهم دخول مقرات (الهيئة الثورية) العلنية، ذلك أن التنظيم، رغم كونه يقود الحكم، سري للغاية.

في عمليات الأسابيع الثلاثة، بدأوا بأول عملية كما يأتي:

سيارة النقل (ترانسبورتر) التي تحتوي على ثمانية ركاب من ضمنهم الزبانية الخمسة، السائق، الشيخ عواد وجندي حماية، ترافقها سيارة خلف المتواضعة مع حمايته، تصلان مدينة ب وتقفان في مكان خال. خلف يتصل تلفونيا بالرفيق المسؤول عن تنظيم المدينة، من داخل سيارته. متلقي المخابرة يعرف بأن الشخص الذي يخابره، هو الرفيق خلف، ذلك أنه تسلم قبل يومين إشعاراً بالإستعداد لوصوله، قال بلهجة إحترام:

"نعم سيدي، أمرك"

قال خلف بصوت هادئ:

"سيارتنا القديمة واقفة تحت شجرة توت مقابل مطعم الوفاء. لا تؤخرونا بالشكليات. وقتنا محدود جداً"

قال مسؤول تنظيم المدينة بصوت منفعل:

"خلال خمس دقائق عندكم رفيق"

قال خلف بإرتياح:

"بارك الله فيك. نحن في إنتظارك"

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. كانوا قد أتخذوا أماكنهم

في الباص الصغير يراقبون الشارع الفارغ. سألهم خلف ما إذا كانوا جياعاً أو يريدون تحديد موعد معين لتناول طعام الغداء. اتفقوا بالإجماع على أن يكون الموعد، الثانية بعد الظهر. أراد أحدهم أن يذهب إلى المطعم المقابل لقضاء حاجة، بيد أن خلف أبو السيف سأله ما إذا كان بإمكانه ضبط نفسه لحين الوصول إلى المكان المحدد:

"طبعاً سيدي، بإمكاني أن أنتظر أكثر من ساعة"

قال خلف بزهو:

"بارك الله فيك"

عندها أقبلت سيارة نجدة تابعة للشرطة بسرعة فائقة من جهة مركز المدينة ووقفت هنيهة أمام المطعم ثم أستدارت لتقف جنب السيارتين. وفي أثناء هذا الوقت أنتقل خلف أبو السيف إلى سيارته دون أن يحس به أحد من الجالسين في سيارة النجدة. أشار سائق السيارة، التي تقل خلف، إلى سيارة النجدة أن لا تقترب منها. وحين وقفت، ترجل منها المسؤول الحزبي وهو يلوح بجريدة الجمهورية، وهي الإشارة التي تم الإتفاق عليها قبل يومين. عندما اقترب المسؤول من سيارة خلف، قال له هذا:

"بارك الله فيك يا رفيق، إنها بالضبط ثلاث دقائق. قل للنجدة إننا لا نحتاجها بعد"

بإشارة من المسؤول، تحركت سيارة النجدة بأتجاه المدينة. ظل المسؤول واقفاً أمام الباب من جهة السائق بإنتظار ما يأتي من داخل السيارة. كان الرئيس خلف جالساً في المؤخرة، يحيط به ضابطان مسلحان، بكامل التجهيزات العسكرية وثمة ضابط آخر يحتل المقعد الأمامي جنب السائق. فتح الضابط الجالس وراء السائق الباب وطلب منه أن يقترب. عندها قال خلف بصوت فيه شكوى وعتاب:

"سمعة منظمتكم سيئة يا رفيق. إنها لا تلائم تقاليد مدينتكم الثورية ولا تقاليد حركة الهيئة الثورية. تالي وياكم؟ ما العمل معكم؟"

قال المسؤول وهو يتنفس الصعداء:

"سيدي الرفيق، أسمح لي أن أقول بأن العتب للقيادة. إنهم يحتاجون إلى عين قوية تلقنهم درساً لن ينسوه، وإلا فإنهم سوف يأكلوننا. نحن نستطيع أن ننتقدهم ونفضحهم، أما العقاب الذي يستحقونه فبيد القيادة. أعملوا شيئاً من أجل تنقية الحركة من هوءلاء المنافقين، أيها الرفيق"

أخرج خلف من جيبه، دفتراً صغيراً وراح يكتب فيه بعض الملاحظات. رفع رأسه، وقال:

"أحس في كلامك بحرقة قلب مناضل ثوري. سنعاقب من يستحق العقاب أيها الرفيق. يوم لك ويوم عليك"

قال المسؤول بلهجة قناعة:

"نحن ثقتنا عالية بكم أيها الرفيق"

قال خلف أبو السيف بلهجة تهديد مبطن:

"هل سيحضر الأوباش الأبطال هذا اليوم؟"

"طبعاً رفيق، وبلهفة شديدة. إنهم يهددون القيادة بأسم الديمقراطية. إنهم وقحون وستراهم اليوم بأم عينك"

هز خلف رأسه بإستغراب ممزوج بسخرية:

"أنا مشتاق إليهم جميعاً. هل يكون اللقاء في نفس المكان الذي إلتقينا فيه في المرة السابقة؟ كان ذلك مكاناً جيداً"

أجاب المسؤول وهو يتمنى أن يكون الرفيق خلف أبو السيف قد فهم كلامه وما يريد منه بصورة جيدة:

"نعم سيدي، في المكان نفسه"

قال خلف وهو ينظر في ساعته:

"أنظر رفيق، إننا الآن تحت ضغط الوقت. أمامنا عدة مواعيد مهمة وسوف نبقى عندكم أقصى شيء نصف ساعة ثم نسافر، لذلك لا تفكروا في أمر الغداء"

"ولكن كل شيء جاهز يا رفيق"

"الوقت غير جاهز. حصتنا أعطوها لأحسن الملتزمين بخط الهيئة الثورية العليا. والآن ينتظرك سائق الباص. ونحن وراءكم"

وقبل أن يقول المسؤول شيئاً، تم تشغيل المحرك الذي دفع السيارة إلى الأمام. وأتخذ المسؤول مكانه جنب السائق الذي شغل هو الآخر المحرك. وتحركت السيارتان بإتجاه خارج المدينة.

بعد نحو ربع الساعة وصلت السيارتان إلى منطقة سكنية راقية تحيط بها مجموعة كثيفة من بساتين النخيل. كان البيت الذي قصدته السيارتان يبعد مسافة لا تقل عن كيلو متر واحد من المجمع. ما أن أقتربت السيارتان من سور البيت، إلا وأنفتحت بوابة كبيرة تؤدي إلى كراج واسع تحت الأرض، يحتوي على مجموعة من السيارات الفاخرة. ترجل الركاب بعد أن أتخذت السيارتان مكانيهما في ركن خاص. وبدون ضجة أحتل الزبانية الخمسة منافذ الكراج، بيد أن الرئيس خلف أبو السيف أعطى إشارة بأن يتبعوه إلى قاعة الإجتماع.

كانت القاعة مبنية على أحدث الأسس العصرية بمقاعد مريحة وميكروفونات دقيقة الصنع، تنقل حتى الهمسات إلى أذني المتلقي. كانت القاعة تحتوي على خمسين كادراً محترفاً، جاءوا ليتباحثوا في الشؤون التنظيميةوليرحبوا برئيسهم الجديد الذي تولى في الوقت نفسه منصب السكرتير العام للهيئة

الثـورية العليـا. ومـا أن أتخـذ الرئيس خلف أبـو السـيف مكانـه على الكرسي الخاص به، إلا وبدأ التصفيق الحاد والهتـافات بحياة القائد المحبوب. وفي أثناء ذلك تم إحتلال القـاعـة ومنافذها من قبل الزبانية الخمسة والحماية الخاصة بالرئيس خلف أبو السيف. حاول إثنان من الجالسين في مؤخرة القـاعة، الخروج من البـاب الخلفي بيد أن أحد أفراد الزبانية أعادهمـا إلى مكانيهما.

إفتـتحَ الحفلالمسؤول الأول الذي رافق الضيوف منذ البداية،ووصف اللقاء بالتـاريخي الذي ينعقد لأول مرة بين القيـادة والقاعدة. وقال أنه لا يريد أن يطيل الكلام الذي سيتركه للقائد التاريخي، المناضل، والأب، السكرتير العام للهيئة الثورية العليا ورئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة. وبعد وقفة قصيرة واصل عريف الحفل بصوت جهوري عال:

والآن الرفيق القـائد خلف أبو السيف حفظه الله. قام خلف من مكانه الذي يبـعد ثلاث خطوات من منصـة الخطابة المعدة لوضـعيـتي الجلوس والوقوف، وأتخذ مكانه على الكرسي المخصص له. كانت علائم وجهه متـجهمة، تتطاير منه الشرر. تناول جرعة من الماء وأعتدل في جلسته متخذاً وضعية مريحة. خيم صمت مطبق على جو القاعة:

"رفاق: إنني جئتكم بتخويل من قيادة الحركة بعد أن تسلمت هذه سيلا من الشكاوى من قواعد الحركة المخلصة لخطنا الثابت الذي لن ننحرف عنه قيد شعرة. إنهم يريدون منا أن نكون ليبراليين أو نكون ديمقراطيين ليبراليين. لا فرق بين الأثنين: الليبرالية، حسب فهمنا تعني أمور تائهة. وإذا دمجنا الكلمتين وصنعنا منها جملة مفيدة سنحصل على ما يلي:

أمور الديمقراطية التائهة. وإذا ترجمنا الجملة بكاملها إلى اللغة العربية، سنحصل على ما يلي:

أمور حكم الشعب التائهة،

بشرفكم وشرفكم الحركي، هل هذه جملة مفيدة، رفاق؟

صدرت موجة إحتجاجشديدة من القاعة:

(كلا يا رفيق كلا... إنها ضحك على الذقون)"

قال خلف بلهجة منشرحة:

"بارك الله فيكم لإحساسكم الثوري. إن هؤلاء أذاً يريدون أن يضحكوا ليس على ذقن الهيئة الثورية العليا فحسب، بل على ذقن حركتنا الثورية برمتها. ما هو موقفنا تجاه مثل هذا الوضع؟ لنكن ديمقراطيين، بل وأكثر ديمقراطية من الأغريق القدماء. ونعامل رفاقنا جميعاً معاملة ديمقراطية، يعبرون عن آرائهم بمنتهى الديمقراطية والحرية.

إنني جئت إلى هنا بالدرجة الأولى من أجل الإستماع إلى الآراء الجديدة التي لا شك تدفع حركتنا إلى أمام، بشرط أن لا يجري التبشير بها في خارج صفوف تنظيمات الحركة أو تؤدي إلى التكتلات والإنشقاق عن التنظيم الأم، علماً إننا سبق وأن وضعنا اليد على تحركات إنشقاقية سواء في القيادة أو في القاعدة. وسوف تكون محاسبتهم عسيرة.

والآن أريد أن يسجل الرفاق الذين يريدون التكلم أسماءهم. وأريد منهم أن لا يخفوا عنا أي شيء. إننا لا نريد أن نلعب لعبة القطة والفأرة"

رفع عدة حاضرين من المقاعد الخلفية أياديهم بغية التسجيل للكلام. وراح المسؤول الأول يسجل الأسماء التي بلغت السبعة. عندها طلب خلف من المسؤول الأول أن يرافقه إلى الحمام لقضاء حاجة. عندما أصبحا خارج القاعة، قال المسؤول الأول لخلف، أنه بعد قضاء حاجته، يجب أن يأخذ من وقته عشر دقائق لأمور مهمة تتعلق بهؤلاء السبعة وغيرهم، قال خلف:

"أنا خرجت أيضاً للسبب نفسه، هيا تكلم"

قال المسؤول الأول بصوت خافت:

"من المستحسن أن نواصل كلامنا في الغرفة الخالية"

قال خلف بزهو وهو يخطو عتبة باب الغرفة الخالية:

"أموركم الصيانية جيدة"

"سوف تتحسن أكثر بفضلكم رفيق، الآن أريد أن أبدي بعض الملاحظات على السبعة الذين طلبوا الكلام"

قاطعه خلف قائلاً بإستعجال:

"إختصر رفيق"

"هؤلاء السبعة أيها الرفيق أغتصبوا تنظيماتهم ولا يعترفون بالقيادة بتاتاً، لذلك لا يفيد معهم سوى القوة. اليوم يجب أن تحسموا الأمور معهم. إنهم أسوأ من أعدائنا الحقيقيين"

قال خلف وهو في إستعجال من أمره:

"الآن يجب أن نرجع إلى القاعة، قل لي هل تريد أن نرميهم هنا في الغرفة الملحقة بالقاعة، أم نصفيهم بعد الخطف في مكان مجهول؟"

قال المسؤول الأول وهو يتنفس الصعداء:

"الخيار الثاني أعقل يا رفيق"

"تدلل رفيق"

وتوجها إلى القاعة، حيث أتخذ كل واحد منهم مكانه على الكرسي المخصص له. أخذ خلف الورقة من المسؤول الأول وراح ينظر إليها بدقة. سأل موجهاً كلامه إلى القاعة:

"هل هناك من يحب أن نسجل أسمه؟"

أنتظر هنيهة دون أن يطلب أحد تسجيل أسمه للمناقشة. قال خلف:

"هناك مجال لتسجيل الأسماء خلال المناقشة أيضا، حتى لا يتهمنا أحد

بالدكتاتورية أو الإنفراد بالرأي"

قبل أن ينادي خلف أبو السيف على الأسم الأول، أخرج من جيبه دفتراً صغيراً خاصاً بالعناوين وراح يبحث عن الأسم تحت حروف الألفباء بشكل غير ملفت للإنتباه. وجد الأسم وبجانبه ملاحظة بين قوسين تقول: (منشق، خطر جداً. إتصال مباشر بالرؤوس). وضع الدفتر مفتوحاً على المنصة ونادى على الأسم. حين وقف في مكانه بنوع من التحدي، قال خلف:

"الآن، الكلام لك. تفضل خذ حريتك"

قال الأسم الأول:

"قبل كل شيء نرحب بكم أيها الرفيق ونرجو أن تنقلوا تحياتنا إلى قيادة الهيئة الثورية العليا، راجين أن تتخذوا ملاحظاتنا أساساً موضوعياً لتخليص البلد من التفكك والحرمان والإنهيار والإتيان بقيادة مثقفة، غير متخلفة، تتماشى مع روح العصر التي تتطلب ثقافة واسعة لبناء البلد وعدم زجه في الحروب العدوانية التي لا تجلب لنا سوى الخراب والأطلال. ولا تتحقق هذه الأماني إلا بتطبيق النظام الديمقراطي وذلك بفسح المجال أمام الأحزاب والكتل الأخرى وتوحيد عملها ضمن جبهة وطنية تقدمية، تقود البلد من خلال حكومة تمثل كافة الأطياف والفئات والطبقات"

تصفيق حاد من نصف الحاضرين.

قال خلف وهو يهز رأسه:

"كملت كلامك رفيق؟"

"نعم رفيق"

قال خلف بحدة:

"هل هذا رأيك الشخصي أم وراءك جماعة؟"

أجاب الأسم الأول بتحد:

"هذا هو رأي أغلبية قواعد الحزب"

"هل قمت بعمل إحصائية"

"لا داعي لعمل أي إحصائية. قواعد المنظمة كلها متذمرة من تصرفات القيادة"

قال خلف أبو السيف وهو يحاول التغاب على غضبه:

"هل أنت مصر على آرائك؟ أم لك إستعداد للتنازل عنها وتقديم إعتذار شخصي للحاضرين في هذا اللقاء مع تقديم نسخة منه إلى قيادة الهيئة الثورية العليا. هذه آخر فرصة أمامك وأعلم أن أفكارك مستوردة من بعض الجهات العميلة والأجنبية التي تريد أن تسيء إلى وحدة بلدنا. أنت تمثل رأي الرتل الخامس ولك علاقة تامة بالمنشقين الخونة"

أراد الأسم الأول أن يتكلم، بيد أن خلف أبو السيف قام بيده اليسرى بحركة، هجم على أثرها ثلاثة من أزلام الزبانية، عليه ودفعوه إلى الغرفة الملحقة بالمسرح. ولم تمض هنيهة، إلا وأهتزت القاعة على دوي صلية نار من بندقية رشاشة، خرج بعدها أفراد الزبانية الثلاثةبهدوء كأن شيئاً لم يكن. قال أقدمهم موجهاً كلامه إلى الرئيس خلف أبو السيف:

"سيدي، الميت هجم على صاحبنا لينتزع منه سلاحه، يبدو أنه أراد أن ينتحر، فسهلت أنا له العملية"

قال خلف بلهجة منتصر في معركة حاسمة:

"برافو رفيق، حسناً فعلت"

ثم إلتفت إلى مسؤول المنظمة سائلا:

"هل كان صاحبكم مصاباً بمرض نفسي؟"

أجاب المسؤول وهو يتنفس الصعداء:

"قل أمراض نفسية يا سيدي الرئيس. إنه إنسان غير طبيعي. حاول أن

ينتحر أكثر من مرة ولكنه نجا في كل مرة بأعجوبة"

"خذوا الجثة إلى الطب العدلي. أفهموهم بمسألة الأمراض التي كان يعاني منها. وقولوا لهم أن يصدروا شهادة الوفاة في أسرع وقت ممكن. ورغم كل شيء، يجب على منظمتكم أن تقوم بالمساهمة في تأبين الفقيد، وأكدوا على مسألة هجومه على ضابط حماية الرئيس ومحاولة تجريده من السلاح"

أعلن عريف الحفل عن وقوع حادث مؤسف أدى إلى مقتل الطالب (....) الذي هجم على أحد أفراد حماية الرئيس لنزع سلاحه، الأمر الذي أدى إلى أن يطلق عليه الرصاص الذي أرداه قتيلاً. إننا إذ ننعي الفقيد بمزيد الأسى والأسف، لابد أن نشير إلى أن الفقيد كان يعاني من مرض المطاردة النفسي إلى جانب الشيزوفرانيا (إنفصام الشخصية) رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

والآن أيها الرفاق نواصل نقاشنا ضمن اللقاء التاريخي. وليتفضل السيد الرئيس. قال خلف:

"إذا جاء القضاء والقدر، فإن أي قوة في العالم لا تستطيع صده. وينبغي أن لا يكون الموت عائقاً أمامنا أبداً. والآن نبدأ بالأسم الثاني"

قام الأسم الثاني في مكانه وهو يرتجف من الخوف. قال والكلمات ترتعش في فمه:

"سأتكلم بصراحة. وأقول بأنني كنت مخدوعاً بكلمات الفقيد. لقد أستيقظ ضميري. أنا سأبقى مخلصاً للرفيق القائد خلف أبو السيفين والهيئة الثورية العليا. وإني مستعد كل الإستعداد للإدلاء بشهادتي والإستماع لشهادات الشهود أمام الهيئة التحقيقية والإعتراف على كل ما أعرفه"

صحح أحدهم قائلا:

"أبو السيف وليس سيفين"

قال خلف وهو يبتسم:

"لا تقاطع كلامه، إنه حر في تسمية قائده. وإنني أسمح لنفسي أن أهنئه لإستيقاظ ضميره وشجاعته في إنتقاد نفسه. هذه صفة تتسم بالشجاعة، ولكن عليك أن تتصف بالشجاعة نفسها أمام الهيئة التحقيقية التي ستزوركم قريبا"

الخمسة الآخرون. ممن ينتمون إلى المنشقين المعارضين، أستغنوا عن المساهمة في النقاش على أن يحضروا في الموعد الذي سيحدد للتحقيق مع المعارضين بخصوص علاقتهم بالمنشقين في داخل القيادة.

نظر الرئيس خلف أبو السيف إلى ساعته، قائلاً بدهشة:

"الوقت أخذنا. كان من المفروض أن نبقى عندكم نصف الساعة فقط"

عندما همّوا بترك القاعة، حاول بعض الحاضرين للقاء، مصافحة الرئيس خلف وأخذ الصور معه، بيد أن أفراد الحماية، ولاسيما الزبانية الخمسة، منعوهم من أي إحتكاك به بحجة ضيق الوقت. وحين نزلوا السلم إلى السرداب، وضع خلف ساعده على رقبة عواد وهو منشرح الأسارير قائلاً:

"ما رأيك يا شيخ عواد في مجمل العملية؟"

أجاب عواد بحماس:

"رائعة، رائعة جداً. هكذا تكون القيادة وإلا فلا. إنها طريقة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. العصا لمن عصى. إن لم تكن ذئبا أفترستك بنات آوى"

"إذاً أنت موافق على كل شيء"

قال عواد بقناعة:

"طبعاً بالتأكيد. إن الوضع يجبرك على إستعمال القوة. هو يريد أن ينتزع منك السلطة بالقوة، فماذا يكون موقفك منه؟ هل تبقى تتفرج عليه بإنتظار كيفية ذبحه لك، وتستلم السلطة منك؟"

علق خلف بإرتياح لكلام عواد:

"لا تساهل بعد الآن. اللقاء القادم سيكون أكثر دموية. كان من المفروض أن

ننهيهم اليوم سبعتهم بصلية واحدة، ولكننا راعينا تحذيرات ما يسمى بمنظمات حقوق الإنسان ولا سيما بما يتعلق بالطلاب"

قال عواد بلهجة أبوية:

"المبالغة في إستعمال القوة قد تؤدي إلى نتائج فردية وخيمة، يجب تجنبها إن أمكن. ولكن لا يجوز الإستغناء عن قوة السلاح"

"سوف تستفيد منك القيادة يا شيخ عواد"

"وسأستفيد أنا أكثر"

عندها أتخذوا أماكنهم في السيارتين، اللتين لا يبدو على إحداهما أنها تقل رئيس دولة. بعد أن تركوا المجمع السكني وبساتين النخيل المحيطة به، أمر الرئيس خلف أبو السيف الوقوف في مكان منبسط لقضاء إستراحة أمدها عشر دقائق، للتحدث عن بعض الأمور المتعلقة بإدارة سفرتهم وتقييم اللقاء الأخير. ووضع خطة للقاء القادم الذي من المفروض أن يبدأ بعد تناول طعام الغداء في مطعم يقع على الشارع العام. وقفت السيارتان، بناء على أمر الرئيس خلف في مكان خاص بوقوف السيارات. ورغم عدم وجود أي سيارة أخرى، تم إحتلال المكان الذي كانت تقع تحت ظلال أشجار كالبتوس، زرعت بلا عناية. قال عواد وهو يراقب الأشجار:

"هل هناك ضرورة لإحتلال المكان؟"

أجاب خلف الذي كان واقفاً بالقرب منه:

"نعم يا شيخ عواد. السلاح يعني الحماية والحماية تعني السلاح، وكلاهما يعني الهيبة. والسلطة التي ليست لها هيبة لا نفع فيها. أينما حلت الدولة، يجب أن تكون هناك حماية، وإلا فإن أبسط راع يمكن أن يتحدانا بكسريته"

قال عواد بإعجاب:

"هذا كلام معقول، سيدي الرئيس. خلال أيام قليلة أستفدت منك الكثير"

قال الرئيس خلف بزهو:

"والآن لنتعلم من الشعب ولنر إنطباعاتهم حول اللقاء"

وراحوا يعبرون عن إنطباعاتهم بسرعة. وتم الإجماع على أن اللقاء كان جيداً وكان موقف الحماية جيداً جداً. شيء واحد يؤخذ عليه وهو الإكتفاء برمي معارض واحد فقط، إذ كان من المفروض رمي الأشخاص السبعة جميعاً. أنهى خلف المناقشة قائلاً:

"القاعة ليست مكاناً للرمي وتنفيذ حكم الإعدام، بل مكاناً خاصاً للمناقشات العلمية والندوات، مع ذلك وافقنا على إنهاء العدو المفضوح، الذي كان صلفاً جداً أما البقية الباقية، عدا الذي إنهار، فتقرر مصائرهم من قبل الهيئة التحقيقية الخاصة التي ستزور كافة التنظيمات. والآن، هيا إلى مقاعدكم"

٢١

خلال فترة غيابه عن الظهور أمام الرأي العام، التي أستغرقت أكثر من شهر ونصف الشهر، تمكن خلف أن يطلع على كثير من الأمور التي يمكن لها أن تقرر مصير إنسان وضعه القدر على دفة الحكم. لقد تمكن أن يتغلب على أحد نواقصه، ألا وهو القراءة. فقد عثر في مكتبة مكتب رئاسة الجمهورية على كتاب بعنوان (الأمير) للكاتب الإيطالي ماكيافيلي، ظنه في باديء الأمر رواية للأحداث. وبدأ يقرأ فيه. آنذاك تبين له أن الكتاب لا علاقة له بالرواية، ولكنه شيق ومفيد، بل ضروري لرجل السياسة الذي يريد أن ينجح في عمله مهما كان الثمن وبأي وسيلة كانت. وكان أن تعلق بالقراءة عن طريق هذا الباب. ووجد أن الكتاب يلائم نهجه في الحياة ولا سيما مقولته التي أعجب بها أشد العجب (الغاية تبرر الوسيلة).

ومما أستفاد منه، فائدة كبيرة إكتشافه لعناصر مخلصة للتنظيم، أهملت وأبعدت عن أجواء الحركة لأسباب شخصية بحتة غير مبدئية من أمثال عواد.

قبل أن يلتقي برفاقه في قيادة الهيئة الثورية العليا، أصدر بعض المراسيم الجمهورية الضرورية، منها: تعيين الشيخ عواد جدوع مديراً عاماً للأمن ومستشاراً خاصاً لشؤون الريف لدى رئيس الجمهورية. إلغاء حماية الرئيس السابق وتعيين الزبانية الخمسة لحماية الرئيس الجديد. إناطة وزارات الداخلية والأمن القومي والمالية والدفاع إلى رئيس الجمهورية بالوكالة.

كان مكتب قيادة الهيئة الثورية العليا في زمن الرئيس السابق مرزوق يحتوي على أحد عشر عضوا، ولكن بعد تخلي رئيس الجمهورية السابق عن واجباته لأسباب مرضية، تقلص العدد إلى عشرة أعضاء. وفي حالة إضافة رفيق جديد للقيادة، يجب أن يوافق عليه ثلثا عدد الأعضاء. كانت الهيئة لم تجتمع منذ ثلاثة أشهر في حين أنها يجب أن تجتمع مرة في الأسبوع.

بعد أن تجمعت النقاط ضد خلف منها نصب نفسه رئيسا للجمهورية. كبت الحريات الديمقراطية في البلد وتحريك الإعلام بإتجاه تقوية سياسة العسكرتارية وتطوير الجيش بسياسة المليون جندي وعقد صفقات لبناء السلاح النووي. إيقاف المشاريع الإنتاجية التي أدت إلى إنتشار البطالة وتغلغل الفساد في مفاصل الدولة والتصرف بتحديد أسعار النفط. إنتهاج سياسة عدوانية في المنطقة بعد هذه النقاط وغيرها قررت الهيئة القيادية عقد الإجتماع خلال أسبوع مهما كان الأمر. وتم تبليغ خلف بالموعد وبالنقاط التي يجري بحثها في الإجتماع بما فيها إنتخاب رئيس للجمهورية.

كان خلف عند إستلام الدعوة للإجتماع، قد إنتهى من تأسيس تشكيلة عسكرية جديدة من جماعته بدلاً من الحرس الجمهوري القديم الذي وزع أفراده إلى وحدات مختلفة متباعدة وأضاف إلى حمايته الشخصية خمسة أفراد آخرين سبق أن تم تدريبهم مع الزبانية الخمسة على يد ضابط فرنسي ساهم في حرب فيتنام.

نظر إلى ورقة الدعوة الرسمية التي جلبها مراسله وأبتسم بسخرية وهو

يتذكر مقولته: (أتغدى بكم قبل أن تتعشوا بي). وبعد أن صرف مراسله، خابر سكرتيرة المكتب وأعلمها بإستلام الدعوة مع الشكر وأكد أنه سيحضر حتماً. وتم الإتفاق على أن يكون الإجتماع في مكتب رئاسة الجمهورية في تمام الساعة العاشرة صباحاً.

تنفس أعضاء الهيئة القيادية الصعداء عندما علموا بأن رفيقهم خلف سيحضر غداً في الإجتماع، الذي أجمعوا كلهم على أنه سيكون مصيرياً. كانوا قد إلتقوا في منزل أحدهم للتشاور حول مصير البلد والتنظيم. أرسلوا محتوى سياستهم الجديدة ضمن نقاط البحث إلى خلف الذي كان يراقب حركاتهم وإتصالاتهم ويتهمهم بالإنشقاق على الخط الذي يقوده هو. كانت الأكثرية المطلقة تقف إلى جانب السياسة الجديدة. وتركوا مسألة التصويت للهيئة القيادية. وكانوا متأكدين من فوز كتلتهم المكونة من ثمانية أعضاء من مجموع عشرة (الأرقام من واحد إلى ثمانية + الرقم تسعة + الرقم عشرة "خلف" + الرقم أحد عشر "مرزوق" رئيس الجمهورية السابق والأمين العام للتنظيم سابقاً -لا يحضر- . وعلمت مجموعة الثمانية بأن الرقم تسعة، سيحتفظ بصوته دون أن يصوت بلا أو نعم.

عرف خلف باللعبة التي أعتبرها ساذجة. وعلق بعض الأوسلط أكثر من مرة على كون سياستهم الجديدة لا تلائم أوضاع البلد. وإن الحضارة الشرقية لا يمكن مقارنتها مع الحضارة الغربية التي هي صناعية بحتة. وإن الديمقراطية التي يتشدق بها الأوروبيون لا يمكن تطبيقها في بلد مثل السودان أو اليمن، ذلك أن الأصوات موزعة مقدماً بين العشائر أو المذاهب. ولذلك صرح قبل أعوام طوال بأن مثل هذه السياسة فيها إعوجاج لا يستقيمه إلا سيفه. ومنذ ذلك اليوم يطلق عليه لقب (أبو السيف). وهو فخور جداً بهذا اللقب.

بعد إنتهاء الدوام الرسمي في الساعة الرابعة بعد الظهر، تم تبديل الحراس، بحراس ليليين يداومون حتى العاشرة ليلاً، على أن تستلم المناوبة بعده فرقة

كوماندو ترتبط بخلف. وقسّم القصر الجمهوري إلى أربعة قواطع وزع على كل قاطع وحدة مزودة بطقم كامل جاهز للقتال، واجبه الرئيسي إلقاء القبض على كل من يدخل القصر مهما كان. تم إنجاز العملية بمنتهى السرية. وربض هو وعواد في غرفة صغيرة لا يعرف بها سوى رؤساء الوحدات الأربعة. وأما الزبانية الخمسة فتسلمت مهمة حمايته الشخصية.

كان كل إجراء يقوم به خلف في توزيع الوحدات والتشكيلات العسكرية وعلاقتها بالتنظيمات المدنية يعتبر نافذ المفعول ولا يعرض للمناقشة. كانت له سلطة مطلقة يستمدها من كونه مسؤولاً عن الخط العسكري الذي لا يمكن تغييره إلا من قبل المؤتمر الوطني العام للتنظيم.

في حوالي الساعة العاشرة مساءً إتصل تلفونياً برفيقه عضو الهيئة القيادية (الرقم تسعة) عارضاً عليه رغبته الكبيرة وإشتياقه للقاء به في كل الأحوال. قال رفيقه من الطرف الثاني وهو يستغرب من هذه المفاجأة التي تصور أن لها علاقة بإجتماع يوم غد:

"ألم تجد وقتاً أفضل من هذا الوقت يا رفيق؟ إننا سنلتقي غداً في كل الأحوال"

قال خلف بإصرار:

"لا حجة ولا هم يحزنون. إننا قررنا أن نلتقي بك هذا اليوم في كل الأحوال. وهنا صديق قديم يفتقدك منذ ربع قرن. ألا تريد أن تراه؟"

سلم سماعة التلفون إلى عواد. وراحا يتبادلان التحيات والعتاب. وعندما طال الحديث، أخذ خلف السماعة من يد عواد وهو يقول:

"سوالفكم ما تنتهي"

ثم وجه كلامه إلى الطرف الآخر:

"والآن، ماذا قررتم؟"

"يجب أن نلتقي"

"تأتوننا أم نأتيكم؟"

"طبعاً تأتوننا أنتم. عواد يبقى عندي. أعرف أنت مشغول هذه الليلة"

"تقدر ظروفي إذاً"

"هل هذا يحتاج إلى سؤال؟"

"أنت حبيبي لم تخذلني أبداً. على فكرة، أحتاجك يوم غد"

"ولا يهمك، حاضر بالخدمة. نحن بإنتظاركم"

"خلال نصف ساعة عندكم. ماذا نجلب معنا، كباب أم دجاج مشوي أم أي شيء آخر؟"

"كل شيء موجود. المهم تصلون بسلامة"

تأكد خلف من أن الواجبات قد وزعت بشكل تام لا نقص فيها. وكان قد سبق له أن درس النقاط التي يفترض بحثها في إجتماع يوم غد مع عواد. ووجدا أنها كلها هراء لا يمكن تطبيقها في البلد ناهيك عن مناقشتها مع هؤلاء المنشقين الذين لا هم لهم سوى السيطرة على دفة الحكم. وناقشا مسألة إنعقاد إجتماع يوم غد والجدوى منه. وقررا إلغاءه وإلقاء القبض على الأعضاء الثمانية بتهمة الإنشقاق والقيام بمحاولة إنقلابية ومن ثم تحويلهم إلى محكمة الثورة لينالوا عقابهم العادل. وبعد أن درسا الموقف الترددي المتذبذب لصاحبهم (الرقم تسعة)، قررا مفاتحته بكل صراحة لتحديد موقفه الذي يتوقف عليه مصيره النهائي. وعندما توقف خلف عند هذه النقطة وأبدى تحفظه تجاه (الرقم تسعة)، طمأنه عواد وطلب منه أن يتركه له. ولما كان خلف شكوكاً بطبيعته، لذا طلب من عواد أن يكون حذرا مع (الرقم تسعة) ولا يفتح أمامه أوراقهما. قال عواد بثقة الواثق من كلامه:

"سيدي الرئيس. إنك لا تعرف صاحبنا. إنك إذا أرت كسبه نهائياً إلى

جانبك، فأفتح أوراقك كلها أمامه، آنذاك يمنحك ثقته المطلقة. قلت لك أن أترك موضوع صاحبنا لي أنا. يكفي أن يراني معك"

قال خلف بلهجة من زال تحفظه:

"إذاً يمكن إعتباره واحداً منا"

"بالضبط يا سيدي الرئيس"

"انا أحتاجه فعلاً، أمامه واجبات كثيرة جداً"

"إنه عضيدك"

أخذ خلف نفرين من حمايته مع سائقه الخاص وسيارة نجدة. وحين بلغوا الهدف، طلب منهم أن ينصرفوا على أن يرجعوا إليه بعد ساعتين. عواد و (الرقم تسعة) دخلا في عناق طويل، دل على عمق صداقتهما التي تعود إلى عملهما المشترك في مد جذور حركتهما التنظيمية بين الفلاحين وفقراء الريف بنكران ذات وإخلاص وقناعة ذاتية، حيث كان العمل في تلك الظروف القاسية إختيارياً، صادراً عن الغيرة والحماسة الوطنيتين دون النظر إلى المصلحة الشخصية والأنانية.

بعد تناول طعام العشاء قال (الرقم تسعة) بمسحة عتاب أنه كان قلقاً جدا لإنقطاع أخبار الرفيق خلف الذي أختفى بشكل غريب. وظل يسأل هنا وهناك وكل من يعرفه، ولكن دون جدوى. والمشكلة هي أنه لم يترك خبراً، يدل على أنه ما زال يعيش. وراحت أنواع الشائعات تتسابق في الظهور، والآن الحمد لله للسلامة. إعتذر خلف لموقفه الذي كان خارج إرادته بسبب مرضه النفسي الذي إكتشفه الطبيب وطلب منه أن يترك صخب المدينة والركون إلى الريف بعيداً عن الناس ومناقشاتهم الصاخبة. وها إنه بعد خروجه من عزلته يتوجه إليه، دون أي صديق آخر. قال خلف وهو يرتشف الشاي:

"كلمات الغزل والمحبة لا تنتهي ونحن أمامنا كومة من المسائل التي ستحدد

مصائرنا، كما إننا نجلس تحت ضيق الوقت. أمامنا ساعة ونصف، ولذلك أرى أن ندخل الموضوع دون أي تأخير"

سأل الرفيق (الرقم تسعة) بفضول:

"هل يمكنني أن أفهم، بأن الرفيق عواد قد عاد إلى نشاطه السابق في المنظمة ومن هو الرفيق الذي عثر عليه؟"

قال خلف بزهو:

"أنا عثرت عليه أيها الرفيق. وجلبته لك كي تقول لي رأيك فيه. إننا أمام تغيرات جذرية في التنظيم. هل تعتقد أنه بإمكانه إستيعاب التطورات المنتظرة"

قال الرفيق (الرقم تسعة) بلهجة إعتزاز:

"إن عرضك لتقديم الكادر بهذا الشكل هو بحد ذاته ثورة. ومبعث هذه الثورة هو أنت. وكل شيء جديد يأتي منك. إن معدن الرفيق عواد من ذهب ولهذا السبب أزاحته العناصر الإنتهازية بكل وقاحة من صفوف التنظيم. مرحباً بك في صفوفنا رفيق عواد.."

قاطعه خلف مبتسماً:

"الشيخ عواد رجاءً. غيرنا اللقب لأسباب تاكتيكية، والآن أريد أن أعرف رأيك بخصوص إجتماع يوم غد. هل تحضر؟ وما هي تصوراتك بخصوص نقاط البحث"

قال (الرقم تسعة) بحيرة:

"الحقيقة يا رفيق أنا في حيرة من أمري، حتى هذه اللحظة لم أتوصل بعد إلى قرار نهائي بهذا الخصوص. إن مجمل الأوضاع في التنظيم لا يعجبني. بدأنا ندخل مرحلة صراعات شخصية على السلطة. وأما بخصوص سؤالك حول نقاط البحث، فأسمح لي أن أقول بأنها تشبه نقاط بحث محضر خلية شيوعية"

قال خلف:

"هل تنصحنا بالحضور أم المقاطعة؟"

"كلاهما مشكلة تجلب المخاطر"

إلتفت خلف إلى عواد قائلا:

"شيخ عواد، لديك تجارب كافية مع المنظمة. ماذا تقول أنت؟ هل نحضر الإجتماع أم نقاطعه؟"

قال وهو ينظر إلى الأرض، كما لو أنه يستمد أفكاره منها:

"هذا السؤال يحتاج إلى جواب طويل، ولكننا يمكننا أن نقول باختصار بأن الحضور يعقد المشكلة، ذلك أننا سنكون في داخل عملية إنفجار قد تحرقنا جميعاً. هناك، من حيث نريد أو لا نريد عملية إنشقاق واضحة، يجب على كل واحد منا أن يحدد موقفه منها. إما مع أو ضد لا ثالث بينهما"

توقف عواد عن الحديث وبدا كما لو أنه أنهى كلامه. هكذا تصور خلف الأمر وقال:

"شيخ عواد، بينك وبين الحقيقة خطوة واحدة، لماذا وقفت في مكانك"

قال عواد:

"لا أستطيع أن أدخل بدون أن تتم تزكيتي، فهل أنتما موافقان على دخولي؟"

أجاب خلف فوراً:

"أنا موافق والباب مفتوح أمامك كما سبق وأكدت لك. بقي أن نسمع رأي رفيقنا (الرقم تسعة). هل أنت مع أم ضد عودة الرفيق عواد إلى التنظيم؟"

أجاب فرحاً ومبتهجاً:

"أنا أوقع بعشرة أصابع والباب مفتوح أمامك أيها الرفيق"

قال خلف والنشوة تغمره:

"الآن أصبحنا جبهتين، نحن الأقلية وعددنا ثلاثة رفاق وهم الأكثرية وعددهم ثمانية إمعات، فما هو رأيكم الآن، نحضر الإجتماع أم ننسفه؟"

قال الرفيق (الرقم تسعة):

"إذا كانت ثمة إمكانية مضمونه للنسف، فلينسف في أقرب وقت ممكن لنتخلص من دوخة الرأس التي بدأت تتلف أعصابنا"

وثب كل من خلف وعواد من مكانيهما وراحا يعانقان الرفيق (الرقم تسعة) بشدةويكرران:

"برافو رفيق برافو.. هذا ما كنا نتوقعه منك..إنك قلبت الموازين لصالح الحركة. غداً ينسف الإجتماع الإنشقاقي الإنتهازي إن شاء الله"

٢٢

حضر الأعضاء الثمانية (العضو رقم ١ إلى العضو رقم ٨) إلى القصر الجمهوري في تمام الساعة السابعة والنصف على أمل عقد الإجتماع الإعتيادي للهيئة الثورية العليا والذي تم الإتفاق عليه مع خلف أبو السيف، وذلك لوضع أستراتيج جديديلائم الأوضاع الجديدة ويتماشى مع تطوراتها، على أن تجري محاسبة الرفيق خلف أبو السيف للتصرفات الفردية الخطرة التي وضعت التنظيم على حافة هاوية الإنشقاق.وكان المبدأ الذي تم الإتفاق عليه لحل الأزمة التي يمر بها التنظيم، هو اللجوء إلى إجراء إنتخاب ديمقراطي للإتيان بقيادة جديدة تقوم بتهيئة الأجواء لعقد المؤتمر الوطني الموسع.

كانت البوابة الرئيسية للقصر مفتوحة، يحرسها خمسة أفراد من شرطة القصر كالعادة. كان الأعضاء الثمانية قد جاءوا بسياراتهم الشخصية. تم أداء مراسيم التحية كالعادة. كانت العادة الجارية من قبل هي أن تدخل السيارة إلى الكراج الواقع في السرداب لإتخاذ مكانها المخصص الذي يحمل رقم السيارة. وبعد أن يترجل صاحبها، يتوجه إلى المصعد الذي يؤدي إلى

الأروقةالفوقية. كانت ثمة مفرزة صغيرة تحرس مدخل الكراج. أوقفت المفرزة السيارات التي بلغ عددها النهائي الثمانية. وطلبت من ركابها أن يترجلوا عن سياراتهمويستعملوا الباب المؤدي إلى السلالم العادية والتوجه إلى غرفهم. ظن الثمانية أن هناك خللاً في المصعد. ظلوا واقفين في أماكنهم يستطلعون من يخبرهم بما حصل. جاء شرطي من المفرزة بإتجاههم وطلب منهم أن يتركوا المكان قبل أن يأتي مسؤول المفرزة ويهينهم. قال العضو رقم ١ وهو ينهر الشرطي:

"أنتم تزدادون وقاحة يوماً بعد يوم. من أنت كي تتكلم معنا بهذه اللهجة؟"

قال الشرطي بأدب:

"العفو أستاذي، أنا حذرتكم من وصول رئيس المفرزة لا أكثر"

وفجأة ظهر عريف المفرزة فعلاً، كما لو أنه خرج من باطن الأرض، وهو يلوح بهراوة غليظة ما لبث أن هجم عليهم، يوزع عليهم الضربات بهراوته ورجليه شاتماً إياهم بمختلف الشتائم البذيئة، دون أن يأخذ بنظر الإعتبار تأكيداتهم بأنهم الأعضاء الشرعيون في الهيئة الثورية العليا. عندما إجتاز آخر واحد منهم، الباب المؤدي إلى السلالم، أغلقه العريف وهو يكلم نفسه:

"روحوا، ضرب الدونكيات هناك"

أستلمتهم مفرزة أخرى، كانت تنتظرهم في مدخل السلم. قادوهم بالضرب المبرح عبر السلالم الضيقة، إلى أن أوصلوهم إلى الطابق الثالث، حيث الغرف الإنفرادية الضيقة. وتم توزيعهم هناك على ثماني غرف.

وجهت إليهم تهمة خيانة التنظيم والوطن. ولما كان القضاء مستقلاً في جمهورية خلف أبو السيف، لذا أستدعى رئيس الجمهورية المدعي العام للدولة لأتخاذ الإجراءات اللازمة لتوقيف هؤلاء الخونة إلى إشعار آخر. وعندما إعترض المدعي العام على جملة "التوقيف إلى إشعار آخر"، كونها غير قانونية، طلب خلف تغيير القانون. ولما كان القانون لا يمكن تغييره إلا بتغيير الدستور،

كما تفضل المدعي العام، طلب خلف تغيير الدستور، طالباً جلبه إليه. ولعدم تطويل المسألة والإكتفاء بحلها بطريقة غير بيروقراطية، تم الإتفاق على إضافة عبارة:"التوقيف إلى إشعار آخر..." . قال حاكم التحقيق الذي كان يراقب سير العملية بعدم إرتياح:

"هذا يعني إننا نحكم على هؤلاء بالسجن من الآن وإلى الأبد"

نظر إليه المدعي العام بغضب، قائلاً:

"أسكت، لا تتدخل فيما لا يعنيك"

وقبل أن يترك المدعي العام مع شلته مكتب رئيس الجمهورية، سأله هذا عن رأيه في كيفية التعامل مع هؤلاء وإستدراجهم للتعاون والتخلص من مبادئهم الهدامة. قال المدعي العام أنه من خلال تجربته الطويلة في القضاء، يرى ضرورة تقديم إعتذار للإعتداء الذي تعرضوا له. وبعد تخلصهم من الصدمة والحالة النفسية المضطربة، يمكن التحدث معهم بإتجاه إعطائهم فرصة لتصحيح أفكارهم والإنسجام مع الخط الذي تتطلبه الثورة. وبعد هذه الإجراءات بأيام، يمكن توزيع أوراق وأقلام عليهم ومطالبتهم بكتابة نص يتضمن رأيهم في مجمل العملية وتبيان موقفهم من التعاون أو عدمه.

كان خلف يحاول بكل إمكاناته كسب الثمانية أو على الأقل بعضهم إلى جانبه وذلك للإستفادة من شعبيتهم وتجاربهم، بيد أنهم لم يستجيبوا له وظلوا متمسكين بآرائهم ومواقفهم. ورغم عدم إستجابتهم لعروضه، وزع عليهم الأوراق والأقلام، طالباً منهم تسجيل ما يدور في أذهانهم من الخواطر والأمنيات على الورق بكل حرية ودون ذكر الأسم. كما ويمكن لكل فرد إرجاع ورقته البيضاء خالية من الكتابة. على أن تكون هذه آخر فرصة تعطى لهم لإعلان ندمهم.

عادت الأوراق الثماني خلال يومين وهي تحمل النصوص الآتية:

* أنتم خونة التنظيم والوطن.

* أنتم لصوص، سرقتم ثورتنا وأحلامنا.

* لن نتنازل أمام المارقين.

* سوف يبعثكم التاريخ إلى مزبلته.

* عملكم الجبان هو بداية نهايتكم.

* عصابة مثلكم، لا يمكنها بناء دولة.

* مزقتم وحدة الوطن وستحولونه إلى أطلال.

* خلقتم من مجرم تافه، مسؤولاً عسكرياً، أدى بدوره إلى صنع دكتاتور رخيص يناسب عقليتكم. إليكم:

الدكتاتور

كلما مات دكتاتور

خرج من بين ضلوعه

دكتاتور آخر

لا تمدح الدكتاتور

فهو يزداد طيشاً

وضراوة

وزهواً

لا تقل للدكتاتور (نعم)

لأنه سيظل

يطالبك

بـ (نعم)

إلى الأبد

إذا أردت أن تهين دكتاتوراً
قل له (لا)

الدكتاتور يعرف بأنه تافه
لذلك لا تقل إنه إنسان تافه
لأنك بذلك تضعه
في مصاف البشر
الأمر الذي
ليس جديراً به

الدكتاتور مخلوق جبان
لذلك لا تتوقع منه
أموراً عظام

أتفه دكتاتور
هو ذلك الذي يأمر
بإقامة تماثيله وهو في الحياة

إن أتعس دكتاتور
هو من تهدم تماثيله
وهو في الحياة، ولكن
بإنتظار الموت

قرأ الرئيس خلف أبو السيف النصوص الثماني عدة مرات. وفي كل مرة كانت تزداد حدة غضبه وحقده على هؤلاء الذين يرى إنهم ركبوا رؤوسهم

وراحوا يتشدقون بجمل ثورية وكأنهم أبطال التاريخ، خرجوا من عهود سحيقة، جاءوا ليعلموه المبادئ الأولية لحب الوطن. وكيفية إراقة الدماء في سبيله. ولكن صبرا، يقول في نفسه، ستعرفون معنى البطولة. كان وحيداً في مكتبه، ينتظر إنهيار ولو واحد منهم، ولكن عبثاً. لم يتحمل الوحدة. أتصل بصاحبه عواد هاتفياً وطلب منه أن يمر عليه. وسرعان ما حضر عواد الذي عرف أن رئيسه مصاب بالحنين ويفتقد هدوء الريف الذي تمتع به أيام قلائل قضاها بزيارة مكاتب و ندوات التنظيم السري. قال عواد وهو يتأمل ملامح الرئيس:

"سيدي الرئيس، أنت متعب جداً وفوق ذلك قمت بإختصار المدة التي حددها الطبيب للبقاء في الريف"

قدم خلف الملف المحتوي على النصوص الثمانية إلى عواد قائلاً:

"إستراحة الريف سنتحدث عنه في وقت آخر. والآن هاك إقرأ تصريحات أبطال آخر زمان وقل لي ماذا نفعل بهم؟"

وراح خلف يقرأ بإهتمام وهو مقطب الجبين. ثم أعاد الكرة وتوقف عند النص النثري المركز وهو يقول:

"إن هؤلاءهم أكثر الناس خطرا علينا، حذارِ من وقوع هذه الأدبيات بيد الناشئة والشباب. إنهم ما زالوا يملكون نفس الحماس القديم الذي كنا نملكه أيام زمان. إننا لو وقعنا تحت أيديهم لمزقونا إرباً"

قال خلف بحدة:

" يا شيخ عواد أنا سألتك: ماذا نفعل بهم قبل أن يمزقونا إرباً؟"

"هل أن رأيي مهم؟"

"طبعاً، إنه حاسم بالنسبة لي"

"إذا كان الأمر كذلك فسبق أن بينت رأيي بخصوص هؤلاء. إنهم يريدون

إنتزاع السلطة منك بأي ثمن كـانولذلك لا يبقى أمـامك سـوى أن تزيحـهم عن طريقك"

قال خلف كما لو أنه يكلم نفسه:

"أن تزيحهم عن طريقك، ولكن إلى أين"

"إلى جهنم وأسفل السافلين، هل هناك مكان آخر؟"

تفتحت أسارير خلف وأنطبعت على وجهه إبتسامة عريضة وقال:

"هذا هوالكلام الملموس والواضح. ظننت أنك تتردد في إبداء رأيك. أقل تردد منك، كان يلغي علاقتنا. إن هؤلاء يجب أن يسحقوا كما تسحق حية سامة. وعليك أن تعلم يا شيخ عواد بأنني بعد إنهاء هؤلاء المجرمين، سأبدأ بمرحلة جديدة في سياستي وهي تغيير شعار (سياسة الرعب الدائم) إلى شعار حيوي جديد هو: (سياسة العنف الدائم). ومحتوى هذه السياسة، هو (القتل، القتل ثم القتل). وعملية القتل لا تأتي بشكل مباشر بحيث أن المجرم يرتاح بموته. إنه قبل أن يموت يمر بسلسلة من التعذيب، بحيث أن الموت يتحول إلى أمنية، يتمناها في كل لحظة. إنك لا تستطيع قيادة هذا البلد إلا بهذه الطريقة"

قال عواد وهو يفكر في العادات العربية ولا سيما الثأر الذي لا يمكن أن يسكت عنه أهل الميت:

"ولكننا يا سيدي الرئيس، قبل أن نبدأ بإعلان الحرب على الناس المعارضين لنا، يجب أن نفكر في كل جوانب المسألة كي لا نقع في مأزق، لا نتمكن الخروج منه"

"أي مأزق تقصد؟"

"مأزق الثأر يا سيدي. هل تسكت أنت مثلاً عن قاتل أحد أفراد أهلك؟ ألا ترديه قتيلاً؟ وبالتالي يتحول أهل القتيل إلى أعداء لك"

ضحك خلف قائلاً:

"إن التفكير في جوانب المسألة شيء جيد وأحب أن أحيطك علماً بأنني قد فكرت في هذا الجانب وأعطى تفكيري ثماره. نحن لا ندنس أيدينا بدمائهم القذرة. إذا أردنا أن نتخلص من شخص ما، نتصل بأحد أولاد عمومته ممن لا يرتاحون إليه ونقنعه بمبلغ من المال. وتنتهي المسألة التي تحال عملياً إلى داخل عشيرتهم"

"هذا إذا كان عدد المرشحين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة"

قال خلف بلهجة فيها عناد وتصميم:

"أنظر يا شيخ عواد، إنني بصدد بناء دولة لم يسبق لها مثيل. دولة تبسط سيطرتها ليس على أبناء البلد نفسه فحسب، بل على كافة أنحاء المنطقة ومن أجل إتمام بناء هذه الدولة العملاقة، أقوم بوضع كافة الامكانات البشرية والمادية في خدمة إنجازها. ولاشك أن مجموعة جاهلة أو مجاميع جاهلة لا ترتاح للفكرة وتبدأ بالعصيان والتمرد بحجة صرف أموال الدولة على البذخ والكماليات، آنذاك تبدأ الطامة الكبرى، حيث ستجري إبادة الألوف من أبناء شعب ميدستان وتهجير البقية الباقية إلى الجنوب ونقل أهل الرافضة من الجنوب إلى الشمال. وهكذا تتم السيطرة على منابع القلاقل والفوضى ويسود السلم والرخاء"

"وماذا تفعل بالاف الجثث التي ستسقط في هذه العملية؟"

"الحل، عند المقابر الجماعية. لدينا فرق كاملة لها حفارات خاصة تعمل في الليل مثل الذئاب. لها إمكانية دفن مئات الجثث في دفعة واحدة وتعمل بالخرائط، حيث أن العثور على المكان مستحيل. إنك كمدير عام للأمن والمخابرات، ستكون لك علاقة عمل مع فرق المقابر الجماعية".

قال عواد بصوت متهدج، فيه مسحة من الخوف:

"سيدي الرئيس، إنك دللتني إلى أقصى درجات الدلال والثقة المطلقة التي لا

أعرف كيف أوفيها وعينتني مستشارك لشؤون الريف، الأمر الذي أسعدني جداً. ثم مالبثت أن وجدت نفسى مديراً عاماً للأمن. وقبل أن أبدي رأيي في عملي بهذه المديرية، أجد نفسي مشاركاً مباشراً في أعمال المقابر الجماعية. إنني في الوقت الذي أشكرك فيه على هذه الثقة المطلقة، أؤكد بأنني غير جدير للعمل في مجال مديرية الأمن وملحقه المقابر الجماعية. وسأكون شاكراً جداً إذا تم تثبيتي كمستشار للرئيس فقط"

قال خلف بلهجة فيها كبرياء:

"بارك الله فيك يا أبن عمي شيخ عواد. لقد أثبت إنك لا تتهافت على المنصب. وهذه خصلة حميدةونادرة، قلما نجدها في صفوفنا. أنا سأترك أمر المنصبين لرفيقنا (الشيخ عواد)، يتصرف بها كما يشاء"

قال عواد بفرح:

"أنا أشكر شعور السيد الرئيس وأرجو منح المنصبين إلى (الرفيق الرقم تسعة).

سأل الرئيس خلف ما إذا كان ثمة إعتراض على عملية التوزيع. وكان أن أبدوا رأيهم، بـ (لا إعتراض).

٢٣

كتب أحد رفاق خلف أبو السيف تقريراً، قدم نسخة منه لمسؤوله بمناسبة إستقالته من التنظيم وهروبه إلى خارج البلد، جاء فيه:

"أعدم خلف أبو السيف رفاقه الثمانية الأبطال بطريقة بربرية بشعة ثم أعقبها بعملية إلقاء قبض جماعية لأتباع الرئيس السابق مرزوق، التي أنتهت بإعدامهم جميعاً. ولم ينجُ بجلده حتى أقرب المقربين إليه. علماً أن رقبة كل رفيق يفتح فمه قائلا (لا) معرض للقطع. وبذلك تمكن من تمديدفترة حكمه إلى ربع قرن من الزمن، أباد خلاله المعارضة بجميع أنواعها في داخل وخارج

البلد. وأعلن حرباً كيمياوية ضد شعب ميدستان وأحتل دولة المرجان وعاث فيها الفساد. وتورط في حرب طويلة الأمد ضد دولة خراسان، دون أن يحقق أي نصر، رغم إمتلاكه جيشاً تعداده مليون شخص مزود بالاسلحة الكيمياوية. وأدعى أنه يمتلك السلاح النووي. وتلاعب بسعر النفط الذي كان يبيعه للمعسكر الإشتراكي بسعر ثلاثة دولارات للبرميل الواحد.

لم يترك خلف أبو السيف بيتاً في بلده دون أن يخطف منه على الأقل أبناً واحدا. إن قوات الدولة العظمى بدأت تطرق الأبواب.

إن خلف يتحمل مسؤولية إحتلال الدولة العظمى لبلدنا"

إلى هنا ينتهي النص الذي كتبه أحد رفاق خلف أبو السيف الذي حاول أجتياز الحدود بجواز سفر مزور، بيد أن شرطة الحدود ألقت عليه القبض ولم ترجعه إلى بلده. وبعد إجراء تحقيقات مفصلة معه، صادروا خلالها الجواز المزور والورقة الوحيدة عنده.تبين أنه كان من أحد كبار كوادر تنظيم الهيئة الثورية العليا، وكان قد سبق أن أصدرت المحكمة بحقه حكماً غيابياً يقضي بإعدامه شنقاً حتى الموت. وبعد إجراء محاكمة سريعة، منحته دائرة الأجانب حق الإقامة الدائمية.

قرر هذا الشخص الذي يحمل أسماً مستعاراً "أبو قاهر" أن يعتزل السياسة ويبدأ حياته الخاصة بفتح مخبز صغير يعيش من ورائه. وكان سياسيو بلده يعرفونه، دون أن يعرفهم هو. وكانوا يتعمدون شراء الخبز من عنده وجره إلى أحاديث تتعلق بمصير بلدهم. كان ذلك في الفترة الواقعة بنهاية ربع القرن الذي مدده خلف أبو السيف بإعدام القياديين الثمانية بصورة بربرية بشعة.

تمكن السياسيون العائشون في هذا البلد المجاور أن يوطدوا علاقتهم بهذا الخباز المثقف، دون أن يتاكدوا ما إذا كان خبازاً حقيقياً يمارس مهنته أم سياسياً هارباً من جحيم خلف أبو السيف.وبعد أن تردد عدة مرات على المقهى الذي يلتقي فيه أبناء بلده، إعتاد على الجو الذي يوحي إليه أنه عائش

في بلده. كانت المناقشات تدور حول مختلف المواضيع التي تنتهي يومياً عند نقطة واحدة هي:

متى يسقط نظام خلف أبو السيف؟

هل يسقط النظام نتيجة لثورة شعبية؟

أم نتيجة لإنقلاب عسكري؟

هل هناك إمكانية لإسقاطه من قبل الشعب؟

أربعون عاماً وهذه السلالة البدائية تحكم هذا البلد. من أين لها هذه القوة؟

ألا يجوز الخلاص من هذه الطغمة بأية وسيلة كانت؟

تدخل خارجي مثلاً.

أو تدخل الدولة العظمى؟

من هو البديل القادم؟

هل الدولة العظمى ستحرر البلد أم تحتله؟

مسألة أقليم ميدستان

هل من الضرورة أن تتدخل دولة أجنبية لحل مشكلتنا؟

الديمقراطية: هل تحل مشكلتنا أم تعقدها أكثر؟

وجهت هذه الأسئلة كلها دفعة واحدة إلى الخباز أبو قاهر الذي أستغرب من هذا التحول والإهتمام ببلدهم الذي دخل في طي النسيان. وعلم أن وضع الأسئلة لم يتم بواسطة هؤلاء الصغار في السياسة، بل الكبار الذين سيصلون بعد نصف الساعة ببدلاتهم الأنيقة. وغايتهم من ذلك هي أن يتمكن من التغلب على خجله وينطلق في الإجابة على هواه. وقرر أبو قاهر الخباز أن لا يتكلم إلا بحضور السياسيين الكبار. بعد إنقضاء نصف الساعة، ظهر الرجال المتأنقون. سأل أحدهم مستغرباً:

"ألم تبدأ المناقشة؟ كنا نتصور أنكم الآن في ذروة حرارته"

قال أبو قاهر الخباز:

"أنا سبب التأخير. إن جوابي يجب أن يصل إلى المكان الصحيح. إن هؤلاء، لا يسمع أحد كلامهم، في حين أن كلامكم هو نافذ المفعول، لذا لا أريد أن يبقى كلامنا محبوساً في هذا المقهى"

أتخذ الأفندية أماكنهم وهم ينظرون بعضهم بعضاً بنظرات إنتقادية. قال أحدهم:

"لنبدأ إذاً"

إعتدل أبو قاهر الخباز في جلسته قائلاً:

" أنتم وضعتم كومة من الأسئلة التي يمكن أن تختصر بسؤال واحد فقط، وهو: كيف يمكن إسقاط طغمة خلف أبو السيف؟ الجواب: بعد تحليل أربعة عقود من الحكم الدكتاتوري، نتوصل إلى الجواب التالي: إن طغمة الدكتاتور خلف لن تسقط، إلا بتدخل الدولة العظمى فقط. أوصلوا هذا الكلام إلى من يهمه الأمر"

٢٤

زار قادة المعارضة العائشة خارج البلد رئيس جمهورية الدولة العظمى، الذي كان يضع الخطط لإسقاط جمهورية خلف أبو السيف، الذي لم يضحك على ذقون سفرائه فحسب، بل تجاوز حده الذي سبق أن رسموه معاً، حيث بدأ بتهديد مصالحهم وذلك بتلويح الشعار القديم (النفط سلاح في المعركة ضد الإستعمار) وتحويل جيشه إلى قوة ضاربة بلغ تعدادها مليون مقاتل. هذا إلى جانب محاولاته المحمومة لصنع السلاح النووي. إن برلمان جمهورية الدولة العظمى قد صوت بالأغلبية الساحقة على كون جمهورية خلف أبو السيف تشكل خطراً على السلم والأمن في المنطقة. وعليه كلف رئيس الجمهورية للقيام بإجراء اللازم بهذا الخصوص ومنحه السلطة المطلقة في تنفيذ القرار والعمل

المشترك مع المعارضة بكل أطيافها.

جرت هذه الإجراءات ولا سيما إتصال المعارضة بجماعة الدولة الكبرى، بمنتهى السرية، إذ ثمة حساسية في بلدان المنطقة لا تحبذ الأختلاط بهذه الدولة التي كانت لها تجربة مريرة مع بلدان المنطقة. ومما زاد من مشاكل جمهورية خلف، فرض مقاطعة شاملة منذ أكثر من عشر سنواتعلى بلده الذي سبق وأن تورط بإحتلال الجارة دولة مرجان حيث قامت الدولة العظمى بطرد قوات خلف أبو السيف من هناك. ولعل أكبر ضربة وجهت إلى خلف هي المقاطعة التي عانى منها أبناء الشعب، حيث أدى إفلاس الدولة إلى أن يكون سعر النقد أرخص من سعر الورق الذي طبع عليه. أدت الكارثة الإقتصادية إلى تدخل هيئة الأمم المتحدة لإنقاذ حياة الناس من المجاعة بواسطة توزيع الغذاء على المواطنين مقابل النفط. كل هذه العوامل، أدت إلى أن يقوم بعض أقسام المعارضة بالإلحاح على رئيس الدولة العظمى بالتدخل العاجل لإسقاط خلف وعصابته.

وكان أن إستجاب رئيس الدولة الكبرى للأمر الواقع الذي ارتاح له، مشكوراً.

وقبل أن تجتاز قوات الدولة العظمى حدود دولة خلف في منطقة الثغر إلا وأختفى عن الأنظار ما يسمى بقوات خلف أبو السيف. وراحوا يمسكون قادة حكومة خلف مثل النعاج التي شردت من راعيها. وأما هو فتمكن أن يختفي عن الأنظار لعدة أشهر ويصل إلى مزرعة عواد البعيدة عن الأنظار، حيث سبق أن بنا له عواد قبل ربع قرن، مخبأ لمناسبة تسلمه رئاسة الجمهورية. كان عواد يمني نفسه بمكافأة قدرها لا يقل عن مليون دولار ثمن مغامرة إنقاذه لحياة خلف، بيد أن خلفاً كان يقتر عليه، رغم إمتلاكه مئات الملايين التي جلبها معه عند هروبه، عندها أعلنت إدارة الدولة العظمى تخصيصها مبلغاً قدره خمسة وعشرون مليون دولار، لمن يدل على خلف أبو السيف حياً أو ميتاً.

لم يصدق عواد الخبر في بادئ الأمر، بيد أن إعادة بثه عدة مرات خلال الساعة الواحدة، جعلته أقرب إلى الصدق. مع ذلك ظل متردداً خائفاً من أن يلقي القبض عليه هو أيضاً بتهمة العمل المشترك معه. ما هو الضمان بإلقاء القبض على خلف وتركه هو يتسلم مبلغ ٢٥ مليون دولار. ظل معتصما ببيته في المزرعة بعد أن أرسل الخادم وزوجته إلى إجازة طويلة المدى. أبى خلف إلا أن ينام ويعيش في المخبأ. وكان يأبى أن يتركه في النهار، مكتفياً بمغادرته ليلاً ولفترة قصيرة يقضيها بالمشي. وجه نداءً بالفيديو إلى شعبه، يدعوه إلى الثورة على الوضع الجديد، إعتقد أن الشعب إذا عرف أنه باق ويقود الثورة، فإنه سيثور ويقلب الوضع رأساً على عقب. تحول خطابه إلى عاصفة في فنجان، أستقبله الشعب بصفير الإستنكار وتوجيه الأحذية نحو الراديو والتلفزيون وتشديد المطالبة بقطع رأسه.

كان عواد قد جلب له طعام الغداء المتكون من مرق الفاصولية بلحم الأرنب والرز مع قرصة صغيرة من خبز الشعير، قال قبل أن يبدأ بالأكل بتهكم:

"هل تصدق يا شيخ عواد بأن الجماهير ترمي خطابي في التلفزيون بالأحذية؟"

"كل شيء جائز في هذا البلد يا أبن عمي ولا يهمك. هذه ثالث كبوة. سنجتازها أيضاً إن شاء الله"

قال خلف بجبين مقطب وملامح غاضبة:

"إذا إجتزناها هذه المرة، سأحرق الكائنات"

قال عواد بلهجة لا تخلو من التهكم:

"أنا ما زلت مستشارك أيها الرئيس، فهل تسمح لي أن أبدي رأيي بشأن تصريحك؟ أم أن صفتي كمستشار قد إنتهت؟"

قال وهو يمضغ لقمته:

"الصفة لن تزول إلا بعد إنتصارهم النهائي. وهذا لن يحصل، لذلك يمكنك أن تبدي رأيك بكل صراحة"

"أقول، إذا حرقت الكائنات فماذا يبقى لنا؟"

"تبقى لنا نخبة من الناس الطيبين لا يخالفونك، بل يطيعونك كطاعتهم لله"

حاول عواد إقناع خلف بترك المخبأ لمدة ساعة، يقضيانها بالتمشي في المزرعة، بيد أن خلف لم يوافق بحجة أنها مفتوحة من جميع الجهات. بالإضافة إلى ذلك فإن وضعه الحالي: شعره الأشعث الطويل المنتصب ولحيته الطويلة، كل ذلك يجعل من يراه يعتقد إنه هارب من مستشفى الأمراض لعقلية أو أنه درويش ناسك، متفرغ للعبادة فقدَ طريقه إلى معبده. ويخرج عواد إلى الهواء النقي، تاركاً رائحة العفونة والهواء الرطب وراءه. ويتخذ مكانه في الشرفة المطلة على حوض النافورة وهو يفكر في مصيره الذي إرتبط بمصير قريبه خلف أبو السيف. وحين ربط مصيره بخلف، حذره أكثر من واحد من أقاربه بالإبتعاد عن هذا البعبع الذي يسمونه خلف أبو السيف المعروف بأنانيته. ويردهم عواد بأنه حين فعل ذلك لم يكن هدفه الحصول على مكسب مادي، بل إلتزاماً أخلاقياً يقتضيه العرف العشائري. ولكن العملية قد تجاوزت العرف وأستمرت أشهراً طوالاً مليئة بالخوف والرعب. وربما ستطول المسألة إلى أشهر عديدة وسنوات. إنه يحس بنفسه مقيداً ومكبلاً لا يمكنه أن يتحرك. ألا يحق له إذاً أن يفكر بثمن محترم لحرقة الأعصاب هذه؟ ولهذا السبب بالذات قدروا ثمن رأس خلف حياً أو ميتاً بمبلغ ٢٥ مليون دولار.

عندما قفز ذكر المبلغ إلى فكره، كان الظلام الدامس قد أطبق على الكون وأختفت المزرعة مثل الآفاق المحيطة بها، في طيات ستائر الظلام. ونزولاً لرغبة خلف في عدم إشغال الموتور ليلاً، لذا جرى الإعتماد على الفوانيس اليدوية الموزعة في زوايا البيت. تناول فانوساً من زاوية الشرفة المظلمة وأشعلها ثم أخذ الراديو الصغير (ترانسستر) وتوجه إلى غرفة الجلوس، حيث أتخذ مكانه

على أريكته المعهودة مقابل جهاز التلفزيون الذي لا يشتغل بدون الموتور الذي يزعج صوته جناب الرئيس المعزول خلف أبو السيف. وأحس أن خلف إلى جانب سلبه لحريته، قد تجاوز حدوده كضيف. وإن عدم تمكنه من إستعمال التلفزيون هو إستغلال فض لحريته الشخصية.

إنه معاقب وهارب من وجه العدالة، فلماذا يشركني أنا أيضا ويأخذني بجريرة جرائمه؟ أنا الذي لم أعتد على أحد؟

وراح يتكلم بصوته الطبيعي ويؤشر بيديه كما لو أنه يتكلم مع شخص ما. هيمن عليه الخوف الذي تمتد جذوره إلى أعماقه. وعاتب نفسه بشدة لإنجراره هكذا ببساطة لأن يكون بين عشية وضحاها، حامياً لأخطر شخصية يبحث عنها رجال الدولة العظمى. لماذا أنقاد إليه بهذه السهولة؟ إنهم سيعثرون عليه في كل الأحوال، وليس هذا فحسب، بل سيلقون القبض على مرافقه أيضاً. وسيعامل كشريك في الجريمة. وإذا تلقى خلف صفعة واحدة على وجهه وجلاق واحد على مؤخرته، آنذاك تكون حصة عواد ثلاث صفعات على وجهه وخمسة جلاليق على مؤخرته مع كفخة محترمة على رأسه وذلك لأنه هو السبب في تأخير عملية إلقاء القبض عليه. هذا بالإضافة إلى صدور أمر الإعدام بحقه. وراح يكرهه، ولم يسبق له أن كان معجباً به وببطولاته المزعومة من قبل. كل ما في الأمر أنهما، بعد إنقطاع دام نحو عشرة أعوام، التقيا عند والدة خلف التي مدحت عواد قائلة، أنه من أخلص أبناء العشيرة ويساعدك في الضيم:

"يمكنك أن تعتمد عليه يا بني"

"وإذا أقتضى الأمر، فإن عواد يمكن أن يموت من أجلك"

وكانت تزكية الأم بالنسبة لخلف، مسألة في غاية الأهمية، ولكن هل من المعقول أن يموت عواد من أجل خلف. ولو إنقلبت الآية وحدث أن تطلب الأمر أن يموت خلف من أجل عواد، فهل كان خلف يضحي بحياته في سبيل عواد؟

كلا أبداً، فلماذا إذاً على عواد أن يموت من أجل خلف. أجاب عواد بصوت عال:

"عواد لن يموت من أجل خلف"

ورددت الغرفة صدى الكلام بأصوات مختلفة، عالية ومنخفضة:

"عواد لن يموت من اجل خلف..."

أحس عواد أن غفوة نوم سريعة قد تغلبت عليه، أخرجته منها أصداء الأصوات المختلفة التي كانت تنادي:

"عواد لن يموت من أجل خلف"

وأستفسر عواد وهو يكلم نفسه، ولكن كيف الخروج من هذا المأزق؟ ولمن يسلم يا ترى هذا الرأس الذي يعادل خمسة وعشرون مليون دولار. هل يسلمه لقوات الدولة العظمى ويقبض المبلغ ويقبل وصمة عار الخيانة إلى الأبد؟ ولكن، لماذا الخيانة؟ هل خلف يستحق أن يضحي الإنسان من أجله؟هب إنه ضحى من أجله، آنذاك عليه أن يرحل، ولكن إلى أين؟إنها ورطة نزلت عليه من السماء. وفي كل الأحوال فإن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وتصورات خلف بانتهاء هذا الوضع قريباً، مجرد وهم وخيال. إنه سيظل قابعاً في مخبئه إلى يوم القيامة. ويظل عواد الشخص الوحيد الذي يعرف مكانه، يخدمه ليلا ونهارا، يطبخ له ويغسل ملابسه ويساعده في تمشية أمور الثورة القادمة التي مهمتها هي تمديد حكم الرئيس خلف أبو السيف، من أجل بسط سيطرته على البلاد وتوسيع المقابر الجماعية، كل ذلك بمعاونة عواد الذي عليه أن يتحمل جريرة خلف بالمناصفة:

"كلا. لن أتحمل جريرة خلف، لا بالمناصفة ولا بالتمام. ولست مستعداً أن أخدمه مدى الحياة. وفي كل الأحوال، مهما فعلت تجاهه، يعتبر عملي خيانة. هل هناك قريب آخر من أقاربه المقربين له الإستعداد على إستلامه مني كي يبيعه لقوات الدولة العظمى التي تبحث عنه بهستيريا غير منقطعة؟ معظم أبناء

عشيرته نبذوه قبل أن يختفي في هذا الملجأ البائس. أي قدر تعس هذا الذي دفعني إلى أن أهب إلى مسكن والدته في ذلك اليوم النحس كي أتورط بمصيره، هو الذي قتل بشكل بربري ثمانية أعضاء قياديين من تنظيمه، لا ذنب لهم سوى مطالبتهم بالديمقراطية. أمن أجل هكذا مخلوق أضحي بحياتي؟ كلا أبداً. هل يستحق المساعدة، ناهيك عن التضحية بالحياة من أجله. إنه لا يستحق، لا هذا ولا ذاك. لقد إنخدعتَ به وبكلامه المعسول يا عواد. كنت في بادىء الأمر تعتقد أنها قضية أيام لا تتجاوز أصابع اليدين وتنتهي. وأن الشعب بمختلف فئاته سيحمل أكاليل الغار ويتوجه لإستقباله عند خروجه من مخبئه الذي لا يزال يعيش فيه كأي جرذي قذر"

٢٥

لم يعد عواد يتحمل الوضع الجديد الذي دخله منذ أسابيع. وراح يهيمن عليه الخوف واليأس والحساسية والقلق والأرق. كان فيما مضى يعد له الفطور والغداء والعشاء ويأخذها له في أوقاتها المعينة دون تأخير ويعد له القهوة أوالشاي ويقدمه له مع الكيك في أوقات الظهيرة. وأما الآنفقد تغير كل شيء. الفطور الذي كان يتناوله في الساعة الثامنة، يأتيه الآن في الساعة العاشرة والنصف كذلك الأمر مع الغداء والعشاء. وأما الكيك مع الشاي في أوقات الظهيرة، فقد مسح من قائمة الطعام. وحين كرر خلف سؤاله حول غياب الكيك، أجاب عواد بأن شراء الكيك من الدكان الوحيد في البلدة بصورة يومية يجلب الشك، إذ أن قوات الدولة العظمى المنتشرة هنا وهناك تتسقط أخباره بشكل محموم، تساعدهم في ذلك عشرات الطامعين في الحصول على مبلغ ٢٥ مليون دولار. علق خلف بصوت متعب:

"برافو.. سننتصر بفضل يقظتك يا شيخ عواد، أبن عمي. لقد شخصتك والدتي بشكل رائع. سأجعلك ساعدي الأيمن في جمهوريتي المقبلة"

أحس عواد بكلماته وكأنها إبر مسمومة توخز جسده العاري وأنه بضاعة رخيصة تعرض في سوق النخاسة"

قال عواد وهو يلعنه في داخله وينعته بالإبليس الذي يرزح تحت ثقل الفخ:

"يا أبن عمي، أنا الآن لست مستشارك ولا أريد أن أكون ساعدك الأيمن في جمهوريتك. كل ما في الأمرهو أن فارقا ليس صغيراً ينتصب بيننا. وإني أرافقك كي أوصلك إلى شاطئ الأمان. آنذاك أكون قد أديت واجبي وأرحت ضميري"

أقتحمت كيان خلف أبو السيف قشعريرة برد، سرت من أخمص قدميه إلى قمة رأسه الذي دوخت رائحته الكريهة عواد الذي ضغط على نفسه بتحمل رائحة قذارته. وداهمته في الوقت نفسه موجة خوف مرت بعظامه لم تعد تتحمل ثقل صاحبها. قال خلف بتملق وهو يحدق في عواد بعينيه الجاحظتين:

"برافو يا أخي وأبن عمي الشيخ عواد، إنك كنت دوماً صريحاً سواء مع نفسك أم مع الآخرين. ولكنني أستنتج من كلامك أننا في خطر. هل هم في طريقهم إلى المزرعة؟

قال عواد وهو يحاول أن يزيل عنه مخاوفه التي بدت واضحة على ملامحه:

"لا خوف علينا ولا يهمك. إنها تحريات روتينية لا تؤدي إلى نتيجة. إنهم لا يمكنهم أن يتحروا كل شبر من الأرض"

"كلامك مثل البلسم يا شيخ عواد. ياليتك كنت معنا في حربنا ضد دولة الخراسان لعلمتهم على الصبر والشجاعة. ستكون في جولتنا القادمة معنا إن شاء الله"

قال عواد دون أن يقتنع بكلام صاحبه:

"إن شاء الله و الله أكبر"

درسا وضعية القوات المحتلة، نوعية المدرعات والدبابات، سيارات النقل،

البنادق الرشاشة والعادية. هل هي دفاعية أم هجومية. وكان الواجب الذي أنيط بعواد، هو أن يراقب تحركات القطعات القريبة من المزرعة والهدف الذي تتجه إليه. جمع عواد الأقداح والصحون ووضعا الملجأ تحت الإنذار على أن يبقى غطاء الفتحة الحديدي مسدوداً طوال فترة تواجد القطعات العدوة ووضع بعض الحاجات المهملة فوق الغطاء. ونبه عواد خلف أبو السيف بعدم إشغال الراديو الصغير (ترانسستر).

تنفس عواد الصعداء عندما أصبح خارج الملجأ. وأحس بنفسه قد تخلصت من عبء ثقيل. شرب قدحاً من الشاي وهرع بخفة إلى الأصطبل. فك رباط الحصان الذي أستقبله بصهيله المعهود وقاده إلى الباب الخارجي. عندما أراد أن يقفل الباب، تذكر شيئا كدر مزاجه وأثار خوفه العميق. وعرف أن هذا الشيء الذي نساه قد يقرر، ليس مصير خلف أبو السيف فحسب، بل مصيره هو ومصير المبلغ ٢٥ مليون دولار. والشيء الحاسم الذي لم يكن في البال هو البنّاء الذي بنى الملجأ والذي يدعى الأسطة هوبي. إنه الشخص الوحيد الذي يعرف أين يقع الملجأ وما هي وظيفته. وتكمن الخطورة في أن يهرع إلى أحد مخافر قوات الدولة العظمى ويبلّغ عن المكان ويبقى هو خالي الوفاض. ولكن عليه أن يتأكد من وجود خلف هناك، وإلا ما فائدة الملجأ الفارغ، إنهم سيعتبرون عمله ضحكاً على الذقون.

رأى عواد أن أحسن وسيلة لمعرفة الحقيقة هي أن يذهب إلى الأسطة هوبي. قفز على ظهر حصانه الذي أطلق حوافره للريح وإتجه إلى البلدة، حيث مسكنه المتواضع المبني بالطين. أستقبله رجل طاعن في السن، مقوس الظهر، لم يعرف عواد، ولكن هذا سرعان ما ذكره بالملجأ. وكان أن عانقه وهو يقول:

"أهلاً بعواد، أبو الملجأ. شنو أخبار الملجأ ألم يتهدم؟"

قال عواد وهو يقترب منه، بصوت عال:

"يا ريت متهدم ولكن مليان مي. ما هو العلاج؟"

"المي خير وبركة يعني أرضكم كلها مياه جوفية. أسقِ بيها المزرعة بالماطور"

"إن شاء الله أسطة هوبي"

رغم خروج الأسطة هوبي من دائرة الشبهة، فإن الأمر لم ينته بعد. في بلدة صغيرة مثل هذه لا يمكن إخفاء أي سر، ولكن حسب أهميته. ولا شك أن بعض أهالي البلدة يعرفبقصة بناء الملجأ، ولكن ليس لأن يختفي فيه خلف أبو السيف، بل ليكون عنبراً لخزن التبغ المهرب ومكاناً أميناً للحفاظ على حياة الأهالي من الغارات الجوية المحتملة. ويقول البعض من أهالي البلدة إنه بناء بدائي لا يصلح إستعماله كملجأ حربي، بل يمكن تسميته سرداباً. المهم هو أن المكان مفضوح، ولا يمكن تأجيل المسألة، بيد أن الشيء الذي يمنحها الحيوية والآنية هو قيمة الجائزة المشجعة التي يسيل لها اللعاب. ولهذا السبب بالذات ستتوجه الأنظار إلى الملجأ الوحيد في المنطقة.

قرر عواد أن ينهي الأمر بسرعة ورأى أن أي تأجيل يؤدي إلى إجهاضه وعاتب نفسه لإهماله هذا الموضوع الحياتي الخطر. إن إشارة واحدة لمجرد الملجأ أو مجرد ذكر المنطقة، سيؤدي إلى تطويق المزرعة والمناطق المحيطة بها. آنذاك يمكنهم كشف المكان بواسطة أجهزة ألكترونية كاشفة. وبذلك تحترق حكاية الجائزة الأسطورية، ويقع عواد نفسه في الفخ أيضاً.

في اليوم الثاني من زيارته للأسطة هوبي في منزله، قرر عواد أن ينهي حكاية أسمها خلف أبو السيف. وليكن ما يكون. استيقظ في وقت مبكر. أعد الفطور. وبعد أن تناول وجبة خفيفة، أخذ وجبة كبيرة مع طعام إضافي لفترة الغداء ونزل إلى الملجأ. طمأن خلف بأن كل شيء هادئ في المنطقة. وأعلمه بأنه مستعجل ويحاول صرف الأنظار عن مزرعته. كان خلف يبدو هادئاً ولكن على نار هادئة ويشوبه قلق داخلي تجاه الملجأ الذي لا ضمان له في هذه المنطقة التي كان عليه أن لا يعتمد عليها، كونها قريبة من أهله.

أمتطى عواد حصانه وقاده باتجاه هضبة مرتفعة، تبدو من ورائها مجموعة

من المزارع المنتشرة في الأفق الشمالي وهو يجيل بعينيه بينها بحثاً عن كتيبة عسكرية أو جنود. بعد بحث لم يدم طويلاً ظهرت من بين الأشجار عدة خيام منصوبة، يتخللها رجال شبه عراة، يعرضون أجسادهم لأشعة الشمس الساطعة وثمة مجموعة أخرى بكامل الأعتدة والملابس العسكرية. حين إقترب من المزرعة، أسرع إليه ثلاثة جنود، موجهين فوهات بنادقهم إليه. صاح أحدهم بصوت عال:

"قف في مكانك. منطقة عسكرية"

سحب عواد زمام حصانه الذي ظل واقفاً في مكانه. هنا طلب منه الجندي الذي نادى عليه أن يترجل عن حصانه ويسلمه هويته وأوراقه. مسك أحد الجنود زمام الحصان. سأل العريف الذي أخذ الهوية، قائلاً:

"إلى أين أنت ذاهب؟ هذه منطقة عسكرية"

"أعرف ذلك، ولذلك جئت"

قال العريف بدهشة:

"من أنت؟ وماذا تريد؟"

قال عواد وهو يؤشر إلى جهة الهضبة العالية:

"أنا صاحب المزرعة الواقعة وراء تلك الهضبة. أريد مقابلة المسؤول الأول عن كتيبتكم"

أستفسر العريف بلطف:

"هل عندك موعد معه؟"

"كلا."

"هل يمكنني أن أعرف ما هو طلبكم كي أعرضه عليه"

قال عواد بإصرار:

"كلا. يجب أن أقابله شخصياً"

سحب العريف تلفونه اليدوي وأتصل بآمر الكتيبة وأبلغه بوجود شخص يأبى إلا أن يتصل به شخصياً. أجاب قائد الكتيبة:

"حسن، اجلبوه لي إذاً"

عندما أصبح عواد مع مرافقه في منتصف الخيمة، قام قائد الكتيبة من مكانه متجهاً نحو عواد الذي لم يتوقع أن يستقبل بهذا الشكل المؤدب، وقال له وهو يؤشر بيده إلى الكرسي:

"أنا قائد الكتيبة، تفضل أجلس. ماذا تحب، شاي أم قهوة؟"

"قهوة من فضلكم"

عندها سحب القائد كرسيا وأتخذ مكانه جنب عواد، سأله ما إذا كان يوافق أن يجلس معاونه معهما ويشارك في الحديث. قال عواد بأدب:

"البيت بيتكم، تتصرفون فيه كما تشاؤون. الأمر متروك لكم"

أشر القائد إلى العريف أن يبلغ المعاون بالحضور وأن يذهب هو إلى واجبه. عندما أصبحا وحدهما في الخيمة، سأل قائد الكتيبة:

"ما هي الخدمة التي يمكنني أن أسديها لكم؟"

قبل أن يبدأ عواد بالجواب حضر المعاون. هنا أعاد القائد سؤاله الموجه إلى عواد الذي تغلب على خجله وقال:

"أنا إسمي عواد جدوع صاحب المزرعة الواقعة وراء الهضبة الشمالية وأحد أقارب خلف أبو السيف الذي يثق بي بشكل مطلق. لقد أخفيته منذ اليوم الأول من إختفائه وكان من المفروض أن أرافقه عدة أسابيع فقط ثم ينصرف كل واحد منا إلى طريقه، ولكن أصحابه تركوه وحدهوأختفوا عن الأنظار. وبقيت هذه الورطة على عاتقي، دون أن يعاونني أحد. والآن أريد أن أتخلص منه ومن بلائه"

بدا الأمر للضابطين كما لو أنهما يحلمان وأن الرجل يروي لهما قصة

خيالية من قصص ألف ليلة وليلة. وخطر ببالهما سؤال كبير يريد أن يعرف ما إذا كان هذا الرجل المدعو عواد في وضع طبيعي لا يحتاج إلى معاينة طبية نفسية، أم لابد من فحص طبي دقيق؟

هز القائد رأسه باستغراب وهو يكرر:

"عجيب، عجيب... يوم أمس جاءنا رجل من أقارب خلف وأدعى أنه يعرف مخبأه ومستعد أن يأخذنا إليه، ولكنه طلب تأجيل الأمر لبضعة أيام. قال عواد بهدوء وهو يضحك:

"إن هذا الرجل إما مجنون أو مبعوث من قبل أقارب خلف لتسقط أخباره"

قال معاون القائد:

"كان من المفروض أن يمر علينا هذا اليوم ويعطينا النتيجة النهائية"

قال القائد بفضول:

"دعنا الآن من هذا المجنون ولنرجع إلى موضوعنا. قل لي هل ترافقه شخصياً أم بشكل غير مباشر؟"

"إنه يعيش معي، أعد له الفطور والغداء والعشاء ولا يتصل به غيري. جئت اليوم إلى هنا كي أسلمه لكم. لم أعد أتحمله بعد"

"هل بإمكانه أن يخرج من المخبأ بدون مساعدتك؟"

"مستحيل، يجب أن يفتح الغطاء من الخارج"

"أين هو المخبأ؟"

"في مزرعتي"

"هل أنت متأكد من صحة هذه المعلومات"

"نعم، كل التأكيد"

"هل أنت مريض أم في صحة جيدة"

"أنا لست مريضاً، بل في صحة جيدة"

"هل تريد أن يعلن عن أسمك أم يبقى مستعاراً"

"لا أريد أن يعلن عن أسمي"

"هل تريد أن نخرجه من المخبأ ليلاً أم نهاراً؟"

"أنا في كل الأحوال يجب أن أترك العشيرة والمنطقة وأختفي عن الأنظار، لذلك لا يهمني كيف تتعاملون معه"

"هل تسمح أن يقوم الطبيب المختص بإجراء بعض الفحوصات عليك؟"

"إذا كان لابد من ذلك فليكن"

قام القائد من مكانه قائلاً:

"سيأخذك معاوني إلى خيمة الطبيب وبعد نصف الساعة سنلتقي هنا"

خلال هذه الفترة أتصل قائد الكتيبة بمسؤوله في القيادة العامة وأبلغه عما حصل وأنه من المحتمل أن يتم هذا اليوم إلقاء القبض على خلف أبو السيف. أجاب المسؤول في القيادة العامة:

"إنتبهوا جيداً. إنكم مكلفون بأداء مهمة في غاية المسؤولية والخطورة. تأكدوا أولاً من وجود الملجأ ومن فيه. تصرفوا بشكل طبيعي. ولا تتخذوا أي إجراء دون إستشارتنا. ننتظر تواصلكم. تأكدوا من أن الشخص هو فعلاً خلف أبو السيف"

قرروا وضع الكتيبة تحت الإنذار وإستقبال كل شخص مدني يريد الوصول إلى قائد الكتيبة باللطف والإحترام والإستماع الجدي لمشكلته أو شكواه.

ترك الطبيب عواد بعد إجراء الفحوصات العامة عليه في خيمته بصحبة العريف. وذهب هو إلى خيمة قائد الكتيبة. وما أن رآه الأخير، إلا وصاح:

"بشر يا صاحبي، هل أنه يهذي أم يقول الحقيقة؟"

قال الطبيب وعلامات الفرحة بادية على وجهه:

"أعتقد يا صديقي الكولونيل أن الحوت يتحرك داخل شبكتنا. إن الرجل طبيعي جداً ولا سيما من الناحية النفسية، ولكنه يعاني من صدمة خوف. ودون أن أسأله قال أنه يمكنه أن يأخذنا اليوم إلى المزرعة عند حلول الظلام، ولكنه لا يريد أن يراه خلف معنا"

صاح آمر الكتيبة وهو يعانق الطبيب:

"عظيم.. عظيم.. عظيم.."

قال قائد الكتيبة وهو يهئ نفسه للاتصال بالقيادة العامة:

"أنا سأتصل بالقيادة العامة. يمكنك أن تعود إلى خيمتك ودعه ينتظرني عندك. حاول أن تدردش معه بإتجاه إلقاء القبض على خلف هذا اليوم مع حلول الظلام وأما إذا كان يريد الضحك على ذقوننا، فسأريه نجوم الليل في عز النهار"

إتصل قائد الكتيبة بالقيادة العامة وأبلغهم بآخر التطورات بما فيها إستعداد الرجل بأخذهم الى المكان القريب لإلقاء القبض عليه.

وافقت القيادة العامة على التحرك بإتجاه المزرعة ليلا في جنح الظلام، على أن تساهم الكتيبة كلها في الحملة التي يجب الحفاظ على سريتها. وينبغي التأكد من أن الرجل هو خلف أبو السيف فعلاً وليس شبيهه. لا يجوز نشر أو بث أي شيء بخصوص الحملة:

"نتوقع منكم أخباراً سارة وبانتظار مخابرتكم"

مع هبوط الظلام الدامس، تحركت الكتيبة بكاملها باتجاه مزرعة عواد التي ما لبثت أن طوقتها من جميع الجهات. كانت المسافة بين المزرعتين لا تتجاوز عشرين كيلو متراً، قطعها عواد على ظهر حصانه. التقى قائد الكتيبة وعواد أمام باب المزرعة الرئيسي. بعد أن فتح جميع الأبواب، اقترح عواد على قائد الكتيبة أن يستعملوا غرف البيت لإدارة شؤونهم بدلا من الخيام. قال قائد

الكتيبة:

"شكراً للفكرة الجيدة، ولكنني قبل كل شيء أريد أن أرى المخبأ"

كانوا خمسة ضباط يتقدمهم قائدهم. قال عواد موجهاً كلامه إلى القائد:

"تعال معي، إنه يملك مسدساً، ولكنه لن يستعمله، لا خوف من ذلك. يمكن النزول إليه لتروا كيف يعيش. حاله حال الكلب. ويمكنكم أن تنادوا عليه، فيخرج إليكم"

وقف القائد هنيهة وهو يقول بلهجة صارمة، موجهاً كلامه إلى عواد:

"هل أنت متأكد ١٠٠٪ بأنه فعلاً خلف أبو السيف وليس شبيهه؟"

"إنه خلف أبو السيف سيدي ١٠٠٪. رقبتي تحت أيديكم"

واصلوا سيرهم وراء عواد تحيط بهم كوكبة من الجنود المسلحين برشاشات أوتوماتيكية ومجهزين بمختلف أجهزة القتال. مشوا إلى نهاية الحديقة ومروا بالخيمة السوداء ثم مروا بقطعة أرض قاحلة تنتهي بمجموعة غرف طينية تستعمل كزريبة حيوانات. وراء إحدى هذه الغرف وأمام كومة من المهملات وقف عواد وهو يقول بصوت منخفض:

"هذا هو المخبأ"

ثم بدأ يرفع المهملات ويرميها جانباً إلى أن ظهر غطاء حديدي بمقبضين، هنا توقف عواد عن العمل وقال بهمس ورجاء:

"لا أريد أن يسمع صوتي ولا أن يراني"

أشر القائد، الذي كان لا يصدق حتى هذه اللحظة مجمل القصة، إلى أحد الضباط أن يرافق عواد إلى أبعد مكان ثم طلب من جندي ضخم أن يرفع الغطاء. عندما تم له ما أراد، قال موجهاً كلامه إلى داخل النفق بصوت عال:

"أيها السيد خلف أبو السيف، أنا الكولونيل (م) آمر الكتيبة (د) أطالبك بأسم القوات المسلحة التابعة للدولة العظمى أن ترمي سلاحك وتسلم نفسك

فوراً"

"أنا خلف أبو السيف، رئيس الجمهورية أريد أن أجري معكم مفاوضات"

"أول خطوة هي أن تخرج من النفق"

حين أطل بشعر رأسه الأشعث الطويل المنتصب القذر ولحيته الطويلة، أحسوا أنه يعاني صعوبة في الخروج من النفق، فساعدوه للخروج إلى الهواء النقي.

٢٦

الأعوام تمر بسرعة،

ولكنها تختلف في سرعتها من إنسان لآخر ومن جيل لآخر ومن مكان لآخر أيضاً. مر عقد من الزمن، تحجر فيه التقويم بكل مفرداته. الثانية الواحدة تحولت إلى ساعة والساعة الواحدة تحولت إلى نهار كامل. والنهار تحول إلى عام كامل. والعام تحول إلى قرن.

وفي الوقت نفسه جرى العكس في العملية. القرن الواحد تحول إلى عام، والعام الواحد تحول إلى نهار والنهار تحول إلى ساعة والساعة تحولت إلى ثانية. وهكذا لعب التقويم دوراً حاسماً في تسيير حياة الناس وأوضاعهم ومزاجهم. لقد إنقلبت الآية وتداخلت الأمور. واختلط الحابل بالنابل، كما يقولون. وتغيرت الأشياء بشكل غريب. وراحت فئات من الناس تعاني الأمرين من هذه التحولات الغريبة، ولا سيما أولئك الذين كانوا يحملون التقاويم الصغيرة في جيوبهم والتي يسمونها (المفكرة) والمفكرة، في الحقيقة، هي المفردة الصحيحة التي حلت محل مفردة التقويم. وبدلا من أن يفكر الإنسان بنفسه، راحت المفكرة تفكر لهوترتب أموره. وأما الذين كانوا لا يملكون التقويم أي المفكرة أصلاً، فإنهم ظلوا تائهين.

وجـاء بعض الوعـاظ من هنا وهناك، ممن درسـوا في أكـاديميـات أشـرفت عليها (المفكرات الغربية) للبحث عن العمل، ولكن عبثاً، إذ أنهم لم يتمكنوا من إثبات إمتلاكهم للمفكرة، ناهيك أنهم لم يعرفوا أصلاً ما هي المفكرة.

كان هؤلاء (العلماء) الذين بقوا خارج طاحونة الزمن، يريدون أن يعيشوا كالآخرين ويعيلوا عوائلهم ويساعدوا أقاربهم الفقراء. وراحوا يشكلون فيما بينهم مجمعا علمياً يقوم بدراسة ظاهرة عدم إمتلاكهم للمفكرة (التقويم) المطلوب. وإذا كانوا يحتاجون إلى معونات مالية لتمشية أعمالهم، اتصلوا بأصحاب المال ممن أنحدروا من العوائل التي صعدت في حينها بدون المفكرة. وأعلموهم بأن هناك ٨٠٪ من الجماهير لا تملك أيمفكرة وإنهم بصدد تجميع هؤلاء المنسيين وتنويرهم لأسباب عدم إمتلاكهم لهذه الوثيقة التي يمكن للإنسان أن يعيش مرفهاً من دونها. أو أن يحصل عليها بطريقة ما. ولما كان المنسيون يشكلون قوة حاسمة في المجتمع، ولكن جاهلة بأمور الحياة، لذا أستقبلوا مطلب العلماء برحابة صدر ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، على أن يضعوا حياتهم وأموالهم أيضاً في خدمة الحركة التي تمكنت في وقت قصير جداً كسب العلماء و٨٠٪ من الجهلة المسحوقين.

وبدأت الحركة الجديدة تطرح برامجها وتنافس القوى والحركات التقليدية في توطيد العلاقة مع الجماهير والبحث عن أسباب بؤسها وفقرها وإيجاد العلاج اللازم لها. وبدأ المجمع يتصل بشكل منظم بمراكز الدراسات الأستراتيجية وتتبادل معها الآراء حول تفسير الزمن وماهيته ودوره في خلق مجتمع عادل يؤدي إلى فردوس أرضي، يقدم للمؤمن مثالاً مصغراً للجنة.

وتقرر أن تكون الوسيلة في البداية عن طريق الإقناع السلمي. وحين يشتد عود الحركة فيجب الإعتماد على القوة التي يفرضها السيف، حيث سيكون نهب وسلب مال غير المؤمن حلالا.

كان خلف أبو السيف من الفئة التي لا تملك المفكرة، ولكن بعد أن تبنته

مخابرات الدولة العظمى وعقدت عليه الآمال، منحته مفكرة جديدة يمكنه من خلالها أن يحكم بلده الغني إلى الأبد، بيد أنه رغم إمتلاكه للمفكرة المطلوبة،لم يستعملها ولذلك لم يتمكن من فهم حقيقة ماذا يعني تجاوز الخط الأحمر. كما أنه لم يفهم خطورة الحرب مع دولة خراسان أو إعلان حرب الإبادة ضد شعب ميدستان أو إحتلال دولة مرجان.

كان الزمن الذي يتمتع به خلف أبو السيف حين كان رئيساً للجمهورية من النوع الذي لا ينتهي، ولكنه ما أن تم إلقاء القبض عليه، إنقلبت الآية. عندما كان في المخبأ، تحجر الزمن وتحول العام إلى قرن. وأما فترة العقود الثلاثة في الحكم، فتحولت إلى ثلاث ساعات فقط بتوقيت المخبأ. أحياناً يحتد الأمر وتتحول الدقيقة الواحدة في المخبأ إلى شهر.

وأما الآن فهو في سجن غريب عليه، لا يدري أين. يتذكر فترة العقود الثلاثة التي قضاها في الحكم، فتبدو كما لو أنها لم تكن.

مرعلى إنتهاء عهد خلف أبو السيف، الذي استغرق نحو ثلاثة عقود ونصف العقد، عشر سنوات، جرت فيها من الأحداث ما يعادل دهراً من الزمن: تم القبض فيه على خلف أبو السيف، الذي سماه بعض كتاب بلده بـ (خلف أبو السيف الخشبي). وظل اللقب ملتصقاًبه إلى ما بعد موته شنقاً حتى الموت. لقد تحول خلف يوم إعدامه إلى مهزلة لا مثيل لها.

الزبانية الخمسة الذين كان يعتمد عليهم خلف أبو السيف، نزلوا إلى الشوارع يقودون حملات السرقة والنهب ويلقون القبض على أعوان النظام السابق ويسلمونهم إلى قوات الدولة العظمى ويكسرون أبواب السجون ويطلقون السجناء أو يشكلون منهم عصابات للسطو على البنوك والمحلات التجارية.

وأنتشرت أزياء رجال الدين الذين أنتشروا في كل مكان، يبيعون شهادات تقر بأنك مؤمن فعلاً، وأن إحدى رجليك في الجنة، ولكن ينبغي عليك أن تحدد

مذهبك، كي يسجله في الإستمارة: سلفي أم خلفي. وراح الكثير من المواطنين يؤكدون بأن الخلفيين هم أتباع خلف أبو السيف. وتمكنوا في فترة وجيزة أن يحولوا قبره إلى مرقد فمزار علني يؤمه الخلفيون وأتباعهم في كل أيام الأسبوع وطيلة العام.

عواد أختفى عن الأنظار في الليلة نفسها التي قاد فيها قوات الدولة العظمى إلى مخبأ خلف أبو السيف.

بعد أن تم وضع دستور جديد وتشكيل حكومة طوائف، أنسحبت قوات الدولة العظمى لتواصل مهمتها في مكان آخر من الأرض.

كان عواد يعيش في إحدى الدول المجاورة ويعمل كمقاول معترف به رسمياً، إذ أنه تمكن أن يحصل على جزء من المكافأة المخصصة لمن دلّ على مكان إختفاء خلف. وتمكن أن يستثمر حصته في المقاولات التي نجحت بفضل جهود مهندس من بلده. وكان المهندس يزور أهله الساكنين في العاصمة بانتظام. وكلما عاد من سفرته وتحدث عن أجواء العاصمة وذكرياتها، هاج به الحنين ألى الوطن وتمنى لو تسنت له الفرصة لزيارته.

ذات يوم تمكن المهندس من إقناعه للزيارة وتعهد أن يتحمل كامل المسؤولية التي قد تترتب من وراء السفر وقال له أن الدولة كلها مبنية على أساس الرشوة.

وصلت الطائرة إلى المطار الدولي في الوقت المحدد دون تأخير. وجرى تفتيش روتيني سريع على الحقائب اليدوية ثم ودعهم الضابط، قائلاً:

"أهلاً بكم في وطنكم"

قال المهندس منتصراً:

"هذا هو كل ما في الأمر"

قال عواد وهو لا يصدق عينيه:

"نحن الآن في وطننا إذاً"

أتفقا أن يبقيا في البلد ثلاثة أيام فقط. وأبدى عواد رغبته بعدم ترك العاصمة ولا زيارة مدينته. إنه لا يريد أن يعرفوا بأنه هنا. أمنيته الوحيدة هي أن يطلع على المعالم القديمة في العاصمة. ويريد أن يتمشى في شارع السلاطين من بدايته فى باب العظماء إلى نهايته في باب الحرية. قال المهندس بإستغراب:

"ألم تجد مكانا يعجبك في هذه المدينة الكبيرة غير هذا الشارع؟"

"لماذا؟ ما به؟"

"إنه مجموعة خرائب وأكوام من التراب، لا تستفيد منه"

قال عواد بإصرار:

"هذا الكلام كله لا ينفع. أنا سأنفذ قراري"

"أنت تحتاج لتنفيذ قرارك على الأقل إلى ست ساعات. إذا كنت مصراً على رأيك فيجب أن نتفق على موعد"

كان عواد يعرف أن صاحبه مربوط بكومة من المواعيد، بالأضافة إلى أنه كان يريد أن يتمشى هناك وحده، لذلك تمكن من إقناعه بأنه غداً في وقت مبكر من يوم الجمعة سيبدأ وحده بمشروعه مع شارع السلاطين.

أستيقظت العائلة في الساعة السادسة والنصف. في السابعة تم تناول الفطور وتم الأتفاق على تناول طعام الغداء في الساعة الثانية والنصف في البيت. أستقل عواد سيارة تاكسي إلى مدخل شارع السلاطين. لاحظ من خلال زجاج السيارة الجديدة، أن المدينة قد تغيرت وتحولت إلى قرية واسعة لا نهاية لها. لم يتمكن من ضبط سكوته، إلتفت إلى السائق قائلاً:

"هاي العاصمة قد تغيرت.."

تنهد السائق بحسرة قائلاً:

"هذه ليست عاصمة يا سيدي، إنها خرائب:

وأطبق عليهما الصمت بعد نحو نصف الساعة توقفت السيارة أمام تل من التراب والطابوق وبقايا بيت مهدم مع مجموعة من الشبابيك والأبواب المحطمة. قال السائق وهو يكاد يبكي:

"هذا هو مدخل شارع السلاطين أستاذ"

لم يتكلم عواد، ولكنه ظل حالماً. مد يده إلى جيبه، هنا قال السائق:

"واصل أستاذ، صديقك دفع الحساب"

وشق الأنقاض التي قطعت الشارع المهجور الذي أوقف حركة المرور في هذا الذي كان يسمى أيام زمان، شارع السلاطين.

مر بمكتبة السلاطين وراح يلتقط الكتب التي كان يبحث عنها. وبعد خطوات وقف أمام حانوت وطلب كأسا من عصير العنب البارد الذي سبق له أن كان يتمتع بشربه قبل عشرين عاماً. إنها النكهة نفسها ما قبل عقدين من الزمن. وقف أمام عمود رخامي، يتأمل الأشياء ويستعيد في مخيلته ماضيها المزدهر ويقارنها مع الحاضر المتهرئ. مر بجامع منزو في ركن مطل على الشارع، أدركته الشيخوخة، يبدو كما لو أنه يخفي نفسه من عابري السبيل. فكر عواد: أهكذا يغير الزمن الأشياء؟ ويتحول شارع السلاطين، أجمل شارع في العاصمة، إلى شارع البائسين؟ إن هؤلاء الذين يريدون أن يفلسفوا فكرة الزمن و المفكرة لهم الحق إذاً. إنهم لاشك سيبلغون هدفهم.

تبين له أن الشارع مفتوح إلى نهايته، ولكن فقط للمشاة والدراجات الهوائية. وجد نفسه بحاجة إلى أن يركن إلى زاوية، يحتسي فيها الشاي ويراقب المارة ويستعيد ذكرياته التي أثارها شارع السلاطين. وأما فكرته بشأن قطع الشارع إلى نهايته، فوجدها غير عملية. رأى أن الأسواق الفرعية والحوانيت ما زالت باقية، ولكنها تغيرت دون أن يدرك معالم وكنه التغيير. ها هي القهوة المعروفة التي كان يرتادها عند زياراته إلى العاصمة. كان الزحام

آنذاك شديدا. ومن هنا كان يراقب المارة.

كان المقهى فارغاً، كسابق عهده، حيث أن الزبائن يأتون عادة بعد الساعة العاشرة صباحا ويجلسون هناك إلى أن يحل موعد حلول صلاة الظهر. المقهى لم يتغير سوى في ديكوره الداخلي: كراسي وتخوت ومناضد جديدة بعض الشيء وصور تاريخية مختلفة على الجدران.

سحب من حمالة الجرائد نسخة من جريدة الأهالي وراح ينشغل بتقليب صفحاتها وهو يقرأها بعناية وفضول. ثم أجال عينيه في عناوين المحليات البارزة:

إرهابي يفجر نفسه في جامع سلفي. الحصيله ٣٢ قتيلاً.

الإرهابيون يخطفون طبيباً، يطالبونه لقاء إطلاقه مبلغ ٧٥٠٠٠ دولار.

إرهابي يعترف أنه ذبح ١٥ شخصاً من جنود الله.

الإرهابيون يفجرون أنبوب نفط رئيسي. حريق في المنطقة.

أحس بالقنابل تمطر عليه من كل الجهات وأنه جالس في فخ جاهز للإنفجار في كل لحظة. هل يترك المكان ويرجع إلى بيت أهل صديقه؟ وماذا يفيده الهروب؟ كلا. لن يرجع إلا في الموعد المتفق عليه. وجاء رجل جلس قبالته. يبدو أنه إمام جامع بكامل ملابسه وعمامته وحذائه ولحيته ونورانيته وعباءته. في أول وهلة بدا لعواد أنه يعرفه. وكان إمام الجامع أو الخطيب ينظر إليه بعين الشك والريبة وفي الوقت نفسه كان يخفي وجهه كي لا يتعرف عليه ثم راح يبالغ في إخفاء نفسه. وجد عواد إنه شديد الشبه بشخص يعرفه حق المعرفة. ثم راح هو الآخر يدقق في ملامح عواد. آنذاك تأكد هذا أنه لا محال هو بالذات. وفكر مرة أخرى:

إنه هو بلحمه ودمه، يا إلهي من أين جاء هذا الشبه؟

هل هو مجرد شبيه؟ أخوه؟ قريبه؟ إنه هو بالذات.

وقف الرجل في مكانه وهو يهم بترك المقهى. قطع عواد عليه الطريق قائلاً بفضول:

"هل نحن نعرف بعضنا بعضاً؟"

قال الامام بحدة:

"كلا أبداً، لا أنت تعرفني ولا أنا أعرفك"

"ألا تقول لي من أنت؟ لقد رأيتك اليوم في كل مكان. أنت لست غريباً عليّ. أنا أعرفك، حق المعرفة"

قال الرجل بإعتداد:

"أنت لا تعرفني يا بني، أنا إمام وخطيب جامع السلاطين، أنا:

خلف أبو السيف..!

ماركلييبرك: ٢٠١٢/٩/١١ - ٢٠١٣/٢/٢٢